الفوائد والقواعد

في تزكية النفس والسلوك

الطبعة الأولى ١٤٤٠ هـ

الفوائد والقواعد

في تزكية النفس والسلوك

تأليف

محمد شومان الرملي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين.

أما بعد، فهذه فوائد وقواعد في تزكية النفس، كنت قد جمعتها منذ نحو عشرين سنة، وبعضها من ما أودعته في كتبي متفرقًا وحسب الحاجة، ولا زلت منذ ذلك الوقت أضيف إليها الحين بعد الحين ما يقع لي من فوائد وقواعد أثناء المطالعة، دون تقصد البحث عنها.

وليُعلم أن هذه الفوائد والقواعد معتمدة على الكتاب الكريم والسنة النبوية الثابتة، ثم بعد ذلك على كلام أهل العلم، مما لا يخالف منهج وعقيدة وطريق أهل السنة والجماعة، خالية من البدع والمحدثات والضلالات، وما أكثرها في هذا الباب خصوصًا! أعني باب النفس ومتعلقاتها.

هذا، وأكثر هذه الفوائد من كلام الشيخين الإمامين: شيخ الإسلام، وتلميذه ابن القيم، رحمهما الله تعالى.

وقد عدت إليها الآن بعد انقطاع سنوات عن النظر فيها، فقمت بمراجعتها من جديد وترتيبها وتنسيقها، فجاءت كما هي الآن بين يدي القارئ.

فأسال الله أن ينفع بها كل من اطلع عليها من القراء الكرام، وأن يجعلها أساسًا لهم ولغيرهم من المهتمين، وخصوصًا المعلمين والوعاظ، يرجعون إليه ويعتمدون عليه في باب تزكية النفس، ليكونوا على بصيرة من أمرهم في أنفسهم، وفي دعوة غيرهم وتعليمهم، والأخذ بأيديهم إلى ما فيه صلاحهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة.

وبالله التوفيق.

وكتبه: محمد شومان

١٤٣٩هـ

تمهيد

شأن تزكية النفس

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا * وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا * وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:١-١٠].

فهذه أحد عشر قَسَمًا متواليًا ليس في القرآن الكريم بأكمله أقسام مثلها في عددها وكثرتها، جعل الله عز وجل فيها الفلاح منوطًا بتزكية النفس، والخيبة منوطة بتدسيتها؛ أي: بقَمعها وإخفائها بالفجور والمعصية.

وقال رسول الله ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»(١).

فأخبر ﷺ أن صلاح الجسد والجوارح والأعمال تابع لصلاح القلب والنيات والعقائد، فإذا كان القلب صالحًا طاهرًا مؤمنًا ظهر ذلك على الجوارح والأعمال، وإن لم يكن كذلك لم يظهر ذلك أو ظهر ضده.

قال شيخ الإسلام(٢): «أصل صلاح القلب صلاح إرادته ونيته، فإن لم يصلح ذلك لم يصلح القلب».

وقال(٣): «إذا نقصت الأعمال الظاهرة الواجبة كان ذلك لنقص ما في القلب من الإيمان، فلا يُتصوَّر مع كمال الإيمان الواجب الذي في القلب أن تعدم الأعمال الظاهرة الواجبة، بل يلزم من وجود هذا كاملًا وجود هذا كاملًا،

---

(١) بعض حديث، متفق عليه.

(٢) «الاستقامة» (٣٤/٢).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥٨٢/٧).

كما يلزم من نقص هذا نقص هذا، إذ تقدير إيمانٍ تامٍّ في القلب بلا ظاهر من قول وعمل كتقدير موجب تام بلا موجبه، وعلة تامة بلا معلولها، وهذا ممتنع».

معنى التزكية

الزكاة في اللغة ـ كما في المعاجم ـ: البركة والنماء. والطهارة. والصلاح.

قال شيخ الإسلام[1]: «الزكاة في اللغة: النماء والزيادة في الصلاح. يقال: زكا الشيء إذا نما في الصلاح. فالقلب يحتاج أن يَتَرَبَّى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح، كما يحتاج البدن أن يُرَبَّى بالأغذية المُصْلِحة له، ولا بد مع ذلك من منع ما يضره، فلا ينمو البدن إلا بإعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره، كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره، وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا».

وقال[2]: «فالتزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير فإنما تحصل بإزالة الشر، فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا».

وقال[3] في قول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور:٣٠]: «فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أقوى تزكية للنفس، وبين أن ترك الفواحش من زكاة النفوس، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور، من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك».

وقال[4]: «إن الشرك أعظم ما تنجس به النفس، وأعظم تزكية النفس وتطهيرها تزكيتها منه وتطهيرها منه».

قلت: فتزكية النفس وصلاح القلب يكون بالإيمان والعمل الصالح،

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٩٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٦/٥٦٠).

(٣) «العبودية» (ص ٩١).

(٤) «العبودية» (ص ٩١).

وبتطهيرها من ضد ذلك من الكفر والفسوق والعصيان، وهذا كله يكون بالعلم من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ والعمل به، فهذا الذي تكبُر به النفس وتنمو وتعلو وتشرُف وتظهر وتطهُر، كما سيأتي تفصيله.

أقسام النفس

اعلم أن النفس تنقسم من حيث الصفات ـ لا من حيث الذات ـ إلى ثلاث أنفس: الأمارة، واللوامة، والمطمئنة.

النفس الأمارة: وقد جاء وصفها بأنها أمارة بالسوء في قول الله تعالى على لسان امرأة العزيز:

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [يوسف:٥٣].

قال ابن سعدي[1]: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾؛ أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء؛ أي: الفاحشة وسائر الذنوب، فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾، فنجاه من نفسه الأمارة، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها، منقادة لداعي الهدى، متعاصية عن داعي الردى، فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبده».

وللصَّرْصَري[2]:

وأنتِ يا نفس مأوى كلِّ مُعضلةٍ ... وكلُّ داء بقلبي من عواديكِ
أنتِ الطَّليعةُ للشيطان في جسدي ... فليس يدخل إلا من نواحيكِ
لمّا فَسَحْتِ بتوفير الحظوظِ لهُ ... أضحى مع الدَّمِ يجري في مجاريكِ

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٢/٤٢٢).

(٢) «الآداب الشرعية» (٣/٥٩٨).

النفس اللوامة: ووصفها عز وجل باللوامة في قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ * وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:١-٢].

واللوّامة: هي كثيرة اللّوم، وهو العَذْل والعتاب، واللّوم أيضًا: التردد والتوقف في العمل، فتتردد النفس وتتوقف: هل أفعل أم لا أفعل؟!

قال الشوكاني(١): «معنى النفس اللوامة: النفس التي تلوم صاحبها على تقصيره، أو تلوم جميع النفوس على تقصيرها. قال الحسن: هي والله نفس المؤمن، لا يُرى المؤمن إلا يلوم نفسه: ما أردتِ بكذا؟ ما أردتِ بكذا؟ والفاجر لا يعاتب نفسه».

النفس المطمئنة: ووصفها تبارك وتعالى بالمطمئنة في قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ * ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ * فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

قال ابن القيم(٢): «حقيقة الطُّمَأنينة: السكون والاستقرار، فهي التي قد سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذكره، ولم تسكن إلى سواه، فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره، واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره، واطمأنت إلى لقائه ووعده، واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته، واطمأنت إلى الرضا به ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، واطمأنت إلى قضائه وقدره، واطمأنت إلى كفايته وحسْبِه وضمانه، فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين».

وقال(٣): «فإذا اطمأنت من الشك إلى اليقين، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن العجز إلى الكيس، ومن صولة العُجب إلى ذلة الإخبات، ومن

---

(١) «فتح القدير» (٥/٣٣٥).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/٧٦).

(٣) «الروح» (ص ٢٢٤-٢٢٥). ولكلامه بقية، تستحق الاطلاع والتأمل.

التِيه إلى التواضع، ومن الفتور إلى العمل، فقد باشرت روح الطُّمَأنينة.

وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة، فهي أول مفاتيح الخير، فإن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده بمنزلة النائم، بل أسوأ حالًا منه، فإن العاقل يعلم وعد الله ووعيده، وما تتقاضاه أوامر الرب تعالى ونواهيه وأحكامه من الحقوق، لكن يحجبه عن حقيقة الإدراك ويقعده عن الاستدراك سِنَة القلب، وهي غفلته التي رقد فيها فطال رقوده، وركد وأخلد إلى نوازع الشهوات، فاشتد إخلاده وركوده، وانغمس في غمار الشهوات، واستولت عليه العادات، ومخالطة أهل البطالات، ورضي بالتشبه بأهل إضاعة الأوقات، فهو في رقاده مع النائمين، وفي سكرته مع المخمورين.

فمتى انكشف عن قلبه سِنَة هذه الغفلة، بزجرة من زواجر الحق في قلبه، استجاب فيها لواعظ الله في قلب عبده المؤمن، أو همة علية أثارها مِعْول الفكر في المحل القابل، فضرب بمِعْول فكره، وكبر تكبيرة أضاءت له منها قصور الجنة، فقال:

ألا يــا نفــس ويحــك ســاعديني   بســعي منــك في ظُلَــم الليــالي

لعلــــك في القيامـــة أن تفـــوزي   بطيــب العــيش في تلــك العــلالي

فأثارت تلك الفكرة نورًا، رأى في ضوئه ما خلق له، وما سيلقاه بين يديه، من حين الموت إلى دخول دار القرار، ورأى سرعة انقضاء الدنيا، وعدم وفائها لبنيها، وقتلها لعشاقها، وفعلها بهم أنواع المثلات، فنهض في ذلك الضوء على ساق عزمه قائلًا: ﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٥٦]. فاستقبل بقية عمره التي لا قيمة لها، مستدركًا بها ما فات، مُحْيِيًا بها ما أمات، مستقبلًا بها ما تقدم له من العثرات، منتهزًا فرصة الإمكان التي إن فاتت فاته جميع الخيرات».

حال النفس المطمئنة عند الموت

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ * ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ * فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

قال ابن كثير(١): «هذا يقال لها عند الاحتضار وفي القيامة أيضًا». اهـ.

وقال تبارك وتعالى: ﴿ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ * وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ * وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ * فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ * تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ * فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ * فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ * فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ [الواقعة:٨٣-٩١].

قال ابن جرير(٢): قوله: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ * فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ ﴾، يقول تعالى ذكره: فأما إن كان الميت من المقربين الذين قربهم الله من جواره في جنانه، ﴿ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ ﴾، يقول: فله روح وريحان.

وذكر أقوالًا في معنى ﴿ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ ﴾، منها: عن أبي العالية: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾، قال: لم يكن أحد من المقربين يفارق الدنيا، والمقربون: السابقون، حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيَشُمَّه، ثم يُقبض.

ثم قال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال: عَنَى بالرَّوْح: الفرح والرحمة والمغفرة، وأصله من قولهم: وجدت رَوْحًا: إذا وجد نسيمًا يَسْتَرْوِح إليه من كرب الحرّ.

---

(١) «تفسيره» (٥١٠/٤).

(٢) «تفسيره» (١٢١/٢٧-١٢٢).

وأما الريحان، فإنه عندي الريحان الذي يُتلقى به عند الموت، كما قال أبو العالية والحسن ومَنْ قال في ذلك نحو قولهما، لأن ذلك الأغلب والأظهر من معانيه». اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۞ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، فقال ابن كثير[1]: «أي وأما إن كان المحتضَر من أصحاب اليمين، ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: تبشرهم الملائكة بذلك، تقول لأحدهم: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾؛ أي: لا بأس عليك، أنت إلى سلامة، أنت ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾».

وقال ابن سعدي[2]: «﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾؛ أي: إن كان الميت من المقربين إلى الله، المتقربين إليه بأداء الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات وفضول المباحات، (فـ) لهم (روح)؛ أي: راحة وطُمَأنينة، وسرور وبهجة، ونعيم القلب والروح، ﴿وَرَيْحَانٌ﴾، وهو اسم جامع لكل لذة بدنية، من أنواع المآكل والمشارب وغيرهما، وقيل: الريحان هو الطيب المعروف، فيكون تعبيرًا بنوع الشيء عن جنسه العام.

﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾، جامعة للأمرين كليهما، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيُبَشَّر المقربون عند الاحتضار بهذه البِشارة، التي تكاد تطير منها الأرواح فرحًا وسرورًا.

وقوله: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، وهم الذين أَدَّوْا الواجبات وتركوا المحرمات، وإن حصل منهم التقصير في بعض الحقوق التي لا تُخِلّ بتوحيدهم

---

(١) «تفسيره» (٣٠١/٤).

(٢) «تفسيره» (١٧١/٥).

وإيمانهم، فيقال لأحدهم: سلام ﴿لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾؛ أي: سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين؛ أي: يسلمون عليه ويحيونه عند وصوله إليهم ولقائهم له، أو يقال له: (سلام لك) من الآفات والبليات والعذاب، لأنك ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾، الذين سلِموا من الذنوب الموبقات». اهـ.

وقال الله تعالى بعد ذكر نعيم الجنة: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٣١-٣٢].

قال ابن كثير(١): «﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾؛ أي: كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله. ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون؛ أي: مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة». اهـ.

وقال ابن جرير(٢): «يقول تعالى ذكره: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ الذين تَقْبِض أرواحَهم ملائكةُ الله، وهم طيبون بتطييب الله إياهم بنظافة الإيمان، وطُهر الإسلام، في حال حياتهم وحال مماتهم.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾؛ يعني جل ثناؤه: أن الملائكة تقبض أرواح هؤلاء المتقين، وهي تقول لهم: سلام عليكم، صِيروا إلى الجنة، بِشارة من الله تبشرهم بها الملائكة». اهـ.

---

(١) «تفسيره» (٥٦٨/٢).

(٢) «تفسيره» (٧٠/١٤).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولَمّا يُلحد، فجلس رسول الله ﷺ مستقبل القبلة، وجلسنا حوله، وكأنّ على رؤوسنا الطير، وفي يده عُودٌ يَنكُتُ به في الأرض، فجعل ينظر إلى السماء وينظر إلى الأرض، وجعل يرفع بصره ويخفضه، ثلاثًا، فقال:

«اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»، مرتين، أو ثلاثًا.

ثم قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»، ثلاثًا.

ثم قال: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ[1] مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ (وفي رواية: الْمُطْمَئِنَّةُ)، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ». قال: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، (وفي رواية: حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ)، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ [عَزَّ وَجَلَّ]: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]. وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ».

قال: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ ـ يعني بها ـ عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا

---

(١) هو ما يُخلط من الطِّيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة. «نهاية».

قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ. بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۞ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۞ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:١٩-٢١]. فَيُكْتَبُ كِتَابُهُ فِي عِلِّيِّينَ، ثُمَّ يُقَالُ: أَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي وَعَدْتُهُمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى». قال: «فَيُرَدُّ إِلَى الْأَرْضِ، وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ».

قال: «فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الانْتِهَارِ فَيَنْتَهِرَانِهِ، وَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ. فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [إبراهيم:٢٧]. فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ. فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ».

قال: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ».

قال: «وَيَأْتِيهِ (وفي رواية: يُمَثَّلُ لَهُ)، رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، أَبْشِرْ بِرِضْوَانٍ مِنَ اللهِ، وَجَنَّاتٍ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ لَهُ: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا

كُنْتَ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللهِ، بَطِيئًا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا. ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَبَابٌ مِنَ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا [كَانَ] مَنْزِلَكَ لَوْ عَصَيْتَ اللهَ، أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ هَذَا. فَإِذَا رَأَى مَا فِي الْجَنَّةِ قَالَ: رَبِّ عَجِّلْ قِيَامَ السَّاعَةِ، كَيْمَا أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي. فَيُقَالُ لَهُ: اسْكُنْ».

قال: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ (وفي رواية: الْفَاجِرَ) إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ، سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ[1] مِنَ النَّارِ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ».

قال: «فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ[2] الْكَثِيرُ الشُّعَبِ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَتُقَطَّعُ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ، فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ: أَنْ لَا تَعْرُجَ رُوحُهُ مِنْ قِبَلِهِمْ. فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ. بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ». ثم قرأ رسول الله ﷺ: «﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ ﴾ [الأعراف:٤٠]. فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى. ثُمَّ يُقَالُ: أَعِيدُوا عَبْدِي إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي وَعَدْتُهُمْ أَنِّي مِنْهَا

---

(١) واحدها: مِسْح، وهو كساء من شعر، والمراد الكفن.

(٢) السَّفود والسُّفود: عُودٌ من حديد يُنظَمُ فيه اللحمُ ليُشْوَى، وشُعَب السفود: أسنانه التي يُغرز فيها اللحمُ للشِّواء. «معجم».

خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. فَتُطْرَحُ رُوحُهُ مِنَ السَّمَاءِ طَرْحًا، حَتَّى تَقَعَ فِي جَسَدِهِ». ثم قرأ: «﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١]، فتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ».

قال: «فَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الانْتِهَارِ، فَيَنْتَهِرَانِهِ، وَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ [لَهُ] مَاذَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَلَا يَهْتَدِي لِاسْمِهِ، فَيُقَالُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ ذَاكَ.

قال: «فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَوْتَ. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ. فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ (وفي رواية: يُمَثَّلُ لَهُ) رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ: وَأَنْتَ، فَبَشَّرَكَ اللهُ بِالشَّرِّ، مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا كُنْتَ بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللهِ، سَرِيعًا إِلَى مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ شَرًّا. ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ، فِي يَدِهِ مِرْزَبَةٌ، لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّى يَصِيرَ تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللهُ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ النَّارِ، وَيُمَهَّدُ مِنْ فُرُشِ النَّارِ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

---

(١) حديث صححه الحاكم، والذهبي، وابن القيم، ثم الألباني، ومن كتابه «أحكام الجنائز» نقلته، لما أودعه فيه من الزيادات الكثيرة والروايات العديدة، فجزاه الله خيرًا.

«الْمَيِّتُ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ، فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» الحديث(١).

وعنه رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«إِذَا حُضِرَ الْمُؤْمِنُ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ إِلَى رَوْحِ اللَّهِ، وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ الْمِسْكِ، حَتَّى أَنَّهُ لَيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا [يَشُمُّونَهُ]، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ السَّمَاءِ فَيَقُولُونَ: مَا أَطْيَبَ هَذِهِ الرِّيحَ الَّتِي جَاءَتْكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ، فَيَسْأَلُونَهُ: مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنْيَا، فَإِذَا قَالَ: أَمَا أَتَاكُمْ؟ قَالُوا: ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ» الحديث(٢).

وعنه رضي الله عنه قال:

«إِذَا خَرَجَتْ رُوحُ الْمُؤْمِنِ تَلَقَّاهَا مَلَكَانِ يُصْعِدَانِهَا».

قال حماد: فذَكَرَ من طِيب ريحها وذَكَرَ المسكَ.

قال: «وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكِ وَعَلَى جَسَدٍ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ، فَيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَقُولُ: انْطَلِقُوا

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٦٢) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه النسائي (٤/٨-٩)، وهذا لفظه، وابن حبان (٧٣٣ - موارد)، والحاكم (١/٣٥٢-٣٥٣)، وهو في «السلسلة الصحيحة» (١٣٠٩)، وزيادة «يَشُمُّونَهُ» لابن حبان والحاكم.

بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ[1]». الحديث[2].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ (أو قال: أَحَدُكُمْ)، أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولاَنِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولاَنِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولاَنِ: نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ» الحديث[3].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال نبي الله ﷺ:

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ» قال: «يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟» قال: «فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ». قال: «فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ». قال نبي الله ﷺ: «فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا».

قال قتادة: وذُكِر لنا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُمْلأُ عَلَيْهِ خَضِرًا، إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ[4].

تغير أحوال النفس

والنفس تتغير من حال إلى أخرى، فتارة تكون أمارة بالسوء، وتارة لوامة، وأخرى مطمئنة.

---

(١) أي: إلى سدرة المنتهى، كذا قال القاضي. كما في «شرح مسلم» للنووي (٢٠٥/١٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٢) وغيره.

(٣) أخرجه الترمذي (١٠٧١) وغيره، وجود إسناده الألباني في «الصحيحة» (٣٨٠/٣).

(٤) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

فبطاعتها لله تعالى تنتقل من أمارة إلى لوامة، ثم إلى مطمئنة، وينعكس الأمر بالمعصية.

وغاية كمال العبد أن يكون ذا نفس مطمئنة، وهذا لا يمكن تحصيله إلا برحمة من الله تعالى وتوفيق، نسأله سبحانه من فضله، إنه هو الجواد الكريم، والعليم الحكيم.

قال ابن القيم[١]: «والنفس قد تكون تارة أمارة، وتارة لوامة، وتارة مطمئنة، بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا، والحكم للغالب عليها من أحوالها، فكونها مطمئنة وصف مدح لها، وكونها أمارة بالسوء وصف ذم لها، وكونها لوامة ينقسم إلى المدح والذم، بحسب ما تلوم عليه».

قلت: وَصْفُ القرآن الكريم النفس باللوامة وَصْفُ مدح، ولذا أقسم الله تعالى بها، فلوم النفس صاحبها على فعل الشر وترك الخير ممدوح، وهو المقصود من القسم بالنفس اللوامة، ولكن أمر النفسِ العبدَ بالشر ونهيه عن الخير مذموم، والنفس اللوامة تلوم صاحبها على هذا وذاك، وتلومه على حال كونها أمارة، فلا تكون لوامة إلا وثمَّ معصية ومخالفة، فلذلك كانت دون المطمئنة الموصوفة بما تقدم.

وقد يكون المقصود من القَسَمِ القَسَمَ بجنس النفس اللوامة، وهو ممكن، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٧-٨]، وعندها يتوجه كلام ابن القيم بكون اللوامة صفةَ مدح أو ذم بحسب ما تلوم عليه، ويكون القَسَم قَسَمًا بجنس النفس اللوامة، سواء كانت مؤمنة أو كافرة، وذلك لعجيب خَلْقها وخُلُقها، وما استودِع فيها من أسرار، والله أعلم.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٧٨/١).

مجاهدة النفس

وإذ قد عُلِم شر النفس، وكثرة أمرها صاحبها بالسوء، وأنها مركب الشيطان، وشريكه في سحبه إلى النار، وعُلِم أن في طُمَأنينتها الخير كله، والفلاح كله، صار لزامًا على العاقل أن يتخلص من شرها، ويحملها على ما فيه صلاحها، وأن يكبح جماحها ويجاهدها على فعل الخير، ملزمًا إياها تقوى الله عز وجل، التي بها تكون زكاتها، فتفوز وتفلح فلاح الأبد، وتربح خير الدنيا والآخرة، وقد أقسم الحق جل وعلا على هذا فقال سبحانه:

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا * وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا * وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس:١-١٠].

قال ابن القيم[(١)]: «والمعنى: قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقّرها وصغرها بمعصية الله، وأصل التدسية: الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ [النحل:٥٩].

فالعاصي يدس نفسه في المعصية، ويخفي مكانها، يتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به، قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق، فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها، حتى تصير أشرف شيء وأكبره، وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى، وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو، فما صَغّر النفوس مثل معصية الله، وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله».

وقال[(٢)]: «قال بعض العارفين: انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم.

---

(١) «الجواب الكافي» (ص ٩١).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/٧٥).

فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك».

وعن فَضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في حَجة الوداع: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ»[١].

قال الحسن: ما الدابةُّ الجموحُ بأحوجَ إلى اللِّجام الشديد من نفسك[٢].

وكان يقول: إن النفس أمارة بالسوء، فإن عصتك في الطاعة فاعصها أنت في المعصية[٣].

وقال الآجُرّي في «أدب النفوس»: «اعلم أن النفس مثلها كمثل المُهر الحسن من الخيل، إذا نظر إليه الناظر أعجبه حسنه وبهاؤه، فيقول أهل البصيرة به: لا يُنتفع بهذا حتى يُراض رياضة حسنة ويؤدب أدبًا حسنًا، فحينئذ يُنتفع به، فيصلح للطلب والهرب، ويحمد راكبه عواقب تأديبه ورياضته، فإن لم يُؤَدَّب لم يُنتفع بحسنه ولا ببهائه، ولا يحمد راكبه عواقبه عند الحاجة.

فإن قبل صاحب هذا المُهر قول أهل النصيحة والبصيرة به علم أن هذا قول صحيح، فدفعه إلى رائضٍ فراضه، ثم لا يصلح أن يكون الرائض إلا عالمًا بالرياضة، معه صبر على ما معه من علم الرياضة، فإن كان معه علم بالرياضة ونصيحة انتفع به صاحبه، فإن كان الرائض لا معرفة معه بالرياضة ولا علم بأدب الخيل أفسد هذا المُهر وأتعب نفسه، ولم يحمد راكبه عواقبه، وإن كان الرائض معه معرفة الرياضة والأدب للخيل إلا أنه مع معرفته لم يصبر على مشقة

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٢١)، وابن ماجه (٣٩٣٤)، وابن حبان (٤٨٦٢)، واللفظ له، وغيرهم، وصححه الألباني.

(٢) «الإحياء» (٧١/٣).

(٣) «آداب الحسن البصري» لابن الجوزي (ص ٣٠).

الرياضة، وأحب الترفيه لنفسه، وتوانى عما وجب عليه من النصيحة في الرياضة، أفسد هذا المُهر وأساء إليه، ولم يصلح للطلب ولا للهرب، وكان له منظر بلا مَخْبَر.

فإن كان مالكه هو الرائض له ندم على توانيه يوم لا ينفعه الندم، حين نظر إلى غيره في وقت الطلب قد طلب فأدرك، وفي وقت الهرب قد هرب فسلم، وطلب هو فلم يدرك وهرب فلم يسلم ، كل ذلك بتوانيه وقلة صبره بعد معرفته منه، ثم أقبل على نفسه يلومها ويوبخها، فيقول: لم فرطتِ؟ لم قصرتِ؟ لقد عاد عليَّ من قلة صبري كلُّ ما أكره، والله المستعان.

اعقلوا رحمكم الله علم هذا المثل وتفقهوا به تفلحوا وتنجحوا».

ولله در من قال:

صبرت عن اللذات حتى تولتِ وألزمت نفسي تركها فاستمرتِ
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن تُوِّقَتْ تاقت وإلا تسلتِ

وقال ابن القيم[1]: «في النفس: كبر إبليس، وحسد قابيل، وعُتُوّ عاد، وطغيان ثمود، وجرأة نمرود، واستطالة فرعون، وبغي قارون، وقِحَة هامان، وهوى بَلعام، وحِيَل أصحاب السبت، وتمرد الوليد، وجهل أبي جهل.

وفيها من أخلاق البهائم: حرص الغراب، وشَرَه الكلب، ورعونة الطاووس، ودناءة الجُعَل، وعقوق الضَّبّ، وحقد الجمل، ووثوب الفهد، وصولة الأسد، وفسق الفأرة، وخبث الحية، وعَبَث القرد، وجمع النملة، ومكر الثعلب، وخفة الفراش، ولؤم الضبع.

غير أن الرياضة والمجاهدة تذهب ذلك، فمن استرسل مع طبعه فهو من هذا الجند، ولا تصلح سلعته لعقد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة:١١١]، فما اشترى إلا سلعة هذبها الإيمان، فخرجت من طبعها

---

(١) «الفوائد» (ص ٧٤-٧٥).

إلى بلدٍ سكانه التائبون العابدون».

وقال[1]: «قال رجل للحسن البصري رحمه الله تعالى: يا أبا سعيد، أي الجهاد أفضل؟ قال: جهادك هواك.

وسمعت شيخنا يقول: جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولًا حتى يخرج إليهم».

وقال[2]: «لما كان جهاد أعداء الله في الخارج فَرْعًا على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي ﷺ: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»[3]، كان جهاد النفس مُقَدَّمًا على جهاد العدو في الخارج وأصلًا له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولًا لتفعل ما أُمرتْ به، وتترك ما نُهيتْ عنه، ويحاربها في الله، لم يمكنه جهادُ عدوِّه في الخارج، فكيف يمكنه جهادُ عدوِّه والانتصافُ منه، وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه، لم يجاهده ولم يحاربه في الله؟! بل لا يمكنه الخروجُ إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج».

ولبعضهم:

فإنّ أمّارتي بالسُّوء ما اتّعظتْ ... من جهلها بنذير الشّيب والهَرَمِ
ولا أعدتْ من الفعل الجميل قِرى ... ضيف ألمَّ برأسي غير محتشمِ
لو كنت أعلم أني ما أُوقِّرهُ ... كتمتُ سرًّا بدا لي منه بالكَتَمِ
من لي بِرَدّ جِماحٍ من غَوايتها ... كما يُرَدّ جِماحُ الخيلِ باللُّجُمِ
فلا تَرُمْ بالمعاصي كسر شهوتها ... إن الطعام يُقوّي شهوةَ النَّهِمِ
والنّفس كالطّفل إنْ تهملْه شَبّ على ... حبّ الرَّضاع وإن تَفطمْه يَنْفَطِمِ

---

(١) «روضة المحبين» (ص ٤٧٨).

(٢) «زاد المعاد» (٣/٥-٦).

(٣) تقدم بنحوه قبل قليل، والجملة الثانية بهذا اللفظ في «صحيح البخاري»، من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

فـاصرف هواهـا وحـاذر أن تولّيَـهُ — إن الهـوى مـا تـولى يُصْـمِ أو يَصِـمِ
وراعهـا وهي في الأعمـال سـائمةٌ — وإن هي استحلتِ المرعى فـلا تَسُـمِ
كـم حسَّـنت لَذة للمـرء قاتلـةً — من حيث لم يـدر أن السّـمّ في الدَّسَـمِ
واخش الدسائس من جـوع ومـن شِبَعٍ — فـرُبّ مخمصـة شرٌّ مـن التُّخَـمِ
واستفرغ الدمع من عين قـد امـتلأتْ — مـن المحـارم والـزم حِميـةَ النـدمِ
وخالفِ النّفس والشيطان واعصـهما — وإن همـا محضـاك النصـح فـاتّهِمِ
ولا تطـع منهمـا خصـمًا ولا حَكَمًـا — فأنت تعـرف كيـد الخصـم والحَكَـمِ

وقال الغزالي[1]: «اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء، ميالة إلى الشر، فرّارة من الخير، وأُمِرْتَ بتزكيتها وتقويمها، وقَوْدها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعها عن شهواتها، وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها، ورجوت أن تصير النفسَ المطمئنةَ المدعوةَ إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولًا بوعظ نفسك».

قلت: ومع هذا فعلى العبد أن يعالج نفسه ويعمل على تزكيتها بالحق والعدل، دون إفراط ولا تفريط، وذلك لا يكون أبدًا إلا بالطرق الشرعية، كما سيأتي بيانه وتفصيله، فالنفس لها حقوق وعليها واجبات، وهي مطية صاحبها، بها يسير في طريقه إلى الله تعالى والدار الآخرة.

(١) «الإحياء» (٤/٤١٦).

وعن عَون بن أبي جُحَيْفَةَ، عن أبيه قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء مُتَبَذِّلَةً، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعامًا، فقال: كل فإني صائم. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل. فأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال: نم. فنام. ثم ذهب يقوم، فقال: نم. فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن. قال: فصليا. فقال له سلمان: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ سَلْمَانُ»[(١)].

قال ابن الجوزي[(٢)]: «أعجب الأشياء مجاهدة النفس، لأنها تحتاج إلى صناعة عجيبة، فإن أقوامًا أطلقوها فيما تحب فأوقعتهم فيما كرهوا، وإن أقوامًا بالغوا في خلافها حتى منعوها حقها وظلموها، وأثّر ظلمُهم لها في تعبداتهم، فمنهم من أساء غذاءها فأثر ذلك ضعف بدنها عن إقامة واجبها، ومنهم من أفردها في خلوة أثمرت الوحشة من الناس، وآلت إلى ترك فرض أو فضل من عيادة مريض أو بر والدة.

وإنما الحازم من تَعْلم منه نفسه الجِد وحفظ الأصول، فإذا فسح لها في مباح لم تتجاسر أن تتعداه، فيكون معها كالملك إذا مازح بعض جنده، فإنه لا ينبسط إليه الغلام، فإن انبسط ذَكر هيبة المملكة، فكذلك المحقق يعطيها حظها ويستوفي منها ما عليها».

وقال[(٣)]: «تأملت جهاد النفس فرأيته أعظم الجهاد، ورأيت خلقًا من

---

(١) أخرجه البخاري وغيره.

(٢) «صيد الخاطر» (ص ١٤١).

(٣) «صيد الخاطر» (ص ٨٠-٨٢).

العلماء والزهاد لا يفهمون معناه، لأن فيهم من منعها حظوظها على الإطلاق، وذلك غلط من وجهين:

أحدهما: أنه رُب مانع لها شهوة أعطاها بالمنع أوفى منها، مثل أن يمنعها مباحًا فيشتهر بمنعه إياها ذلك، فترضى النفس بالمنع لأنها قد استبَدلتْ به المدح.

وأخفى من ذلك أن يرى بمنعه إياها ما منع أنه قد فَضُل سواه ممن لم يمنعها ذلك، وهذه دقائق تحتاج إلى مِنقاش[1] فَهْمٍ يُخَلِّصها.

والوجه الثاني: أننا قد كُلِّفنا حفظها، ومن أسباب حفظها ميلها إلى الأشياء التي تُقِيمها، فلا بد من إعطائها ما يُقِيمها، وأكثر ذلك أو كله مما تشتهيه، ونحن كالوكلاء في حفظها، لأنها ليست لنا، بل هي وديعة عندنا، فمنعها حقوقها على الإطلاق خطر.

ثم رب شد أوجب استرخاء، ورب مُضَيِّق على نفسه فرت منه، فصعب عليه تلافيها، وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل، يحملها على مكروهها في تناول ما ترجو به العافية، ويُذَوِّب في المرارة قليلًا من الحلاوة، ويتناول من الأغذية مقدار ما يصفه الطبيب، ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطعم ربما جر جوعًا، ومن لقمه ربما حَرَمتْ لُقمات.

فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها، ولا يهمل مِقودها، بل يرخي لها في وقت والطِّوَل[2] بيده، فما دامت على الجادة لم يضايقها في التضييق عليها، فإذا رآها قد مالت ردها باللطف، فإن وَنَتْ وأبت فبالعنف، ويحسبها في مقام المداراة كالزوجة التي مبنى عقلها على الضعف والقلة، فهي تدارى عند نشوزها بالوعظ، فإن لم تصلح فبالهجر، فإن لم تستقم فبالضرب، وليس في سياط التأديب أجود من سوط عزم».

---

(١) المنقاش: مِلْقاط؛ أداة تُستخرج بها الأشياء الصغيرة، كالشوكة.

(٢) الرَّسَن أو الحبل.

تزكية النفس قائمة على العلم الشرعي

واعلم أن طرق تزكية النفس وإصلاحها وعلاجها من أمراضها لا بد أن تكون قائمة على علمٍ من الكتاب والسنة، وعملٍ بمقتضى هذا العلم، فإن الله عز وجل هو خالق هذه النفس وهو العليم بما يصلحها وما يفسدها، فإلى كتابه الكريم وبيانه من السنة المرجع في ذلك، والمُعَوَّل عليه فيه هو فضله سبحانه ورحمته.

قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢].

وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ۞ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥١-١٥٢].

قال ابن القيم(١): «وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكَّى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجئ بها الرسل فهو كالمريض الذي عالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟! فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم».

وقال(٢): «من أحالك على غير «أخبرنا» و«حدثنا» فقد أحالك إما على

(١) «مدارج السالكين» (٣٠٠/٢).

(٢) «مدارج السالكين» (٤٣٩/٢).

خيال صوفي، أو قياس فلسفي، أو رأي نفسي، فليس بعد القرآن و«أخبرنا» وحدثنا» إلا شبهات المتكلمين، وآراء المنحرفين، وخيالات المتصوفين، وقياس المتفلسفين.

ومن فارق الدليل ضل عن سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة، وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهي من طرق الجحيم والشيطان الرجيم، والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول».

وقال شيخ الإسلام(١): «وفي السلوك مسائل تنازع فيها الشيوخ، لكن يوجد في الكتاب والسنة من النصوص الدالة على الصواب في ذلك ما يفهمه غالب السالكين، فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد كلها منصوصة في الكتاب والسنة، وإنما اختلف أهل الكلام لما أعرضوا عن الكتاب والسنة، فلما دخلوا في البدع وقع الاختلاف، وهكذا طريق العبادة، عامةُ ما يقع فيه من الاختلاف إنما هو بسبب الإعراض عن الطريق المشروع، فيقعون في البدع، فيقع فيهم الخلاف.

وهكذا الفقه، إنما وقع فيه الاختلاف لما خَفِي عليهم بيان صاحب الشرع، ولكن هذا إنما يقع النزاع في الدقيق منه، وأما الجليل فلا يتنازعون فيه، والصحابة أنفسهم تنازعوا في بعض ذلك، ولم يتنازعوا في العقائد، ولا في الطريق إلى الله التي يصير بها الرجل من أولياء الله الأبرار المقربين». اهـ.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩/٢٧٤).

﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [النور:٢١].

فحَرِيٌّ بالموفق أن يلجأ إلى ربه ومولاه تبارك وتعالى وأن يدعوَه ويسأله برحمته، أن يؤتيَ نفسه تقواها، وأن يزكيها، فهو سبحانه وليها ومولاها، وهو خير من زكاها، وسيأتي تفصيل هذا، إن شاء الله[١].

فصل

وأعظم ما يدخل في هذا العلم الذي تزكو به النفوس وتصلح به القلوب علم التوحيد، وهو العلم بالله تعالى وعظمته وتفرده بالألوهية وصفات الكمال، الموجِبة لأن يحَب وحده، ويُتوجه إليه بالعبادة وحده، بكل أنواعها من صلاة وصيام، وتوبة وإنابة، وخوف ورجاء، وسائر عبادات القلب واللسان والجوارح.

وكذلك تفرده بالربوبية للعالمين، من خلق وإحياء وإماتة ورزق وضر ونفع ... إلخ.

ويدخل في علم التوحيد: العلم بأسماء الله تعالى الحسنى، وصفاته المجيدة، ذات الكمال المطلق من كل وجه، وإثباتها لله عز وجل دون غيره، على الوجه الذي يليق بكماله وجلاله وجماله.

وأكثر الخلق في غفلة عن هذا العلم الشريف، الذي هو أعظم العلوم وأنفعها للعبد، وأفضلها على الإطلاق، وسائر العلوم إنما هي من أجل تحقيق هذا العلم والعمل بما يمليه.

قال ابن سعدي[٢]: «المعارف التي تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد

(١) (صفحة ٣٢١ وما بعدها).

(٢) «القول السديد» (ص ١٥٨).

بأسمائه وصفاته، وتعبده بها لله، لا يُحَصِّل العبدُ في الدنيا أجلَّ ولا أفضل ولا أكمل منها، وهي أفضل العطايا من الله لعبده، وهي رُوح التوحيد ورَوْحه».

فصل

ويدخل في هذا العلم الشريف: العلم برقابة الله تعالى، وأنه مطلع على أفعال العباد وأقوالهم، عليم بذوات صدورهم، وهواجس نفوسهم، وأسرار سرائرهم.

فاذا تحقق العبد بمعرفة ذلك وامتلأ قلبه منه زكت نفسه ـ ولا بد ـ وصلحت واستقامت، واستحيي من الله تبارك وتعالى أن يراه على ما يكره أشد من استحيائه ممن يُعَظِّم من الخلق، قال تبارك اسمه: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء:١٠٨].

وقال سبحانه: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر:١٩].

وقد سئل النبي ﷺ: وما تزكية النفس؟ فقال: «أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ»(١).

ولا شيء أنفع في صلاحها من هذا (أعني: دوام المراقبة لله عز وجل).

فصل

هذا، ولا تصلح النفس بهذا العلم، العلم بالأسماء الحسنى والصفات العلى، حتى يكون قائمًا على مذهب أهل السنة والجماعة، فصلاح النفس أولًا قائم على معرفة الله والإقرار له بالوحدانية، فلا إله إلا هو، وقائم على معرفة صفاته كما أخبر بها عباده في كتابه وعلى لسانه نبيه ﷺ، ثم صلاح النفس ثانيًا بما توجبه هذه المعرفة من محبة الله وتعظيمه والخوف منه والرجاء له، فكيف يقوم العبد بمثل هذه

---

(١) سيأتي (صفحة ٥٤).

العبادات وهو لا يثبت لله أنه يحِب ويحَب، وصلاحها أيضًا بما توجبه هذه المعرفة من ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه وتدبره والتقرب إليه سبحانه بأنواع العبادات، فكيف سيقول الذاكر مثلًا «سبحان ربي الأعلى» على وجهها وهو لا يثبت لله العلو المطلق، وكيف سيدعوه ساعة النزول وهو ينكره، وكيف سيشتاق إلى رؤيته ويعبده طلبًا لأجلّ غاية وهو ينكر الرؤية، والمقصود أن تحصيل موجبات صلاح النفس وزكاتها لا تكون كلها على وجه الكمال والتمام حتى يكون اعتقاد النفس بالله وأسمائه وصفاته كما ورد في الكتاب والسنة، فيثبت كل ما ورد منها، وينفي كل ما نُفي، ويثبته على طريقة السلف، فيؤمن بها وبمعانيها، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، وتفصيل هذا ليس هنا موضعه.

فصل

ويدخل في هذا العلم ـ ولا بد ـ: العلم بالنفس وصفاتها، وما يزكيها ويُصلحها، من إخلاص وذكر وتوبة وإنابة وخشوع وتواضع ونحوها، والعلم بطرق تحصيلها، وأيضًا العلم بأمراضها، من رياء وعُجب وحرص وكبر وغل وحسد ونحوها، والعلم بطرق علاج هذه الأدواء، ويدخل فيه العلم بجناياتها وعقوبات الله تعالى عليها في الدنيا والآخرة، وكذلك العلم بثواب طاعاتها في الدنيا والآخرة، فيعمل بجِد على تحصيل هذه واجتناب تلك.

ولأبي الفتح البُستي:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمتـهِ	أتطلـب الـربح ممـا فيـه خســرانُ
أقبل على النفس واستكمل فضائلها	فأنـت بـالنفس لا بالجسـم إنسـانُ

ويكون ذلك ـ كما تقدم ـ بالطرق الشرعية، والعلاجات النبوية، والأدوية الربانية، الواردة في الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضي الله عنهم، لا بأي طريقة

أخرى خارج هذه الثلاث، مهما كانت في ظاهرها على شكل العبادة وشَبَهها من زهد وخشوع وذكر ونحوها، فلا التفات إلى شيء من هذا إذا كان على غير هدي سيد ولد آدم ﷺ، ولا التفات إلى فاعله في هذه الحال، مهما كانت منزلته وشهرته وكثرة أتباعه، فالنبي ﷺ وهديه فوق كل أحد من البشر، ولسنا مأمورين ولا ملزمين باتباع أحد سواه ﷺ، ولسنا محاسبين ولا معاتبين على مخالفة أحد سواه ﷺ.

وما أنفس ما قاله الشوكاني! خاتمًا به كتابه «أدب الطلب»، مما يناسب ما نحن بصدد التنبيه إليه، والتأكيد عليه، قال لله دره: «والخير كل الخير في الكتاب والسنة، فما خرج عن ذلك فلا خير فيه وإن جاءنا أزهد الناس في الدنيا، وأرغبهم في الآخرة، وأتقاهم لله تعالى، وأخشاهم له في الظاهر، فإنه لا زهد لمن لم يمش على الهدى النبوي، ولا تقوى ولا خشية لمن لم يسلك الصراط المستقيم، فإن الأمور لا تكون طاعات بالتعب فيها والنَّصَب وإيقاعها على أبلغ الوجوه، بل إنما تكون طاعات خالصة محضة مباركة نافعة بموافقة الشرع، والمشي على الطريقة المحمدية، واعتبر بالخوارج، فقد وصفهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما وصف من تلك العبادات والمجاهدات التي لا تبلغ عبادتنا ولا مجاهدتنا إلى شيء منها، ولا تُعتبر بالنسبة إليها، ومع هذا فقال: إنها لا تجاوز تراقيهم. وقال: إنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. وقال إنهم كلاب النار[1]. فانظر كيف كانت مجاهداتهم وعباداتهم وقيامهم الليل وصيامهم النهار نقمة عليهم وبلية ومحنة لهم! لم تَعُدْ عليهم بنفع قط، إلا ما أصيبوا به من الخسار والنكال والوبال، فكانت تلك الطاعات الصُّوْرية من صلاة وصيام وتهجد وقيام هي نفس المعاصي الموجبة للنار!

وهكذا كل من رام أن يطيع الله على غير الوجه الذي شرعه الله لعباده

(١) قوله ﷺ: «لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ». و«يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ». بعض حديث، متفق عليه. وحديث: «الْخَوَارِجُ كِلَابُ النَّارِ». أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (١٧٣) وغيره، وصححه الألباني.

وارتضاه لهم، فإنه ربما يلحق بالخوارج بجامع وقوع ما أطاعوا الله به على غير ما شرعه لهم في كتابه وعلى لسان رسوله.

وإني أخشى أن يكون من هذا القَبيل ما يقع من كثير من المتصوفة من تلك الأقوال والأفعال التي ظاهرها التنفير عن الدنيا والبعد عن أهلها والفرار عن زينتها، مع تلك الوظائف التي يلازمونها من التخشع والانكسار والتلهب[1] والتأسف، والصراخ تارة والهدوء تارة أخرى، والرياضات والمجاهدات، وملازمة أذكار يذكرون بها لم ترد في الشرع على صفات لم يأذن الله بها، مع ملازمة تلك الثياب الخشنة الدرنة، والقعود في تلك المساطب القذرة، وما ينضم إلى ذلك من ذلك الهيام والشطح والأحوال التي لو كان فيها خير لكانت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الذين هم خير القرون.

ولا أنكر أن في هذه الطائفة مَنْ قد بلغ في تهذيب نفسه وغسلها من الطواغيت الباطنة والأصنام المستورة عن الناس كالحسد والكبر والعجب والرياء ومحبة الثناء والشرف والمال والجاه مبلغًا عظيمًا وارتقى مرتقًا جسيمًا، ولكني أكره له أن يتداوى بغير الكتاب والسنة، وأن يتطبب بغير الطب الذي اختاره الله لعباده، فإن في القوارع القرآنية والزواجر المصطفوية ما يغسل كل قذَر، ويدحض كل درَن، ويدمغ كل شبهة، ويدفع كل عارض من عوارض السوء، فأنا أحب لكل عليل في الدين أن يتداوى بهذا الدواء، فيعكف على تلاوة كتاب الله متدبرًا له، متفهمًا لمعانيه، باحثًا عن مشكلاته، سائلًا عن معضلاته، ، ويديم النظر في كتب السنة المعتبرة عند أهل الإسلام، كالأمهات الست وما يلحق بها، ويستكثر من مطالعة السيرة النبوية، ويتدبر ما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ليله ونهاره، ويتفكر في أخلاقه وشمائله، وهديه وسَمْته، وما

(١) أظنها عند الصوفية حالًا من أحوال القلب، معناها: تحرّقه واشتعاله حبًّا وشوقًا؛ تشبه الوَجْد، ولعله يقصده.

كان عليه أصحابه، وكيف كان هديهم في عبادتهم ومعاملاتهم.

فإنه إذا تداوى بهذا الدواء، ولاحظته العناية الربانية، وجذبته الهداية الإلهية، فاز بكل خير، مع ما له من الأجر الكثير والثواب الكبير في مباشرة هذه الأسباب، وإذا حال بينه وبين الانتفاع بهذه الأمور حائل، ومنعه من الظفر بما يترتب عليها مانع، فقد نال بتلك الأسباب التي باشرها أجرًا عظيمًا، لأنه طلب الخير من معدنه، ورام نيل الرشد من موطنه، فكان له في تلك الأشغال من الأجر ما لطلبة علم الشرع، لأنه قد جهد نفسه في الأسباب ولم يُفتح له الباب.

فانظر كم بين هذين الأمرين من المسافة الطويلة، فإن طالب الرشد بغير الأسباب الشرعية لا يأمن على نفسه بعد الوصول إلى مطلوبه من أن يكون صنعه كصنع الخوارج في خسرانهم بما ظنوه ربحًا، ووقوعهم في الظلمة وقد كانوا يظنون أنهم يلاقون صبحًا، لأنهم خالفوا الطريقة التي أرشد الله إليها عباده وأمرهم بسلوكها.

وإذا كان هذا الأمر مجوزًا في طلبة الخير من غير طريق الشرع، كصلحاء الصوفية اللذين لا رغبة لهم في غير تهذيب أخلاقهم على وجه يوجب زهدهم فيما ترغب النفوس إليه، وتتهالك الطبائع البشرية عليه، فما ظنك بمن كان من متصوفة الفلاسفة؟! الذين يدورون بمرقعاتهم وأبدانهم القشفة(١) وثيابهم الخشنة ووجوههم المصفرة حول ما يقوله الفلاسفة من تلك المقالات، التي هي ضد الشرع وخلاف له، وينهقون عند إدراك شيء من تلك المعارف الشيطانية نهيقًا منكرًا، ويُسَمُّون ذلك حالًا، وهو عند التحقيق حالٌ حائلٌ عن طريق الدين، وخيال مائل عن سبيل المؤمنين». اهـ.

---

(١) أي: الوسخة، التي لم يتعاهدها أصحابها بالغسل والتنظيف.

فصل

ومن أعظم ما يدخل في العلم الذي به صلاح النفوس: العلم بالأحكام الشرعية بأدلتها من الكتاب والسنة الصحيحة (الفقه)، وإلا فكيف يطيع العبد ربه، وكيف يعبده دون هذا العلم؟!

وبعض الطوائف يغلب عليهم الإهمال لهذا العلم، مع الاهتمام بالعبادات، ويقابلهم من يعكس ذلك، فيهتمون بالعلم ولا يهتمون بالعبادة، وكلاهما منحرف عن الصراط المستقيم، مائل عن هدي الرسول الكريم ﷺ.

فصل

ويجمع كل ما ذكرنا من العلم: العلم بكتاب الله تعالى، وما ثبت من سنة النبي ﷺ، وفهمهما بطريقة السلف الصالح (الأولين) ومنهاجهم، ففيهما الأمان من الزيغ، والعصمة من الضلال، وفيهما الكفاية والهداية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»(١).

وعن عبد الرحمن بن عمرو السُّلمي، وحُجْر بن حُجْر قالا: أتينا العرباض بن سارية، وهو ممن نزل فيه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة:٩٢]. فسلمنا، وقلنا: أتيناك زائرين وعائدين ومقتبِسين، فقال العرباض: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع! فماذا تعهد إلينا؟ فقال:

---

(١) أخرجه الحاكم (١٧٢/١) وغيره. وهو في «صحيح الجامع» (٢٩٣٧).

«أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١).

ثم وجدت لشيخ الإسلام كلامًا فريدًا في شأن العلم، أثلج صدري، ووافق ما في نفسي، ذكره أثناء اشتراطه حفظ القرآن الكريم للمجتهد(٢)، قال: «العلم الأصلي هو العلم الذي بُعِث به الرسل وأُنزل به الكتب، وهو علم الإيمان، وعلم أحوال القلوب، وما تزكو به، من الخشية والإنابة والتوكل والرضا والصبر واليقين والمحبة، والزهد في الدنيا وطلب الآخرة، والحب في الله والبغض في الله، ومحبة الله وكتابه ورسوله، والنصيحة لله ولكتابه ولرسوله وللمؤمنين، والإخلاص والصدق والشكر لله دائمًا، وعلم شروط الأعمال وما يصححها ويفسدها مما يتعلق بالقلوب، من الرياء والعُجب والغفلة عن معانيها، وغير ذلك مما هو مبسوط في غير هذا الموضع.

ومن ذلك: معرفة النفس وشرورها ودسائسها، من الشِّرَة والحرص والحسد والغضب والكبر والبخل، وحب الدنيا وحب التعظيم وحب الرياسة، ومعرفة الشيطان وكيده ومداخل غروره، ومعرفة موازين الأعمال، وما الذي ينبغي أن يبدأ به، وأيها الذي يرجح على صاحبه عند الله محبة ومنزلة، ومراعاة موقع نظر الرب وإهمال موقع نظر الخلق، ومعرفة حقوق الخلق، مثل الوالدين وذوي الأرحام، والأئمة من أهل العدل والإنصاف، والعلماء العاملين، والصلحاء المقتدين، والمشايخ المهتدين، والجيران وعامة المؤمنين، وما الذي يجب لكل منهم من الحق، ومعرفة الأمر بالمعروف والنهي عن

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) وهو ضمن فصل في آخر رسالة مطبوعة معنونة باسم: «فضائل الأئمة الأربعة»!!

المنكر، وكيفيته وصفته، إلى غير ذلك مما قد ذكر في غير هذا الموضع.

فهذا هو العلم المطلوب من الخلق معرفته، وهو أصل التوحيد الذي ما أنزل الله كتابًا ولا أرسل رسولًا إلا به، ودعوة الرسل كلهم إليه، وسائر العلوم وسيلة إليه.

وبعد ذلك معرفة أحكام الشريعة وأمور الدين، وبعد هذا كله علم الفروع المعروف عن الرسول وعن أصحابه، الأهم منه فالأهم». اهـ.

فصل

وما يحصِّله العباد من هذا العلم درجات كثيرة جدًّا، لا يحصيها إلا الله تعالى، وبقدر هذا العلم والعمل به تكون زكاة النفس وصلاحها، وتكون سعادتها في الدنيا والآخرة، وتوفيق المولى النصير سبحانه من وراء ذلك كله.

هذا، وكلما ازداد العبد من هذا العلم ازدادت نفسه زكاة وطُهرًا ونورًا، وكلما زكت النفس رسخ فيها العلم وآتى ثماره.

قال شيخ الإسلام[١]: «إن القلب إذا كان رقيقًا ليِّنًا كان قَبوله للعلم سهلًا يسيرًا، ورسخ العلم فيه وثبَت وأثّر، وإن كان قاسيًا غليظًا كان قَبوله للعلم صعبًا عسيرًا، ولا بد مع ذلك أن يكون زكيًّا صافيًا سليمًا حتى يزكو فيه العلم ويثمر فيه ثمرًا طيبًا، وإلا فلو قبل العلم وكان فيه كَدَر وخَبَث أفسد ذلك العلمَ، وكان كالدَّغَل[٢] في المُزْدَرَع[٣]، إن لم يَمنع الحَبَّ من أن يُنْبِت مَنَعه من أن يزكو ويَطيب، وهذا بيّن لأولي الأبصار».

وقال علي بن خَشْرَمٍ: ما رأيت بيد وكيعٍ كتابًا قط، إنما هو حفظٌ، فسألته

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٩/٣١٥).

(٢) الدَّغَل: الشجر الكثير الملتف.

(٣) المُزْدَرَع: موضع الزرع.

عن أدوية الحفظ، فقال: إنْ علّمتُك الدواءَ استعملتَه؟! قلت: إي والله. قال: ترك المعاصي، ما جربت مثله للحفظ[1].

ومما يُنسب إلى الشافعي[2]:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال اعلم بأن العلم فضلٌ ... وفضلُ الله لا يؤتاه عاصي

وقيل:

ونفسك فازجرها عن الغَيِّ والخَنَا ... ولا تَتَبَّعْها فهي أُسُّ المفاسدِ
وحاذر هواها ما استطعت فإنهُ ... يَصُدُّ عن الطاعات غيرَ المجاهدِ
وإنّ جهاد النفس حَتْمٌ على الفتى ... وإن التُّقَى حقًّا لَخَيْرُ المقاصدِ
فإن رمت أن تحظى بنيل سعادةٍ ... وتُعطَى مقامَ السالكين الأماجدِ
فبادر بتقوى الله واسلك سبيلها ... ولا تَتَّبِعْ غَيَّ الرجيم المعاندِ
تمسك بشرع الله والزم كتابهُ ... وبالعلم فاعمل تَحْوِ كلَّ المحامدِ

ومن لامية ابن الوردي:

يا بُنَيّ اسمع وصايا جَمَعَتْ ... حِكَمًا خُصَّتْ بها خيرُ المِلَلْ
اطلبِ العلمَ ولا تكسلْ فما ... أبعدَ الخيرَ على أهل الكسلْ
واهجرِ النومَ وحَصِّلْهُ فمَنْ ... يَعرفِ المطلوبَ يَحقِرْ ما بذلْ
لا تقل قد ذهبتْ أربابُهُ ... كلُّ من سار على الدرب وصلْ
في ازدياد العلمِ إرغامُ العِدا ... وجمالُ العلمِ إصلاحُ العملْ

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٥١/٩).

(٢) انظر «الداء والدواء = الجواب الكافي» لابن القيم (ص ٥٢).

فضل العلم

وقال العليم الخبير سبحانه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨].

فبدأ سبحانه بنفسه الكريمة شاهدًا على توحيده وقيامه على خلقه بالقسط، ثم ثنى بملائكته عليهم السلام، ثم ثلث بالذين أوتوا العلم، وكفى بهذا شرفًا ورفعة للعلم وأهله.

وقال تبارك وتعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة:١١].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر:٢٨].

فهم الذين عرفوا جلاله وعظمته وحقه، فحَرِيٌّ بهم أن يَخْشَوْه، ويأتمروا بأمره، وينتهوا عن نهيه، ومن أولى منهم بذلك؟!!

وقال سبحانه: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا * قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء:١٠٦-١٠٩].

والمعنى: سواء آمنتم بالقرآن الكريم والفرقان المبين أو لم تؤمنوا، فإن لله تعالى عبادًا غيركم (هم الذين أوتوا العلم) قد آمنوا به وصدقوه، وأذعنوا له أعظم إذعان، وتأثروا به أشد تأثر، حتى خروا سُجَّدًا للأذقان، باكين خاشعين خاضعين، فأي شرف لأهل العلم أعظم من هذا؟!! وأي فضل أكبر منه؟!!

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا

ﭐلۡعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣].

وقال تعالى: ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ ﴾ [العنكبوت:٤٩].

فأي فضل لأهل العلم أعظم من هذا؟!! ولله تلك الصدور وما احتوت عليه من آيات الله عز وجل!! فهنيئًا لها نورها وانشراحها به وسعادتها!!

وفي فضل العلم وأهله وذم الجهل وأهله آيات كثيرة لا تكاد تحصى.

فصل

وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»(١).

وعن عثمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»(٢).

وعن أبي أُمَامَةَ الباهلي رضي الله عنه قال: ذُكِرَ لرسول الله ﷺ رجلان، أحدهما عابد، والآخر عالم، فقال رسول الله ﷺ:

«فَضْلُ العَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ».

ثم قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ، وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ، حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتَ، لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ»(٣).

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ:

«فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ»(٤).

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه البخاري وغيره.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٩٦٠) وغيرُه، وصححه الألباني.

قلت: وهذا إذا تزاحمت نافلة العلم مع نافلة العبادة، أو في الوقت الفارغ بعد أداء سنن العبادات والنوافل الواردة، فيقدم العلم بنص هذا الحديث، وليس المقصود الاشتغال بطلب العلم وترك النوافل طول العمر، كما يفعله عامة من ينسبون أنفسهم إلى العلم والسنة في هذا الزمان، فما كان هذا طريق السلف، ولا فِعل أهل العلم السابقين، ولا القدوة من المتأخرين، بل المتتبع لسيرتهم يجدهم أكثر الناس حرصًا على النوافل، من صلاة وصيام وذكر وجهاد وغيرها، خلافًا لما يُلَبِّسه بعض من ذكرنا على العوام، ليبرروا لهم كسلهم وتركهم بل هجرهم هدي السلف في التبتل والعبادة!!!.

قال الذهبي[1]: «هذه مسألة مختلف فيها: هل طلب العلم أفضل، أو صلاة النافلة والتلاوة والذكر؟ فأما من كان مخلصًا لله في طلب العلم، وذهنه جيد، فالعلم أولى، ولكن مع حظ من صلاة وتعبد، فإن رأيته مُجِدًّا في طلب العلم لا حظ له في القربات، فهذا كسلان مهين، وليس هو بصادق في حسن نيته، وأما من كان طلبه الحديث والفقه غِيَّة ومحبة نفسانية، فالعبادة في حقه أفضل، بل ما بينهما أَفْعُلُ تفضيل، وهذا تقسيم في الجملة، فقَلَّ والله من رأيته مخلصًا في طلب العلم!». اهـ.

وعن قيس بن كَثير قال: قدم رجل من المدينة على أبي الدرداء وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك يا أخي؟ فقال: حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ. قال: أما جئت لحاجة؟ قال: لا. قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا. قال: ما جئت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٦٧/٧).

الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدث صفوان بن عسال المُرادي قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو متكئ في المسجد على بُرْدٍ له، فقلت له: يا رسول الله، إني جئت أطلب العلم. فقال:

«مَرْحَبًا بطالبِ الْعِلْمِ، طَالِبُ الْعِلْمِ لَتَحُفُّهُ الْمَلَائِكَةُ وَتُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا، ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغُوا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِنْ حُبِّهِمْ لِمَا يَطْلُبُ، فَمَا جِئْتَ تَطْلُبُ؟».

قال: قال صفوان: يا رسول الله، لا نزال نسافر بين مكة والمدينة، فأفتنا عن المسح على الخفين، فقال له رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ لِلْمُسَافِرِ، وَيَوْمٌ وَلَيْلَةٌ لِلْمُقِيمِ»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول:

«الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ اللَّهِ، وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا»(٣).

قوله ﷺ: (أو عالمًا، أو متعلمًا)، قال الصنعاني(٤): «وخصهما بعد دخولهما فيما والى ذكر الله إعلامًا بعِظَم شرفهما وفخامة شأنهما، والمراد أن الدنيا مبعدة عن الله وعن نظره إليها متروكة لا يؤبه لها إلا هذه الأربعة، وبدأ بذكر الله عز

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، واللفظ له، وغيرهما، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٣٤٧) وغيرُه، وهو عند ابن ماجه (٢٢٦) مختصرًا، وحسنه الألباني.

ولفظ ابن ماجه: عن زِرِّ بن حُبَيْشٍ قال: أتيت صفوان بن عسال المُرادي، فقال: ما جاء بك؟ قلت: أُنْبِطُ العلم، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ خَارِجٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلَّا وَضَعَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا بِمَا يَصْنَعُ». وقوله: (أُنْبِطُ العلم): أي: أطلبه وأستخرجه. «منذري».

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، واللفظ له، وغيرهما، وحسنه الألباني.

(٤) «التنوير» (١٤٣/٦).

وجل لأنه أشرف الأشياء».

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»(١).

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(٣).

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ، يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ»(٤).

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه مسلم (١٦٣١) وغيره.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٤٢) وغيره، وحسنه الألباني.

وعن أبي قَتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«خَيْرُ مَا يَخْلُفُ الرَّجُلَ مِنْ بَعْدِهِ ثَلَاثٌ: وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ، وَصَدَقَةٌ تَجْرِي يَبْلُغُهُ أَجْرُهَا، وَعِلْمٌ يُعْمَلُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ»(١).

هذا، والوارد في فضل العلم وأهله إنما المقصود به العلم الشرعي، علم الكتاب والسنة، فهو العلم الممدوح مطلقًا.

وأما العلوم الدنيوية من طب وهندسة وصناعة وزراعة وغيرها فإنها تُمدح بحسب ما يُتوصل بها إلى الخير ونفع المسلمين ونصرهم والدفع عنهم، كعلم صناعة آلات الحرب مثلًا، فإنها تدخل في قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، وإذا صلحت النية في تعلم العلوم الدنيوية، وخلت من الآفات والمنكرات، من اختلاط وغيره، فإنها تكون من العلوم التي يُتقرب بها إلى الله تعالى، وقد يكون بعضها من فروض الكفاية.

وقال طاشْكُبْري زاده(٢): «اعلم أن شرف الشيء وفضيلته إما لذاته أو لغيره، والعلم حائز لكلا الشرفين، وجامع لكلتا الفضيلتين، لأنه لذيذ في نفسه، فيطلب لذاته ولغيره، فيطلب لأجله من وجوه:

أما الأول: فلا يخفى على أحد من مزاوليه، لأنها لذة لا نهاية لها ولا لذة فوقها، وكان محمد بن الحسن يقول عندما تنحل له مشكلات العلوم: أين أبناء الملوك من هذه اللذة؟! سيما إذا كانت الفكرة في ملكوت السموات والأرضين وفي أسرار رب العالمين.

وأيضًا: أن شرف العلم لا يقبل العزل، كعزل الولاة والأمراء وسائر أرباب المناصب الدنيوية، ومع دوامها لا مزاحمة فيها لأحد، لأن المعلومات متسعة

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٤١) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) «مفتاح السعادة» (ص ١٥).

للطلاب وإن كثروا، بل تزيد بكثرة الشركاء، بخلاف حطام الدنيا وجاهها، ولهذا يكثر فيها البغضاء، ويعظم في تحصيلها الشحناء، ومع كونها أوفى اللذات وأدومها وأشملها وأعمها لا ترى أحدًا من الولاة والأمراء وسائر أبناء الدنيا لا يتمنون أن يكون عزهم كعز العلماء، إلا أن الموانع الشهوانية تمنع عن نيلها.

هذه هي اللذائذ الحاصلة في نفس العلم.

وأما اللذائذ الحاصلة له لغيره: أما في الأخرى: فلكونه وسيلة تارة إلى أعظم اللذائذ الأخروية، وأخرى إلى أكمل السعادات الأبدية.

أما الأول: فلذة الوصول إلى جوار رب العالمين، والبلوغ إلى مرضاته التي هي المقصد والسعادة الكبرى، ولذة النظر إلى وجهه الكريم، التي هي غاية الغايات، ومنتهى جميع السعادات.

وأما الثاني: فلأن العلم لا أقل من أن يكون سببًا للوصول إلى الأفق المبين، ولحوق زمرة الملأ الأعلى في جوار رب العالمين، ولا يخفى أنه لا بلوغ إلى شيء منها إلا بالعمل المتوقف على العلم، فهو رأس السعادات ورئيسها.

وأما المنافع الدنيوية: فالعز والوقار، ونفوذ الحكم على الملوك، ولزوم الاحترام في الطباع».

وقال ابن الجوزي[1]: «من تأمل بعين الفكر دوام البقاء في الجنة، في صفاء بلا كدر، ولذات بلا انقطاع، وبلوغ كل مطلوب للنفس، والزيادة مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من غير تغيير ولا زوال، إذ لا يقال: ألف ألف سنة، ولا مائة ألف ألف، بل ولو أن الإنسان عد الألوف ألوف السنين لانقضى عدده، وكان له نهاية، وبقاء الآخرة لا نفاد له، إلا أنه لا يحصل ذلك إلا بنقد هذا العمر.

(١) «صيد الخاطر» (ص ٣٥٥-٣٥٦).

وما مقدار عمر غايته مائة سنة، منها خمسة عشر صَبْوة وجهل، وثلاثون بعد السبعين إن حصلت ضعف وعجز، والتوسط نصفه نوم، وبعضه زمان أكل وشرب وكسب، والمنتحل منه للعبادات يسير؟! أفلا يُشترى ذلك الدائم بهذا القليل؟!

إن الإعراض عن الشروع في هذا البيع والشراء لَغُبن فاحش في العقل، وخلل في الإيمان بالوعد، والعلم هو الذي يدل على الطريق، ويعرف ما يصلح لها، ويحذر من قُطّاعها.

ولقد دخل إبليس على طائفة من المتزهدين بآفات، أعظمها أنه صرفهم عن العلم، فكأنه شرع في إطفاء المصباح ليَسرق في الظُّلمة، حتى إنه أخذ قومًا من كبار العلماء، فسلك بهم من ذلك ما ينهى عنه العلم.

فرأيت أبا حامد الطوسي يحكي عن نفسه في بعض مصنفاته، قال: شاورت متبوعا مقدَّمًا من الصوفية في المواظبة على تلاوة القرآن، فمنعني منه! وقال: السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكلية، بحيث لا يلتفت قلبك إلى أهل وولد ومال وعلم، بل تصير إلى حالة يستوي عندك وجود ذلك وعدمه، ثم تخلو بنفسك في زاوية، فتقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب، وتجلس فارغ القلب، ولا تزال تقول: الله، الله، إلى أن تنتهي إلى حالة، لو تركت تحريك اللسان رأيت كأن الكلمة جارية على لسانك، ثم تنظر ما يفتح عليك مما فتح مثله على الأنبياء والأولياء!!».

قال ابن الجوزي: «قلت: وهذا أمر لا أتعجب أنا فيه من المُوصِي به، وإنما أتعجب من الذي قبله مع معرفته وفهمه!! وهل يُقطع الطريق بالإعراض عن تلاوة القرآن؟! وهل فُتِح للأنبياء ما فتح بمجاهدتهم ورياضتهم؟! وهل يُوثق بما يظهر من هذه المسالك؟! ثم ما الذي يُفتح؟! أَثَمَّ اطلاع على علم الغيب؟! أم هو وحي؟!

فهذا كله من تلاعب إبليس بالقوم، وربما كان ما يتخايل لهم من أثر الماليخوليا أو من إبليس.

فعليك بالعلم، وانظر في سير السلف: هل فعل أحد منهم من هذا شيئًا أو أمر به؟! وإنما تشاغلوا بالقرآن والعلم، فدلهم على إصلاح البواطن وتصفيتها، نسأل الله عز وجل علما نافعًا، ودفعًا للعدو مانعًا، إنه قادر».

وقال الماوَرْدي[1]: العلم والعقل سعادة وإقبال، وإن قل معهما المال، وضاقت معهما الحال، والجهل والحمق حرمان وإدبار، وإن كثر معهما المال، واتسعت فيهما الحال، لأن السعادة ليست بكثرة المال، فكم من مُكْثِرٍ شقي ومُقِلٍّ سعيد!! وكيف يكون الجاهل الغني سعيدًا والجهل يضعه؟! أم كيف يكون العالم الفقير شقيًّا والعلم يرفعه؟!

وقد قيل في منثور الحِكَم: كم من ذليل أعزه علمه!! ومن عزيز أذله جهله!!

وقال عبد الله بن المعتز: الجاهل كروضة على مزبلة.

وقال بعض الحكماء: كلما حَسُنَتْ نعمة الجاهل ازداد قبحًا.

وقال بعض الأدباء: من لم يُفِدْ بالعلم مالًا كَسَب به جمالًا.

وأنشد بعض أهل الأدب لابن طَبَاطَبَا:

حسودٌ مريضُ القلب يُخفي أنينَهُ ... ويَضْحَى كئيبَ البال عندي حزينَهُ
يلوم عليَّ أن رحت للعلم طالبًا ... أَجْمَعُ من عند الرواة فنونَهُ
فأَعرف أبكار الكلام وعُونَهُ[2] ... وأحفظ مما أستفيد عيونَهُ
ويزعم أن العلم لا يُكسِب الغنى ... ويُحْسِنُ بالجهل الذميمِ ظُنونَهُ
فيا لائمي دعني أغالي بقيمتي ... فقيمة كل الناس ما يحسنونهُ

(١) انظر «أدب الدنيا والدين» (ص ٥٢-٥٣).

(٢) يعني: يعرف أحسنه وأجوده. والعُون: جمع عَوَان، وهي من البقر: المتوسطة بين المُسِنَّة والصغيرة. ويقال: فرس عَوَان، وخيل عُون. وفي التنزيل: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَالِكَ﴾ [البقرة:٦٨].

فينبغي لمن زهد في العلم أن يكون فيه راغبًا، ولمن رغب فيه أن يكون له طالبًا، ولمن طلبه أن يكون منه مستكثرًا، ولمن استكثر منه أن يكون به عاملًا، ولا يَطلب لتركه احتجاجًا، ولا للتقصير فيه عذرًا.

وقد قال الشاعر:

فــلا تعــذِراني في الإســاءة إنــهُ ... شرارُ الرجال من يســيء فيُعْذَرُ

ولا يُسوِّف نفسه بالمواعيد الكاذبة، ويمَنِّيها بانقطاع الأشغال المتصلة، فإن لكل وقت شغلًا، ولكل زمان عذرًا.

وقال الشاعر:

نـــروح ونغـــدو لحاجاتنـــا ... وحاجة مَــنْ عاش لا تنقضـــي

تمــوت مــع المــرء حاجاتــهُ ... وتــبقى له حاجــةٌ مــا بَــقِي

انتهى كلام الماوَرْدي.

وللإلبيري:

فلو قد ذقتَ من حَلواه طَعمًـا ... لآثـــرتَ التعلـــمَ واجتهـــدتا

ولم يَشْغَلْكَ عنه هـوًى مطـاعٌ ... ولا دنيـــا بزخرفهـــا فُتِنْتـــا

ينالــك نفعُــه مــا دمــتَ حيًّـا ... ويــبقى ذخــرُه لــك إن ذهبْتـا

فهذا أخي القارئ مجمل لقواعد تزكية النفس وأصولها وما تعتمد عليه، وعامة ما سيأتي من قواعد يرجع إليه، فهو إما تفصيل له، أو بيان، أو دليل، أو مثال، وبالله التوفيق.

❑❑❑❑❑

الفوائد والقواعد

في تزكية النفس والسلوك

القسم الأول

الإيمان والتوحيد والعلم بالله تعالى
أساس تزكية النفس

وهو أول دعوة الرسل، وإنما بُعثوا من أجله، قال الله تعالى لكليمه عليه الصلاة والسلام لما أرسله إلى فرعون: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۞ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۞ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات:١٧-١٩].

قال ابن جرير: «قوله: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾، يقول: فقل له: هل لك إلى أن تتطهر من دنس الكفر وتؤمن بربك؟».

وروى عن عكرمة، قول موسى لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾: هل لك إلى أن تقول: لا إله إلا الله؟

وروى عن ابن زيد في قوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾، قال: إلى أن تسلم. قال: والتزكي في القرآن كله: الإسلام. وقرأ قول الله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه:٧٦]، قال: من أسلم. وقرأ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس:٣]، قال: يسلم. وقرأ: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس:٧]، ألّا يسلم.

وقال ابن سعدي: «﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾؛ أي: هل لك في خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب؟ وهي: أن تزكي نفسك وتطهرها من دنس الكفر والطغيان إلى الإيمان والعمل الصالح».

وقال شيخ الإسلام(١): «فالتزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير فإنما تحصل بإزالة الشر، فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا».

وقال الله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۞ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ

(١) «مجموع الفتاوى» (٩٧/١٠).

كَٰفِرُونَ ﴾ [فصلت:٦-٧].

قال شيخ الإسلام في تفسير «الزكاة» في هذه الآية[١]: «وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب وإثبات إلهية الحق في القلب، وهو حقيقة لا إله إلا الله، وهذا أصل ما تزكو به القلوب».

وقال[٢]: «التوحيد والإيمان أعظم ما تزكو به النفس، والشرك أعظم ما يدسيها».

وقال ابن القيم[٣]: «قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد؛ شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذى به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفى إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء».

وعن عبد الله بن معاوية الغاضري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ، وَلَمْ يُعْطِ الْهَرِمَةَ وَلَا الدَّرِنَةَ وَلَا الْمَرِيضَةَ، وَلَكِنْ مِنْ أَوْسَطِ أَمْوَالِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهَا، وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بِشَرِّهَا، وَزَكَّى نَفْسَهُ». فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال:

«أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ»[٤].

فعِلم العبد أن الله عز وجل من فوق سبع سمواته معه حيث كان، يسمعه ويراه، ويطلع على أفعاله، ويعلم حركاته وسكناته، وعلانيته وسره، هو أعظم ما تزكو به نفسه، فإنه إذا تحقق بهذا العلم وامتلأ قلبه منه راقب ربه تبارك وتعالى، واستقام إليه، وعمل على صلاح نفسه، فتزكو حينئذ وتطهر، ويذهب شرها وسوؤها.

⊙⊙⊙⊙⊙

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٩٧/١٠).

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» (٦٣٢/١٠).

(٣) «إغاثة اللهفان» (٤٩/١).

(٤) أخرجه أبو داود (١٥٨٢)، والطبراني في «الصغير» (٥٥٥ - الروض)، واللفظ له، وغيرهما، وصححه الألباني.

التوحيد أولًا

قال ابن القيم[(١)]: «التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وقال هود لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٦٥، وهود:٥٠]. وقال صالح لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٧٣، وهود:٦١]. وقال شعيب لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٨٥، وهود:٨٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

فالتوحيد: مفتاح دعوة الرسل، ولهذا قال النبي ﷺ لرسوله معاذ بن جبل رضي الله عنه وقد بعثه إلى اليمن: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله وحده، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة» وذكر الحديث[(٢)].

وقال ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ»[(٣)].

ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك، كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم.

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/٤٤٣-٤٤٤).

(٢) متفق عليه بنحوه. وفي رواية عند البخاري: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى». وفي رواية عندهما: «فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ فَأَخْبِرْهُمْ ...». فليسعد أهل التوحيد والعلم والمعرفة بهذين اللفظين!

(٣) بعض حديث، متفق عليه.

فالتوحيد أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[1].

فهو أول واجب وآخر واجب، فالتوحيد أول الأمر وآخره».

⦿⦿⦿⦿⦿

توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء موجب لعبادة الله تعالى والصبر عليها

قال الله تبارك وتعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥].

والمعنى: أنه ما دام سبحانه هو وحده رب السموات والأرض وما بينهما إذًا فهو المستحق لأن يعبد وحده دون غيره، إضافة إلى نفي أن يكون له مساميًا في عظمته وأسمائه وصفاته، مما يوجب أيضًا عبادته وحده تبارك وتعالى.

والقرآن الكريم مملوء بمثل هذا، أعني الاستدلال بتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات على توحيد الألوهية ووجوب عبادة الله تعالى وحده.

⦿⦿⦿⦿⦿

الدنيا امتحان

اعلم أن كل ما في الدنيا من متاع وملذات وشهوات، من نساء وبنين وذهب وفضة وقصور ومراكب وسائر المتاع، قد جعله الله تعالى في هذه الدار امتحانًا، وابتلى العباد به لينظر من يعبده ويعمل بطاعته، ومن يأبى ويعمل بمعصيته.

وهذا الأمر وإن كان لسامعه كأنه بَدَهِيٌّ معروف، وللناظر فيه شيء معلوم

---

(١) أخرجه أبو داود (٣١١٦) وغيره، وصححه الألباني.

مألوف، إلا أنه عند الفعل والتحقيق يبدو كأن أكثر الناس شاكون فيه، فمن يرى انشغالهم بالدنيا، وتمسكهم الشديد بها، واستغراقهم في عِمارتها، بما يُذهِل العقول، ويستغرب منه الناظر، ويتعجب منه كل من شاهده وعاينه، يكاد لا يصدِّق أن أصحابه يؤمنون بأن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، ويكاد يجزم أنهم ما سمعوا بهذا ولا درَوْه من قبل!

قال الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك:١-٢].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف:٧-٨].

فاجعل يا عبد الله هذا منك على بال، ولا يصدنك عنه صاد، ولا تغتر بكثرة الغافلين عنه، فتخيب وتخسر.

قال ابن سعدي: «يخبر تعالى أنه جعل جميع ما على وجه الأرض، من مآكل لذيذة ومشارب ومساكن طيبة، وأشجار وأنهار وزروع وثمار، ومناظر بهيجة ورياض أنيقة، وأصوات شجية وصور مليحة، وذهب وفضة وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار فتنة واختبارًا، ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ أي: أخلصه وأصوبه، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات فانية مضمحلة وزائلة منقضية، وستعود الأرض صعيدًا جرزًا، قد ذهبت لذاتها وانقطعت أنهارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها.

هذه حقيقة الدنيا، قد جلّاها الله لنا كأنها رَأْيُ عين، وحذرنا من الاغترار بها، ورغّبنا في دار يدوم نعيمها ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا، فاغترّ بزخرف الدنيا وزينتها مَنْ نظر إلى ظاهر الدنيا دون باطنها، فصحبوا

الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم ولا يهتمون لمعرفته، بل همهم تناول الشهوات من أي وجه حصلت وعلى أي حالة اتفقت، فهؤلاء إذا حضر أحدَهم الموتُ قلق لخراب ذاته وفوات لذاته، لا لما قدمت يداه من التفريط والسيئات.

وأما من نظر إلى باطن الدنيا وعلم المقصود منها ومنه، فإنه تناول منها ما يستعين به على ما خُلِقَ له، وانتهز الفرصة في عمره الشريف، فجعل الدنيا منزل عبور لا محل حبور، وشُقَّة سفر لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه وتنفيذ أوامره وإحسان العمل، فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا حين نظر المغترّ إلى ظاهرها، وعمل لآخرته حين عمل البطال لدنياه، فشتان ما بين الفريقين، وما أبعد الفرق بين الطائفتين!!». اهـ.

وقال الشنقيطي[1]: «ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خُلِق من أجلها هي أن يُبْتَلى (أي: يُختبر) بإحسان العمل، فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار». اهـ.

قلت: ويذكر أهل العلم عند تفسير هذه الآية ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»[2].

فتأمل عبد الله قوله ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»، فهي حلوة خضرة، ولكنها ابتلاء وامتحان!!

---

(١) «أضواء البيان» (٣/١١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) وغيره.

وقال ﷺ: «وَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»(١).

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٣١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»(٢).

قال الحافظ(٣): «قوله: (حفت)، من الحِفاف، وهو ما يحيط بالشيء حتى لا يُتوصَّل إليه إلا بتخطيه، فالجنة لا يُتوصَّل إليها إلا بقطع مفاوز المكاره، والنار لا يُنجَى منها إلا بترك الشهوات».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ».

قال: «فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ النَّارَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا، فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا»(٤).

---

(١) بعض حديث، متفق عليه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٢٢) وغيره.

(٣) «الفتح» (١١/٣٢٠-٣٢١).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٥٦٠)، وغيرهما، وجود إسناده الألباني في تعليقه على «التنكيل» (٢/١٧٧).

العباد لم يخلقوا عبثًا ولن يتركوا سدًى

فيا عبد الله، أتحسب أنك خُلقتِ عبثًا، وأنك ستُترك سدًى، لا حساب ولا عتاب، ولا ثواب ولا عقاب؟! تعالى الله عن ذلك!

قال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦].

وقال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦].

لقد خلقت لأمر جليل، ونبأ عظيم، لو عقلته لعلمت أنك كنت قبله من الغافلين اللاهين اللاعبين، ولتحسرت على ساعة مضت من عمرك دون التنبه له والعمل من أجله!

لقد خلقت لعبادة الله تعالى، أتدري ما هي العبادة؟! إنها الذل لله، إنها الخضوع له سبحانه، إنها الحب لله ذي الجلال الإكرام!!

قال شيخ الإسلام(١): «القلب إنما خلق لأجل حب الله تعالى».

يا عبد الله، إنما خُلقت لتعرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته، وكماله وجلاله وجماله، فتخاف منه وترجوه وتحبه، فتسارع إلى عبادته وطاعته، بفعل ما يحبه ويرضاه عز وجل، مما فيه سعادتك وراحتك في الدنيا والآخرة.

بل وما خلق الله سبحانه السموات والأرض، ولا أنزل الكتب، ولا أرسل الرسل، إلا من أجل أن يَعلم عبادُه قدره وعظمته، فيعبدوه ويتقوه حق تقاته، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/١٣٤).

﴿ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٩٧].

وغاية ذلك ونهايته: أن يُعبد سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

قال ابن القيم(١): «فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم ولا ليربح عليهم، لكنْ خلقهم جودًا وإحسانًا ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الأرباح».

فيا عبد الله، أين حبك لله تعالى؟! أين خوفك؟! أين رجاؤك؟! أين عبادتك وذُلُّك وخضوعك لعظمته؟! وأين أنت من ذلك؟!

قال الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

وأين رغبتك في القرب منه عز وجل؟! وأين حرصك لنيل الزلفى لديه؟! وأين جِدّك في ابتغاء الوسيلة إليه؟!

قال الله تعالى في حق الذين يُدْعَوْن من دونه من الملائكة والأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام:

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء:٥٧].

فجمع سبحانه في الآية عباداتهم الثلاث: الحب والرجاء والخوف.

وقال جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة:٣٥].

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

---

(١) «طريق الهجرتين» (ص ١٣٥ - طبعة دار السلفية).

﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٥٤].

ووصفهم بالشدة على الكفار والرحمة فيما بينهم في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].

قال ابن كثير: «وهذه صفة المؤمنين: أن يكون أحدهم شديدًا عنيفًا على الكفار، رحيما برًّا بالأخيار، غضوبًا عبوسًا في وجه الكافر، ضحوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة:١٢٣]».

فتأمل عبد الله في هذه الآيات! لتعلم أن محبة الله تعالى لا تكون بالدعوى المجردة عن العمل، وإنما تكون بالاجتهاد في عبادته، والتنافس في قربه، والحرص على رضاه، والجهاد في سبيله، رضي من رضي، وسخط من سخط، وتكون مقرونة دائمًا بالخوف والرجاء، وتكون باتباع النبي ﷺ في هديه في جميع أقواله وأفعاله، وصفاته وأحواله، ما استطاع العبد إلى ذلك سبيلًا.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:٢-٤].

قال ابن كثير: «فهذا إخبار منه تعالى بمحبة عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان».

وعن عبد الله بن عبد الرحمن، أخبرنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن يحي بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ.

قال أبو سلمة: فقرأها علينا ابن سلام.

قال يحي: فقرأها علينا أبو سلمة.

قال ابن كثير: فقرأها علينا الأوزاعي.

قال عبد الله: فقرأها علينا ابن كثير(١).

قلت: يعني: أن أحب الأعمال إلى الله تعالى هو القتال في سبيله، كما في الآية التالية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٢). ولهذا قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٠٩) وغيره، وصحح إسناده الألباني.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ مسلم، وهو متفق عليه بلفظ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»، إلا أن البخاري قال: « مَا لَيْسَ فِيهِ».

﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تحِب، إنما الشأن أن تحَب. وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾».

وقال ابن سعدي: «وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾؛ أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محبًّا لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص». اهـ.

وقال سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ [النساء:٦٥].

الولاء والبراء

ومحبة الله تكون بمحبة أوليائه المؤمنين المتقين، وبمحبة أشهر المحبين له، الذين يبذلون أرواحهم في سبيله، لإعلاء كلمته، ونصر دينه، والدفاع عن

عباده، وتكون ببغض أعدائه، الذين يصدون عن سبيله، ويحاربون دينه، ويقتلون أولياءه، ويسومونهم سوء العذاب، كما قال سبحانه:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

فانظر عبد أين هو من هذا؟! وليزن نفسه بميزان المحبة لله تعالى، وميزان المحبة فيه والبغض فيه، فالولاء الولاء لله عز وجل ولرسوله ﷺ وللمؤمنين! والبراء البراء من الشيطان وأوليائه من الكافرين والمنافقين!

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة:١].

وقال سبحانه في نفس السورة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤].

وقال سبحانه: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٥١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر: «أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ ـ أظنه قال: ـ أَوْثَقُ؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال:

«الْمُوَالَاةُ فِي اللهِ، وَالْمُعَادَاةُ فِي اللهِ، وَالْحُبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ»(١).

فطوبى لعبد كان ممن أحبهم الله تعالى وأحبُّوه، ورضي عنهم ورضوا عنه، فكان من حزب الله المفلحين، وعباده الفائزين، الذين نالوا شرف الدنيا وشرف الآخرة.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»(٢).

⊙⊙⊙⊙⊙

تعريف العبادة

قال شيخ الإسلام(٣): «هي اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته، وكمال الذل لله ونهايته، فالحب الخَلِيُّ عن ذل والذل الخَلِيُّ عن حب لا يكون عبادة، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين، ولهذا كانت العبادة لا تصلح

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٥٣٧) وغيره. وهو في «الصحيحة» (١٧٢٨).

(٢) متفق عليه.

(٣) «أمراض القلوب» (ص ٤٤).

إلا لله، وهي وإن كانت منفعتها للعبد والله غني عن العالمين فهي له من جهة محبته لها ورضاه بها».

وقال[1]: «هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك، من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه، والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه، وأمثال ذلك، هي من العبادة لله، وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]».

ولابن القيم:

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذلِّ عابدِه هما قطبانِ

وعليهما فَلَكُ العبادة دائرٌ ... ما دارَ حتى قامتِ القطبانِ

⊙⊙⊙⊙⊙

حاجة العبد إلى العبادة

قال ابن القيم[2]: «اعلم أَن حاجة العبد إِلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا، في محبته ولا في خوفه ولا في رجائه ولا في التوكل عليه، ولا في العمل

---

(١) «العبودية» (ص ٤٤).

(٢) وانظر أيضًا الأسباب العشرة الجالبة لمحبة الله تعالى في «مدارج السالكين» (٣/١٨- ١٩).

له، ولا في الحلف به ولا في النذر له، ولا في الخضوع له ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب، أَعظم من حاجة الجسد إِلى روحه والعين إِلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فإِن حقيقة العبد روحه وقلبه ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إِله إِلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها.

ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل لم يدم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت ثم يتعذب به ولا بد في وقت آخر، وكثيرًا ما يكون ذلك الذي يتنعم به ويلتذ به غير منعِّم له ولا مُلِذ، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك، وإنما يحصل له بملابسته من جنس ما يحصل للجَرِب من لذة الأظفار التي تحكه، فهي تدمي الجلد وتخرقه وتزيد في ضرره، وهو يؤْثر ذلك لما له في حكها من اللذة؟

وهكذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله هو عذاب عليه ومضرة وألم في الحقيقة لا تزيد لذته على لذة حك الجَرَب، والعاقل يوازن بين الأمرين ويؤْثر أرجحهما وأنفعهما».

⊙⊙⊙⊙⊙

العبادة والاستعانة

قال شيخ الإسلام[(١)]: «والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة: وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل: وهي العلة الفاعلة،

---

(١) «العبودية» (ص ٩٧-٩٨).

فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يسر ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطُّمَأنينة.

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له، فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فإنه لو أعين على حصول كل ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده، ولم يحصل له عبادة الله، فلن يحصل إلا على الألم والحسرة والعذاب، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله، بحيث يكون الله هو غاية مراده ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله، لا يحب شيئًا لذاته إلا الله، ومتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة «لا إله إلا الله»، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله، وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك.

ولو سعى في هذا المطلوب ولم يكن مستعينًا بالله متوكلًا عليه مفتقرًا إليه في حصوله لم يحصل له، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود، ومن حيث هو المسؤول المستعان به المتوكل عليه، فهو إلهه الذي لا إله له غيره، وهو ربه الذي لا رب له سواه، ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين».

⊙⊙⊙⊙⊙

العبادة لازمة لكل أحد حتى الممات

قال ابن القيم[1]: «قال الله تعالى لرسوله: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]. وقال أهل النار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۞ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ [المدثر:٤٦-٤٧]. واليقين هاهنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير، وفي «الصحيح»، في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «أَمَّا عُثْمَانُ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ»[2]؛ أي: الموت وما فيه، فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله ﷺ؟ ويلتمسان منه الجواب، وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود، فيسجد المؤمنون، ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحًا مقرونًا بأنفاسهم لا يجدون له تعبًا ولا نصبًا.

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد فهو زنديق كافر بالله وبرسوله، وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه، بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه، ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ، بل على جميع الرسل، أعظم من الواجب على أممهم، والواجب على أولي العزم أعظم من الواجب على من دونهم، والواجب على أولي العلم أعظم من الواجب على من دونهم، وكل أحد بحسب مرتبته».

---

(١) «مدارج السالكين» (١٠٣/١-١٠٤).

(٢) بعض حديث، أخرجه البخاري بنحوه.

وأضاف في موضع آخر[1]: «وقال المسيح: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم:٣٠-٣١]. فهذه وصية الله للمسيح، وكذلك لجميع أنبيائه ورسله وأتباعهم.

قال الحسن: لم يجعل الله لعبده المؤمن أجلًا دون الموت».

⦿⦿⦿⦿⦿

الإخلاص هو السبب الأعظم لصرف السوء والفحشاء عن العبد

قال الله تعالى في حق نبيه يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف:٢٤].

فمن أخلص لله عز وجل عبادته ودينه أخلصه الله تعالى واختاره واصطفاه، وصرف عنه كل شر ومكروه، وصرف عنه المعاصي.

وقرئت: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بكسر اللام.

قال ابن جرير: «اختلفت القَرَأة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأة المدينة والكوفة: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾، بفتح اللام من "المخلصين"، بتأويل: إن يوسف من عبادنا الذين أخلصناهم لأنفسنا، واخترناهم لنبوتنا ورسالتنا.

وقرأ بعض قَرَأة البصرة: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾، بكسر اللام، بمعنى: إن يوسف من عبادنا الذين أخلصوا توحيدنا وعبادتنا، فلم يشركوا بنا شيئًا، ولم يعبدوا شيئًا غيرنا.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان قد قرأ

---

(١) «مدارج السالكين» (١/١٦٦).

بهما جماعة كثيرة من القَرَأة، وهما متفقتا المعنى، وذلك أن من أخلصه الله لنفسه فاختاره، فهو مخلص لله التوحيد والعبادة، ومن أخلص توحيد الله وعبادته فلم يشرك بالله شيئًا، فهو ممن أخلصه الله، فبأيتهما قرأ القارئ فهو للصواب مصيب».

قال شيخ الإسلام[1]: «﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصور والتعلق بها ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله، ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له، بحيث تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه انقهر له هواه بلا علاج».

وقال[2]: «وإذا كان العبد مخلصًا لله اجتباه ربه فأحيا قلبه واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله، فإن فيه طلبًا وإرادة وحبًّا مطلقًا، فيهوى ما يسنح له ويتشبث بما يهواه، كالغصن أي نسيم مر به عطفه وأماله، فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة، فيبقى أسيرًا عبدًا لمن لو اتخذه هو عبدًا له لكان ذلك عيبًا ونقصًا وذمًّا.

وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق.

وتارة يستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب والقلوب تهواها، فيتخذ إلهه هواه، ويتبع هواه بغير هدى من الله.

ومن لم يكن خالصًا لله عبدًا له، قد صار قلبه معبدًا لربه وحده لا

(١) «العبودية» (ص ٩٩).

(٢) «العبودية» (ص ١٢٤).

شريك له، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، ويكون ذليلًا له خاضعًا، وإلا استعبدته الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين». اهـ.

وقال الله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر:٣٩-٤٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص:٨٢-٨٣].

وقيل: كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه، ويقول: يا نفس، أخلصي تتخلصي[(١)].

وللصَّرْصَري[(٢)]:

يا نفسُ توبي إلى الرحمن مخلصةً ... ثم استقيمي على عَزْمٍ يُنَجِّيكِ
واستدركي فارِطَ الأوقات واجتهدي ... عساكِ بالصدق أن تُمْحَى مساويكِ

⊙⊙⊙⊙⊙

الصلاة أعظم عبادة تنهى عن الفحشاء والمنكر

قال الله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وهذه الآية تأكيد لقاعدة الإخلاص السابقة، فإن الصلاة أكبر العبادات وأجلها، وما احتوت عليه من الذكر لله تعالى والعبودية له والاخلاص له لا يوجد مثله في غيرها من العبادات.

---

(١) «الإحياء» (٣٧٠/٤).

(٢) «الآداب الشرعية» (٥٩٩/٣).

قال شيخ الإسلام في تفسيرها[1]: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، فإن الصلاة فيها دفع مكروه وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل محبوب وهو ذكر الله، وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع ذلك المكروه، فإن ذكر الله عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها، وأما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التبع».

وقال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

⦿⦿⦿⦿⦿

الإخلاص يطهر القلب وينفي عنه الآفات

عن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ بِالْخَيْفِ من مِنًى، فقال:

«نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[2].

قال ابن الأثير: «(ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن)، هو من الإغلال: الخيانة في كل شيء.

ويروى «يَغِلُّ» بفتح الياء، من الغِلِّ، وهو الحقد والشحناء؛ أي: لا يدخله حقد يزيله عن الحق.

(١) «العبودية» (ص ٩٩-١٠٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٠٥٦) وغيره، وصححه الألباني.

ورُوي «يَغِلُ»، بالتخفيف، من الوُغول: الدخول في الشر.

والمعنى: أن هذه الخلال الثلاث تُستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طَهُر قلبه من الخيانة والدَّغَل[1] والشر.

و(عليهن)، في موضع الحال، تقديره: لا يغل كائنًا عليهن قلبُ مؤمن».

⦿⦿⦿⦿⦿

الإخلاص ومحبة المدح لا يجتمعان

قال ابن القيم[2]: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولًا فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يسهل علي ذبح الطمع، والزهد في الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع: فيسهله عليك علمك يقينًا أنه ليس من شيء يُطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه، لا يملكها غيره، ولا يؤتي العبدَ منها شيئًا سواه.

وأما الزهد في الثناء والمدح: فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحُه ويَزين ويضر ذمُّه ويَشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: إن مدحي زَين وذمي شَين. فقال: «ذَلِكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»[3]. فازهد في مدح من لا

---

(١) الدَّغَل: الخيانة والرِّيبة والفساد.

(٢) «الفوائد» (ص ١٩٥-١٩٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٦٧) وغيره، عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات:٤]، قال: قام رجل فقال: يا رسول الله، إن حمدي زَين، وإن ذمي شَين. فقال ﷺ: «ذَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». وصححه الألباني.

يَزينك مدحه وفي ذم من لا يَشينك ذمه، وارغب في مدح من كل الزَّين في مدحه وكل الشَّين في ذمه.

ولن يُقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب! قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم:٦٠]. وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤]».

◉◉◉◉◉

علاج عجيب لحب الشهرة

قال ابن حزم[١]: «وأما من علق وهمه وفكره بأن يبعد اسمه في البلاد، ويبقى ذكره على الدهر، فليتفكر في نفسه، وليقل لها: يا نفس، أرأيتِ لو ذُكِرتُ بأفضل الذكر في جميع أقطار المعمور أبد الأبد إلى انقضاء الدهر، ثم لم يبلغني ذلك ولا عرفت به، أكان لي في ذلك سرور أو غبطة أم لا؟ فلا بد من لا، ولا سبيل إلى غيرها البتة، فإذا صح ذلك وتُيُقِّن فليعلم يقينًا أنه إذا مات لا سبيل له إلى علم أنه يذكر أو أنه لا يذكر، وكذلك إن كان حيًّا إذا لم يبلغه.

ثم ليتفكر أيضًا في معنيين عظيمين، أحدهما: كثرة من خلا من الفضلاء من الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم أولًا، الذين لم يبق لهم على أديم الأرض عند أحد من الناس اسم ولا رسم ولا ذكر ولا خبر ولا أثر بوجه من الوجوه، ثم من الفضلاء الصالحين من أصحاب الأنبياء السالفين والزهاد، ومن الفلاسفة والعلماء والأخيار، وملوك الأمم الداثرة، وبُناة

(١) «مداواة النفوس» (ص ٨٩-٩٠).

المدن الخالية، وأتباع الملوك الذين أيضًا قد انقطعت أخبارهم، ولم يبق لهم عند أحد علم ولا لأحد بهم معرفة أصلًا البتة، فهل ضر من كان فاضلًا منهم ذلك، أو نقص من فضائلهم، أو طمس من محاسنهم، أو حط درجتهم عند بارئهم عز وجل؟

ومن جهل هذا الأمر فليعلم أنه ليس في شيء من الدنيا خبر عن ملوك من ملوك الأجيال السالفة أبعد مما بأيدي الناس من تاريخ ملوك بني إسرائيل فقط، ثم ما بأيدينا من تاريخ ملوك اليونان والفرس، وكل ذلك لا يتجاوز ألفي عام، فأين ذكر من عمّر الدنيا قبل هؤلاء؟! أليس قد دُثِر وفَنِي وانقطع ونُسِي البتة؟

وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء:١٦٤]. وقال تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]. فهل الإنسان وإن ذُكِر برهة من الدهر إلا كمن خلا قبل من الأمم الغابرة الذين ذُكِروا ثم نُسُوا جملة؟

ثم ليتفكر الإنسان فيمن ذكر بخير أو بشر، هل يزيده ذلك عند الله عز وجل درجة أو يكسبه فضيلة لم يكن حازها بفعله أيام حياته؟

فإذا كان هذا كما قلنا فالرغبة في الذكر رغبة غرور ولا معنى له ولا فائدة فيه أصلًا، لكن إنما ينبغي أن يرغب العاقل في الاستكثار من الفضائل وأعمال البر، التي يستحق من هي فيه الذكر الجميل والثناء الحسن والمدح وحميد الصفة، فهي التي تقربه من بارئه تعالى، وتجعله مذكورًا عنده عز وجل الذكرَ الذي ينفعه، ويحصل على بقاء فائدته، ولا يبيد أبد الأبد، وبالله تعالى التوفيق». اهـ.

⦿⦿⦿⦿⦿

حلاوة الإيمان

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(١).

وفي لفظ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

وفي لفظ: «لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

قال ابن بطال(٢): «معنى وجود حلاوة الإيمان: هو استلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات، فيما يرضى الله تعالى ورسوله ﷺ، وإيثار ذلك على عَرَض الدنيا، رغبة في نعيم الآخرة الذى لا يبيد ولا يفنى.

وروي عن عتبة الغلام أنه قال: كابدت الصلاة عشرين سنة، ثم تلذذت بها باقي عمري».

وقال النووي(٣): «قوله ﷺ: (لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين)، وفي الرواية الأخرى: (من ولده ووالده والناس أجمعين)، قال الإمام أبو سليمان الخَطّابي: لم يُرِد به حب الطبع، بل أراد به حب الاختيار، لأن حب الإنسان نفسه طبع ولا سبيل إلى قلبه. قال: فمعناه

---

(١) متفق عليه. واللفظ الثالث لمسلم.

(٢) «شرح صحيح البخاري» (٦٦/١).

(٣) «شرح صحيح مسلم» (١٥/٢-١٦).

لا تَصْدُقُ في حبي حتى تُفني في طاعتي نفسك، وتُؤْثر رضاي على هواك وإن كان فيه هلاكك. هذا كلام الخَطّابي.

وقال ابن بطال والقاضي عياض وغيرهما رحمة الله عليهم: المحبة ثلاثة أقسام: محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد، ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة سائر الناس، فجمع ﷺ أصناف المحبة في محبته.

قال ابن بطال رحمه الله: ومعنى الحديث: أن من استكمل الإيمان علم أن حق النبي ﷺ آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين، لأن به ﷺ استنقِذنا من النار، وهُدينا من الضلال.

قال القاضي عياض رحمه الله: ومن محبته ﷺ نصرة سنته، والذب عن شريعته، وتمني حضور حياته، فيبذل ماله ونفسه دونه.

قال: وإذا تبين ما ذكرناه تبين أن حقيقة الإيمان لا تتم إلا بذلك، ولا يصح الإيمان إلا بتحقيق إعلاء قدر النبي ﷺ ومنزلته على كل والد وولد ومحسن ومفضل، ومن لم يعتقد هذا واعتقد سواه فليس بمؤمن. هذا كلام القاضي رحمه الله». انتهى كلام النووي.

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»(١).

قال ابن القيم(٢): «هذا الحديث عليه مدار مقامات الدين وإليه ينتهي، وقد تضمن الرضا بربوبيته سبحانه، وألوهيته، والرضا برسوله والانقياد له،

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤) وغيره.

(٢) انظر «مدارج السالكين» (١٧٢/٢-١٧٣).

والرضا بدينه والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الأربعة فهو الصدِّيق حقًّا، وهي سهلة بالدعوى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها من ذلك، تبين أن الرضا كان لسانه به ناطقًا، فهو على لسانه لا على حاله.

فالرضا بإلهيته يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتبتل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه، فِعْلَ الراضي بمحبوبه كل الرضا، وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته: يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكل ما يفعل به.

فالأول: يتضمن رضاه بما يؤمر به. والثاني: يتضمن رضاه بما يقدَّر عليه.

وأما الرضا بنبيه رسولًا: فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره البتة، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه، لا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه، فإن عجز عنه كان تحكيمه غيرَه من باب غذاء المضطر إذا لم يجد ما يُقيته إلا من الميتة والدم! وأحسن أحواله أن يكون من باب التراب الذي إنما يتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور!

وأما الرضا بدينه: فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضي كل الرضا، ولم

يبق في قلبه حرج من حكمه وسلم له تسليمًا، ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواها، أو قول مُقَلَّده وشيخه وطائفته.

وهاهنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم، فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرد، فإنه والله عين العزة، والصحبة مع الله ورسوله، وروح الأنس به، والرضا به ربًّا، وبمحمد ﷺ رسولًا، وبالإسلام دينًا.

بل الصادق كلما وجد مس الاغتراب وذاق حلاوته وتنسم روحه قال: اللـهم زدني اغترابًا ووحشة من العالم وأنسًا بك. وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب وهذا التفرد رأى الوحشةَ عينَ الأنس بالناس، والذلَّ عينَ العز بهم، والجهلَ عينَ الوقوف مع آرائهم وزُبالة أذهانهم، والانقطاعَ عينَ التقيد برسومهم وأوضاعهم، فلم يُؤْثر بنصيبه من الله أحدًا من الخلق، ولم يبع حظه من الله بموافقتهم فيما لا يجدي عليه إلا الحرمان، وغايته مودةُ بينِهم في الحياة الدنيا، فإذا انقطعت الأسباب، وحقت الحقائق، وبُعثر ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور، وبُلِيت السرائر، ولم يجد من دون مولاه الحق من قوة ولا ناصر، تبين له حينئذ مواقع الربح والخسران، وما الذي يخف أو يرجح به الميزان، والله المستعان، وعليه التكلان». اهـ.

وعن عبد الله بن معاوية الغاضري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ، وَلَمْ يُعْطِ الْهَرِمَةَ وَلَا الدَّرِنَةَ وَلَا الْمَرِيضَةَ، وَلَكِنْ مِنْ أَوْسَطِ أَمْوَالِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهَا، وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بِشَرِّهَا، وَزَكَّى نَفْسَهُ». الحديث. وقد تقدم[١].

---

(١) (صفحة ٥٤).

وقال عبادة بن الصامت لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ، وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»[1].

⊙⊙⊙⊙⊙

درجات حلاوة الإيمان وطعمه

قال شيخ الإسلام[2]: «الناس فيما يجده أهل الإيمان ويذوقونه من حلاوة الإيمان وطعمه على ثلاث درجات:

الأولى: من علم ذلك، مثل من يخبره به شيخ له يصدقه، أو يبلغه ما أخبر به العارفون عن أنفسهم، أو يجد من آثار أحوالهم ما يدل على ذلك.

والثانية: من شاهد ذلك وعاينه، مثل أن يعاين من أحوال أهل المعرفة والصدق واليقين ما يعرف به مواجيدهم وأذواقهم، وإن كان هذا في الحقيقة لم يشاهد ما ذاقوه ووجدوه، ولكن شاهد ما دل عليه، لكن هو أبلغ من المُخبَر والمستدِل بآثارهم.

والثالثة: أن يحصل له من الذوق والوجد في نفسه ما كان سمعه، كما قال بعض الشيوخ: لقد كنت في حال أقول فيها: إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب. وقال آخر: إنه ليمر على القلب

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/٦٤٦-٦٤٨).

أوقات يرقص منها طربًا. وقال الآخر: لَأهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم.

والناس فيما أُخبروا به من أمر الآخرة على ثلاث درجات:

إحداها: العلم بذلك، لِـما أخبرتهم الرسل، وما قام من الأدلة على وجود ذلك.

الثانية: إذا عاينوا ما وُعِدوا به من الثواب والعقاب والجنة والنار.

والثالثة: إذا باشروا ذلك، فدخل أهل الجنة الجنة، وذاقوا ما كانوا يوعدون، ودخل أهل النار النار وذاقوا ما كانوا يوعدون.

فالناس فيما يوجد في القلوب وفيما يوجد خارج القلوب على هذه الدرجات الثلاث.

وكذلك في أمور الدنيا: فإن من أُخبر بالعشق أو النكاح ولم يره ولم يذقه كان له علم به، فإن شاهده ولم يذقه كان له معاينة له، فإن ذاقه بنفسه كان له ذوق وخبرة به.

ومن لم يذق الشيء لم يعرف حقيقته، فإن العبارة إنما تفيد التمثيل والتقريب، وأما معرفة الحقيقة فلا تحصل بمجرد العبارة إلا لمن يكون قد ذاق ذلك الشيء المُعَبَّر عنه وعرفه وخَبَرَه».

وقال ابن القيم: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحًا فاتهمه، فإن الرب تعالى شكور.

يعني: أنه لا بد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا، من حلاوة يجدها في قلبه، وقوة انشراحٍ، وقرة عين، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول». اهـ.

⦿⦿⦿⦿⦿

الدرجات العلى ومنازل القرب
خاصة بأهل الإيمان والعمل الصالح
السابقين بالخيرات المزكين أنفسهم

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة:١٠-١١].

فمن كان إلى طاعة الله تعالى أسبق كان إليه أقرب، فثواب من سابق بالخيرات الواجبات منها والمستحبات أعلى من ثواب من سابق بالواجبات وحدها، ومنازل أولئك أعلى من منازل هؤلاء[١].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ۞ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه:٧٥-٧٦].

قال ابن سعدي: «ومن يأت ربه مؤمنًا به مصدقًا لرسله متبعًا لكتبه، ﴿قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الواجبة والمستحبة، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾؛ أي: المنازل العاليات، وفي الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ الثواب ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾؛ أي: تطهر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان، إما أن لا يفعلها بالكلية، أو يتوب مما فعله منها، وزكى أيضًا نفسه، ونمّاها بالإيمان والعمل الصالح، فإن للتزكية معنيين: التنقية وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير، وسميت الزكاة زكاة لهذين الأمرين».

◉◉◉◉◉

---

(١) وفي تفصيل هذا انظر كتابي «صفات الأبرار والمقربين وثوابهم»، فإنه نافع مفيد بإذن الله تعالى.

تكميل

في بيان مرتبة أهل العلم والإيمان

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة:١١].

قال الشوكاني: «﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾، في الدنيا والآخرة، بتوفير نصيبهم فيهما، ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾؛ أي: ويرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات عالية في الكرامة في الدنيا والثواب في الآخرة.

ومعنى الآية: أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات، ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات ثم رفعه بعلمه درجات».

قال: «وفي هذه الآية فضيلة عظيمة للعلم وأهله».

وعن ابن مسعود قال: ما خص الله العلماء في شيء من القرآن ما خصهم في هذه الآية، فضل الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتَوا العلم[١].

وعن الحسن قال: قرأ ابن مسعود هذه الآية: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾، فقال: أيها الناس، افهموا هذه الآية، ولترغبكم في العلم، فإن الله سبحانه يقول: يرفع الله المؤمن العالم فوق الذي لا يعلم درجات[٢].

وفي «صفات الأبرار»[٣]: أول صفات أولياء الله تعالى الأبرار والمقربين:

(١) «الدر المنثور» (٨/٨٣).

(٢) «تفسير الثعلبي» (٩/٢٦٠).

(٣) (ص ٢٤-٢٥).

العلم، وإلا كيف يسابقون إلى الله تعالى بالواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات، وهم لا يعرفون ما هي؟! بل وكيف تصير كثير من المباحات في حق بعضهم طاعات يتقربون بها إلى الله تعالى دون العلم بأمر النيات والأحوال القلبية، فضلًا عن مراتب الأقوال والأعمال؟!

فأسبق السابقين أكثرهم علمًا وأحسنهم عملًا بالعلم، وأشرف العلوم العلم بأسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله، وهو متضمن للعلم بأمره ونهيه، وبحسب هذا العلم والعمل به والدعوة إليه والصبر أثناء ذلك كله تكون درجه السبق.

⦿⦿⦿⦿⦿

الخوف من الله تعالى
يثمر المبادرة بالخيرات ويوجب ترك السيئات

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الجَنَّةُ»[1].

فمن خاف الوقوع في الورطات والمكاره والأسباب المؤدية إليها، وخاف فوات المحبوبات والفرص المواتية لها، سار على عجل، وتنشط وترك الكسل، ولم يدَع للعجز والتواني عليه سبيلًا، كالمسافر إذا خاف فوت المقصود أو الانقطاع عن الرفقة أو خاف عدوًّا من قاطع طريق أو غيره، فإنه - ولا بد - يَجِدّ في السير ولا يفتر، فكيف بمن دنا رحيله، وأوشك انتقاله، ولم يتزود بعد لطول الطريق وبعد الشُّقة؟! فكيف إذا كان سفره إلى وطن لا وطن بعده ولا رجوع منه؟!

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠) وغيره، وصححه الألباني.

قال المنذري[1]: «(أدلج)، بسكون الدال: إذا سار من أول الليل، ومعنى الحديث: أن من خاف ألزمه الخوف إلى السلوك إلى الآخرة والمبادرة بالأعمال الصالحة خوفًا من القواطع والعوائق».

ولقد تعجب رسول الله ﷺ من الخائف من النار الهارب منها، الذي غفل عنها ولم يعمل بما ينجيه منها، فإن هذا ليس بخائف ولا هارب على الحقيقة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا!!! وَلَا مِثْلَ الْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا!!!»[2].

قال الطيبي[3]: «يعني: النار شديدة، والخائفون منها نائمون غافلون، وليس هذا طريق الهارب، بل طريقه أن يهرول من المعاصي إلى الطاعات.

وفيه معنى التعجب؛ أي: ما أعجب حال النار الموصوفة بشدة الأهوال، وحال الهارب منها، مع نومه وشدة غفلته والاسترسال في سكرته!!». اهـ.

قلت: ولهذا السر جمع الله عز وجل بين الخوف منه ونهي النفس عن الهوى في قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠-٤١].

قال سيد: «والذي يخاف مقام ربه لا يقدم على معصية، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري قاده خوف هذا المقام الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة، فظل في دائرة الطاعة».

قال: «والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة، وقَلَّ

(١) «الترغيب والترهيب» (٢٦٢/٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٠١) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) انظر «شرح المشكاة» (٣٣٨٣/١١)، و«فيض القدير» (٤٤٦/٥).

أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى، ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة، فالذي يتحدث هنا هو خالق هذه النفس العليم بدائها، الخبير بدوائها، وهو وحده الذي يعلم دروبها ومنحنياتها، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها، وكيف تطارد في مكامنها ومخابئها!

ولم يكلف الله الإنسان ألا يشتجر في نفسه الهوى، فهو سبحانه يعلم أن هذا خارج عن طاقته، ولكنه كلَّفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها، وأن يستعين في هذا بالخوف: الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب». اهـ.

وقال أبو الحسين الوراق: الشهوة أغلب سلطان على النفس، ولا يزيلها إلا الخوف المزعج[(١)].

وقال ابن أبي الدنيا: «بلغني أن بعض الملوك قال لبعض الحكماء: العجب لمن عرف الله وجلاله كيف يخالف أمره وينتهك حريمه؟! فقال الحكيم: بإغفال الحذر، وبسط الأمل، وبعسى وسوف ولعل. قال الملك: بم يُعتصم من الشهوة وقد رُكِّبت في أبدان ضعيفة، ففي كل جزء من البدن للشهوة حلول ووطن؟! قال الحكيم: إن الشهوة من نتاج الفكر، وقرين كل فكرة عبرة، ومع كل شهوة زاجر عنها، فمن قرن شهواته بالاعتبار، وحاط نفسه بالازدجار، انحلت عنه ربقة العدوان، ودحض سَيِّءَ فكره بإيثار الصبر على شهوته، لما يرجو من ثواب الله على طاعته، ويخاف من عقابه على معصيته»[(٢)].

وقال ابن الجوزي[(٣)]: «الخوف سوط يساق به المتواني».

وفي المدهش[(٤)]: «ما دامت نفسك عند التوبيخ تنكسر، وعينك وقت

---

(١) «ذم الهوى» (ص ٣٠).

(٢) «ذم الهوى» (ص ٣٠).

(٣) «الطب الروحاني» (ص ٤٨).

(٤) (ص ٣٥٧).

العتاب تدمع، ففي قلبك بعد حياة، إنما المعاصي أوجبت سكتة، فأنْشِقْ هواك حُرّاق التخويف وقد عطس. يا من قد أبعدته الذنوب عن ديار الأنس، ابك وَطَرَ الوطن عساك تُرَد».

وفي «التبصرة»[1]: «يا من يبارز مولاه بما يكره، ويخالفه في أمره آمنًا مَكْرَه، ويُنْعِم عليه وهو ينسى شكره، والرحيل قد دنا وما له فيه فكرة، يا من قبائحه تُرفع عشيًّا وبكرة، يا قليل الزاد ما أطول السفرة! والنَّقلة قد دنت والمصير الحفرة.

متى تعمل في قلبك المواعظ؟ متى تراقب العواقب وتلاحظ؟ أما تحذر مَنْ أوعدَ وهدّد؟ أما تخاف مَنْ أنذر وشدّد؟ متى تضطرم نار الخوف في قلبك وتتوقد؟ إلى متى بين القصور والتواني تتردد؟ متى تحذر يومًا فيه الجلود تشهد؟ متى تترك ما يفنى رغبة فيما لا ينفد؟ متى تهُب بك ريح الخوف كأنك غصن يَتَأَوَّد[2]؟ البِدار البِدار إلى الفضائل، والحِذار الحِذار من الرذائل، فإنما هي أيام قلائل».

وفيها[3]: «يا مبارزًا [مولاه] بالذنوب خذ حِذرك، وتَوَقَّ عقابه بالتقى فقد أنذرك، وخَلِّ الهوى فإنه كما ترى صيّرك، قبل أن يغضب الإله ويُضَيِّق حَبْسَه، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨ و٣٠].

اجتهد في تقوية يقينك قبل خُسْرِ موازينك، وقم بتضرعك وخيفتك قبل نشر دواوينك، وابذل قواك في ضعفك ولينك، قبل أن يدنو العذاب فتجد مَسَّه، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾».

⦿⦿⦿⦿⦿

---

(١) (٩٧/١-٩٨).

(٢) أي: يتثنى.

(٣) (٧٤/١).

الخوف الشديد
هو المؤثر النافع في ترك المعصية

اعلم أنه إذا دامت من العبد الفكرة في ذنوبه، مع العلم بعظمة من عصى، وجلاله وكبريائه، وشدة بطشه، واستيلاء قهره، وعظمه اقتداره، أثمر له ذلك شدة الخوف في القلب، عندها تنكف النفس عن المعصية، وتضعف خواطرها السيئة، وإلقاء الشيطان فيها، فيثمر لها بسبب خوفها السلامة من هلاك الأبد، والفوز بالنعيم المقيم.

وهذا لا يكون أبدًا إلا مع الخوف العظيم، كما قيل: لا يمحو الشهوات إلا خوف مزعج أو شوق مقلق.

ولهذا ـ كما نبه عليه ابن الوزير[١] ـ آمن قوم يونس لما رأَوُا العذاب، وآمن فرعون حين شاهد الغرق، فإن من طبائع النفوس الإيمان عند شدة الخوف.

قال: ولذلك يرجع كثير من العقلاء عند الموت عن عقائد وقبائح وشبهات كانوا مصرين عليها. اهـ.

والمقصود هنا: أن الخوف الشديد هو المؤثر النافع في ترك المعصية، وهو المزعج السائق إلى التوبة والاستغفار.

قال المحاسبي[٢]: «فإذا أراد هذا العبد المصر أن يصل إلى ما يحل به إصرار قلبه، ويبعثه على التوبة من ذنوبه، فلْيُعْن بطلب الخوف بالتخويف، بالفكر في المعاد، وهجوم الموت، وعظيم حق الله عز وجل، وواجب طاعته، ودوام تضييعه لأمره وركوبه لنهيه».

⦿⦿⦿⦿⦿

---

(١) «إيثار الحق على الخلق» (ص ٥٩).

(٢) «الرعاية» (ص ٦٦).

العلم سبب الخشية

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

قال شيخ الإسلام[١]: «والمعنى: أنه لا يخشاه إلا عالم، فقد أخبر الله أن كل من خشي الله فهو عالم».

وقال[٢]: «وقد روي عن أبي حيان التيمي أنه قال: العلماء ثلاثة: فعالم بالله ليس عالمًا بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالمًا بالله، وعالم بالله عالم بأمر الله، فالعالم بالله هو الذي يخافه، والعالم بأمر الله هو الذي يعلم أمره ونهيه».

وقال[٣]: «كل عاص لله فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله، وإنما يكون جاهلًا لنقص خوفه من الله، إذ لو تم خوفه من الله لم يعص.

ومنه قول ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا. وذلك لأن تصور المخوِّف يوجب الهرب منه، وتصور المحبوب يوجب طلبه، فإذا لم يهرب من هذا ولم يطلب هذا دل على أنه لم يتصوره تصورًا تامًّا، ولكن قد يتصور الخبر عنه، وتصور الخبر وتصديقه وحفظ حروفه غير تصور المخبَر عنه، وكذلك إذا لم يكن المتصوَّر محبوبًا له ولا مكروهًا، فإن الإنسان يصدِّق بما هو مخوِّف على غيره ومحبوب لغيره، ولا يورثه ذلك هربًا ولا طلبًا، وكذلك إذا أُخبر بما هو محبوب له ومكروه، ولم يكذب المخبِر بل عرف صدقه، لكن قلبه مشغول بأمور أخرى عن تصور ما أخبر به، فهذا لا يتحرك للهرب ولا للطلب».

---

(١) «الإيمان» (ص ٢٠).

(٢) «الإيمان» (ص ٢١).

(٣) «الإيمان» (ص ٢٢).

قال الغزالي[1]: «العلم النافع يثمر خشية الله تعالى ومهابته، وذلك أن من لم يعرفه حق معرفته لم يهبه حق مهابته، ولم يعظمه حق تعظيمه وحرمته، فصار العلم يثمر الطاعة كلها، ويحجز عن المعصية كلها، بتوفيق الله تعالى».

⊙⊙⊙⊙⊙

تكرير العلم واستحضاره

اعلم أن المقصود بالعلم فيما تقدم هو العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته، والعلم بعظمته، وما يستحقه من الطاعة والإجلال، والعلم بكلامه في كتابه العظيم، والعلم بكلام رسول الله ﷺ ومعرفة سيرته وهديه.

وكذلك العلم بالنفس وأخلاقها وصفاتها، وما يصلحها ويزكيها وما يفسدها ويدسيها، والعلم بجناياتها وعقوبات الله تعالى عليها في الدنيا والآخرة.

وإنما هو العلم الصحيح وما كان عليه سلف الأمة، هذا أولًا. وثانيًا: العلم الموجب للحذر من الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، لا العلم المجرد الموجود في الذهن فقط، المستخدم للجدل والمناظرة والمناقشة دون العمل.

ويكون العلم الذي أعني نافعًا باستحضاره على الدوام وتدبره وتكراره بقلب شهيد، ييسر ذلك ويعين عليه كثرة ذكر الله عز وجل، وتلاوة القرآن الكريم، والمحافظة على الأذكار الثابتة عن النبي ﷺ، ففي ذلك حياة القلب ونوره، فإن القلب إذا حَيِيَ واستنار رسخ فيه العلم ونفع، مع ملازمة طلب العون والتوفيق والهداية إلى الصراط المستقيم ممن بيده أَزِمَّة الأمور، وله مقاليد السموات والأرض، ولا حول ولا قوة إلا به.

⊙⊙⊙⊙⊙

---

(١) «منهاج العابدين» (ص ٧٤).

الفرق بين الخوف الذي يقع عبادة والخوف الذي يقع طبيعة وعادة

قال ابن سعدي[1]: «اعلم أن الخوف والخشية تارة يقع عبادة، وتارة يقع طبيعة وعادة، وذلك بحسب أسبابه ومتعلقاته.

فإن كان الخوف والخشية خوف تأله وتعبد، وتقرب بذلك الخوف إلى من يخافه، وكان يدعو إلى طاعة باطنة وخوف سِرِّي يزجر عن معصية من يخافه، كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان، وتعلقه بغير الله من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، لأنه أشرك في هذه العبادة التي هي من أعظم واجبات القلب غير الله مع الله، وربما زاد خوفه من غير الله على خوفه من الله.

وأيضًا فمن خشي الله وحده على هذا الوجه فهو مخلص موحد، ومن خشي غيره فقد جعل لله ندًّا في الخشية، كمن جعل لله ندًّا في المحبة، وذلك كمن يخشى من صاحب القبر أن يوقع به مكروها، أو يغضب عليه فيسلبه نعمة، أو نحو ذلك، مما هو واقع من عباد القبور.

وإن كان الخوف طبيعيًّا، كمن يخشى من عدو أو سبع أو حية أو نحو ذلك مما يخشى ضرره الظاهري، فهذا النوع ليس عبادة، وقد يوجد من كثير من المؤمنين ولا ينافي الإيمان.

وهذا إذا كان خوفًا محققًا قد انعقدت أسبابه فليس بمذموم، وإن كان هذا خوفًا وهميًّا، كالخوف الذي ليس له سبب أصلًا، أو له سبب ضعيف، فهذا ذموم يدخل صاحبه في وصف الجبناء، وقد تعوذ ﷺ من

(١) «القول السديد» (ص ١١٤-١١٦).

الجبن[1]، فهو من الأخلاق الرذيلة، ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة تدفع هذا النوع، حتى إن خواص المؤمنين وأقوياءهم تنقلب المخاوف في حقهم أمنًا وطُمَأنينة، لقوة إيمانهم وشجاعتهم الشجاعة القلبية وكمال توكلهم».

⊙⊙⊙⊙⊙

الخوف المحمود والخوف المذموم

قال ابن رجب[2]: «القدر الواجب من الخوف: ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثًا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات، كان ذلك فضلًا محمودًا، فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضًا أو موتًا أو همًا لازمًا، بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله عز وجل، لم يكن محمودًا».

وقال ابن القيم[3]: «والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط.

قال أبو عثمان: صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله».

---

(١) جاء هذا في عدة أحاديث، منها: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال لأبي طلحة: «الْتَمِسْ غُلَامًا مِنْ غِلْمَانِكُمْ يَخْدُمُنِي حَتَّى أَخْرُجَ إِلَى خَيْبَرَ». فخرج بي أبو طلحة مُرْدِفِي وأنا غلام راهقت الحُلُمَ، فكنت أخدم رسول الله ﷺ إذا نزل، فكنت أسمعه كثيرًا يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ». الحديث. متفق عليه، واللفظ للبخاري.

(٢) «التخويف من النار» (ص ١٨).

(٣) «مدارج السالكين» (٥١٤/١).

وقال الغزالي: «الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال، والمحمود هو الاعتدال والوسط.

فأما القاصر منه: فهو الذي يجرى مجرى رقة النساء، يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع، وهو كالقضيب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألمًا مُبَرِّحًا، فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها، وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء، ولست أعني بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين بأسمائهم، فإنهم أبعد الناس عن الخوف، بل أعني العلماء بالله وبأيامه وأفعاله، وذلك مما قد عز وجوده الآن.

ولذلك قال الفضيل بن عياض إذا قيل لك: هل تخاف الله؟ فاسكت، فإنك إن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم، كذبت.

وأشار به إلى أن الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات، وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفًا.

وأما المفرِط: فإنه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، وهو مذموم أيضًا لأنه يمنع من العمل».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلًا قال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال:

«الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالْإِيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ»[1] .

---

(١) أخرجه البزار (٧١/١ - كشف)، وهو في «السلسة الصحيحة» (٢٠٥١).

وروى ابن جرير[1] من طرق عدة، عن عبد الله بن مسعود قال: أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والإياس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله.

قال ابن القيم[2]: «الخوف الموقع في الإياس إساءة أدب على رحمة الله تعالى، التي سبقت غضبه، وجهل بها».

وقال من نظمه[3]:

لـولا التعلـق بالرجـاء تقطعـت ... نفـس المحـب تحسـرًا وتمزقـا
وكـذاك لـولا بـرده بحـرارة الـ ... أكبـاد ذابـت بالحجـاب تحرقـا
أيكون قط حليف حـب لا يـرى ... برجائـه لحبيبـه متعلقـا
أم كلمـا قويـت محبتـه له ... قـوي الرجـاء فـزاد فيـه تشـوقا
لولا الرجـا يحـدو المَطِيَّ لمـا سرت ... بحمولهـا لديـارهم ترجـو اللُّقـا

وقال شيخ الإسلام[4]: «والخشية أبدًا متضمنة للرجاء، ولولا ذلك لكانت قنوطًا، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنًا، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله».

ولأبي العتاهية[5]:

لـيس يرجـو الله إلا خـائف ... من رجـا خـاف ومـن خـاف رجـا

وله:

---

(١) «جامع البيان» (٢٦/٥ و٢٧). قال ابن كثير في «تفسيره»: «وهو صحيح إليه بلا شك». (يعني: إلى ابن مسعود رضي الله عنه).

(٢) «المدارج» (٣٩٣/٢).

(٣) «المدارج» (٤٢/٢).

(٤) «الإيمان» (ص ١٨).

(٥) «ديوانه» (ص ٦١).

أيا عجبًا للناس في طـول مـا سـهَوْا وفي طول ما اغتروا وفي طول ما لهَوْا

يقولـون نرجـو الله ثـم افـترَوْا بـهِ ولو أنهم يرجون خـافوا كمـا رجَـوْا

⊙⊙⊙⊙⊙

عبادة الله تعالى بالحب وحده أو الخوف أو الرجاء وحده

قال شيخ الإسلام(١): «قال بعضهم: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد، وذلك لأن الحب المجرد تنبسط النفوس فيه حتى تتوسع في أهوائها إذا لم يَزَعها وازع الخشية لله، حتى قالت اليهود والنصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨]، ويوجد في مدَّعي المحبة من مخالفة الشريعة ما لا يوجد في أهل الخشية، ولهذا قرن الخشية بها في قوله: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق:٣٢-٣٤]».

⊙⊙⊙⊙⊙

مثل القلب في سيره إلى الله عز وجل

قال ابن القيم(٢): «القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨١/١٠-٨٢).

(٢) «مدارج السالكين» (٥١٧/١).

لكل صائد وكاسر.

ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف، هذه طريقة أبي سليمان وغيره.

قال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن غلب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب، فالمحبة هي المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه».

⦿⦿⦿⦿⦿

فائدة قيمة

تكميلًا لما تقدم

أفاد ابن سعدي في هذا المقام بحثًا قيمًا جدًّا، قال[1]: «يجب على العبد أن يكون خائفًا من الله راجيًا له، راغبًا راهبًا، إن نظر إلى ذنوبه وعدل الله وشدة عقابه خشي ربه وخافه، وإن نظر إلى فضله العام والخاص وعفوه الشامل رجا وطمع، إن وُفِّق لطاعة رجا من ربه تمام النعمة بقبولها، وخاف من ردها بتقصيره في حقها، وإن ابتُلي بمعصية رجا من ربه قبول توبته ومحوها، وخشي بسبب ضعف التوبة والالتفات للذنب أن يعاقب عليها، وعند النعم والمسار يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق لشكرها، ويخشى بإخلاله بالشكر من سلبها، وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها وينتظر الفرج بحلها، ويرجو أيضًا أن يثيبه الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر، ويخشى من اجتماع المصيبتين فوات الأجر المحبوب، وحصول الأمر المكروه، إذا لم يوفَّق للقيام بالصبر الواجب.

---

(١) «القول السديد» (ص ١١٩-١٢٢).

فالمؤمن الموحد في كل أحواله ملازم للخوف والرجاء، وهذا هو الواجب وهو النافع، وبه تحصل السعادة، ويُخشى على العبد من خلقين رذيلين:

أحدهما: أن يستولي عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله وروحه.

الثاني: أن يتجارى به الرجاء حتى يأمن مكر الله وعقوبته.

فمتى بلغت به الحال إلى هذا، فقد ضيع واجب الخوف والرجاء اللذين هما من أكبر أصول التوحيد وواجبات الإيمان.

وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران:

أحدهما: أن يسرف العبد على نفسه ويتجرأ على المحارم، فيصر عليها ويصمم على الإقامة على المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله، لأجل أنه مقيم على الأسباب التي تمنع الرحمة، فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفًا وخُلُقًا لازمًا، وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد، ومتى وصل إلى هذا الحد لم يُرج له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوي.

الثاني: أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم، ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة، ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب، وتضعف إرادته فييأس من الرحمة، وهذا من المحاذير الضارة الناشئة من ضعف علم العبد بربه، وما له من الحقوق، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها، فلو عرف هذا ربه ولم يخلد إلى الكسل، لعلم أن أدنى سعي يوصله إلى ربه، وإلى رحمته وجوده وكرمه.

وللأمن من مكر الله أيضًا سببان مهلكان:

أحدهما: إعراض العبد عن الدين وغفلته عن معرفة ربه وما له من الحقوق وتهاونه بذلك، فلا يزال معرضًا غافلًا مقصرًا عن الواجبات، منهمكًا في

المحرمات، حتى يضمحل خوف الله من قلبه، ولا يبقى في قلبه من الإيمان شيء، لأن الإيمان يحمل على خوف الله وخوف عقابه الدنيوي والأخروي.

السبب الثاني: أن يكون العبد عابدًا جاهلًا معجَبًا بنفسه مغرورًا بعمله، فلا يزال به جهله حتى يُدِل بعمله ويزول الخوف عنه، ويرى أن له عند الله المقامات العالية، فيصير آمنًا من مكر الله متكلًا على نفسه الضعيفة المهينة، ومن هنا يُخذل ويحال بينه وبين التوفيق، إذ هو الذي جنى على نفسه».

⦿⦿⦿⦿⦿

حكم قول: يا رب إني أخافك وأخاف من لا يخافك

قال شيخ الإسلام(١): «وبعض الناس يقول: يا رب إني أخافك وأخاف من لا يخافك، وهذا كلام ساقط لا يجوز، بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحدًا، لا من يخاف الله ولا من لا يخاف الله، فإن من لا يخاف الله أخس وأذل من أن يُخاف، فإنه ظالم، وهو من أولياء الشيطان، فالخوف منه قد نهى الله عنه».

⦿⦿⦿⦿⦿

خشية الحجارة

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٧٤].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥٧/١-٥٨ و٢٠٦/١٤).

قال البغوي[1]: «فإن قيل: الحجر جماد لا يفهم فكيف يخشى؟! قيل: الله يفهمه ويلهمه فيخشى بإلهامه، ومذهب أهل السنة والجماعة أن لله تعالى علمًا في الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لا يقف عليه غير الله، فلها صلاة وتسبيح وخشية، كما قال جل ذكره: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤]. وقال: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور:٤١]. وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [الحج:١٨]. الآية. فيجب على المرء الإيمان به، ويكل علمه إلى الله سبحانه وتعالى».

وقال شيخ الإسلام[2]: «﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، وهذا يدل على أنها تعرف ربها معرفة تليق بها، وإلا لما هبطت من خشيته، فإن الخشية تستلزم العلم بالمخشي».

قال ابن كثير[3]: «قال ابن أبي نجيح، عن مجاهد، أنه كان يقول: كل حجر يتفجر منه الماء، أو يتشقق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل، لمن خشية الله، نزل بذلك القرآن».

⊙⊙⊙⊙⊙

ذكر العذاب والتخويف به
هو من رحمة الله تعالى بعباده

إن من رحمة الله تعالى الواسعة، ورأفته البالغة، أنه تبارك اسمه ذكر لنا في كتابه العظيم وعلى لسان رسوله الكريم ﷺ ما أمام العصاة من العذاب الشديد،

---

(١) «معالم التنزيل» (١/١٠٥).

(٢) «مجموعة الرسائل الكبرى» (٢/٣٤٢).

(٣) «تفسيره» (١/١١٣).

والخطر الأكيد، وأخبرنا عن حالهم ومآلهم، عند الموت وفي القبر وفي الآخرة، وما يقولونه إذا وجدوا شيئًا منه، أو عاينوه، مما يدل على شدة ندمهم وعظيم حسرتهم وكبير مقتهم أنفسهم.

وكذلك ذكر لنا دعاءهم على أنفسهم بالهلاك والخسران عند مشاهدة العذاب ومسِّهم بنفحة منه.

وذكر لنا سبحانه تمنيهم الرجعة إلى الدنيا، ومحاولتهم الخلاص مما هم فيه من الكرب، وأنهم لا يمكنهم ذلك.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر:٣٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۞ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۞ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۞ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴾ [سبأ:٥١-٥٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس:٥٤].

فهذا وأمثاله إنما يذكره الله سبحانه لعباده ليخافوه ويحذروه، ويعملوا على النجاة منه، فتحصل لهم بذلك السعادة الأبدية، فأي رحمة فوق هذا؟! وأي كرم أجل منه؟!

ومن الأمثلة الدالة على هذه الفائدة المقرَّرة لها:

قوله تبارك وتعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ﴾ [الرحمن:٤٣-٤٤].

فذكر سبحانه جهنم وخوف بها، وبالطواف بينها وبين الحميم الذي بلغ الغاية في الحرارة، ثم قال ممتنًّا على عباده: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن:٤٥].

وقوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [آل عمران:٣٠].

وآيات أخرى.

⦿⦿⦿⦿⦿

معرفة عظمة الله

توجب الفرار إليه تعالى

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ * وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ * وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾.[الذاريات:٤٧-٥١].

فلما ذكر لهم سبحانه عذابه لمن كذب به وعقوبته إياهم، وذكر عظمته وقوته وقدرته، قال لهم :﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾، فهذه العلوم والمعارف توجب الخوف من الله سبحانه، والمسارعة إلى طاعته، والفرار منه إليه عز وجل، وذلك بالتزام ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

قال صديق حسن خان(١): «أي: إذا علمتم أن الله تعالى فرد لا نظير له ففروا إليه، ووحِّدوه ولا تشركوا به شيئًا».

⦿⦿⦿⦿⦿

(١) «فتح البيان» (٢١٠/١٣).

قول الله تعالى

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾

قال ابن القيم[1]: «من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير من الناس وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره، فإنك توقر المخلوق وتجله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣]؛ أي: لا تعاملونه معاملة من توقرونه، والتوقير: العظمة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح:٩]. قال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقًّا ولا تشكرونه. وقال مجاهد: لا تبالون عظمة ربكم. وقال ابن زيد: لا ترون لله طاعة. وقال ابن عباس: لا تعرفون حق عظمته.

وهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم لو عظموا الله وعرفوا حق عظمته وحَّدوه وأطاعوه وشكروه، فطاعته سبحانه اجتناب معاصيه والحياء منه بحسب وقاره في القلب، ولهذا قال بعض السلف: ليعظُم وقار الله في قلب أحدكم أن يذكره عند ما يستحيي من ذكره، فيقرن اسمه به، كما تقول: قبح الله الكلب والخنزير والنتن، ونحو ذلك، فهذا من وقار الله، ومن وقاره أن لا تعدل به شيئًا من خلقه، لا في اللفظ، بحيث تقول: والله وحياتك ما لي إلا الله وأنت، وما شاء الله وشئت. ولا في الحب والتعظيم والإجلال، ولا في الطاعة، فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله بل أعظم، كما عليه أكثر الظلمة والفجرة، ولا في الخوف والرجاء ويجعله أهون الناظرين إليه، ولا يستهين بحقه، ويقول: هو مبني على المسامحة. ولا يجعله على الفضلة ويقدم حق المخلوق عليه، ولا يكون الله ورسوله في حد وناحية والناس في ناحية وحد، فيكون في الحد والشق الذي

---

(١) «الفوائد» (ص ٢٤٢-٢٤٣).

فيه الناس دون الحد والشق الذي فيه الله ورسوله، ولا يعطي المخلوق في مخاطبته قلبَه ولبَّه ويعطي الله في خدمته بدنه ولسانه دون قلبه وروحه، ولا يجعل مراد نفسه مقدمًا على مراد ربه، فهذا كله من عدم وقار الله في القلب، ومَن كان كذلك فإن الله لا يلقي له في قلوب الناس وقارًا ولا هيبة، بل يسقط وقاره وهيبته من قلوبهم، وإن وقروه مخافة شره فذاك وقار بغض لا وقار حب وتعظيم.

ومن وقار الله أن يستحيي من اطلاعه على سره وضميره فيرى فيه ما يكره، ومن وقاره أن يستحيي منه في الخلوة أعظم مما يستحيي من أكابر الناس.

والمقصود أن من لا يوقر الله وكلامه وما آتاه من العلم والحكمة كيف يطلب من الناس توقيره وتعظيمه؟!».

⦿⦿⦿⦿⦿

أدوية القلوب

استحضار أحوال الآخرة

قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

فالإيمان بلقاء الله تعالى، واعتقاد الرجوع إليه، وجعل ذلك نصب العينين، موجب لخشوع القلب وخضوعه لله سبحانه، وبالتالي صلاحه واستقامته.

ورُوي عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]. قال رسول الله ﷺ:

«لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ؟!»(١).

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٨٥) وغيره، وضعفه الألباني.

قال المناوي[1]: «والقصد بهذا الحديث وما أشبهه التنبيه على أن أدوية القلوب: استحضار أحوال الآخرة وأحوال أهل الشقاء وديارهم، فإن النفس مشغولة بالتفكر في لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات، وما من أحد إلا وله في كل حالة ونفَس من أنفاسه شهوة سُلِّطت عليه واسترقته، فصار عقله مسخرًا لشهوته، فهو مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذته في طلب الحيلة أو مباشرة قضاء الشهوة، فعلاج ذلك: أن تقول لقلبك ما أشد غباوتك! في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده من أهوال الموقف، ثم عذاب جهنم وطعام أهلها وشرابهم فيها، يورد على فكرة مثل هذا الحديث، ويقول: كيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على أدنى آلام الدنيا؟!».

ووعظ المحاسبي قائلًا: «تعاهد يا أخي قلبك عند همه، وألزمه الفكرة في أمر المعاد، فلا تفارق قلبك، وتوهم بقلبك هول المطَّلع عند مفارقة الدنيا، وترك ما قد بذل أهلها فيه مهج نفوسهم، وتدنيس أعراضهم، وإخلاق مروءاتهم، وانتقاص أديانهم، ثم تركوا ذلك كله وقدِموا على الله فرادى آحاد، مع ما قد وردوا عليه من وحشة القبر وسؤال منكر ونكير، وأهوال القيامة والوقوف بين يدي الله، والمساءلة عن جميع ما كان منهم من قول أو فعل من مثل مثاقيل الذر وموازين الخردل، وسؤاله عن الشباب: فيم أبلى شبابه؟ وعن العمر: فيم أفنى عمره؟ وعن المال: من أين اكتسب؟ وعمن منع؟ وفيم أنفق؟ وعن العلم ماذا عمل فيه؟ وعن جميع الأعمال التي صدقوا فيها والتي كذبوا فيها.

فإنك يا أخي إن شغلت قلبك بذلك وأسكنته إياه، وكان فيك شيء من صحة تركيب العقل، فإنه سيكِلُّ منك لسانك، ولا يعدَمك الخوف اللازم مع الحزن الدائم والشغل المحيط بقلبك».

(١) «فيض القدير» (٣٠٩/٥).

وفي «التبصرة» لابن الجوزي[1]: «يا هذا، سبقك أهل العزائم وأنت في الغفلة نائم، لقد بعت المعالي بالكسل، وآثرت البطالة على العمل، أزعج ذكر القيامة قلوب الخائفين، وقلقل خوف العتاب أفئدة العارفين، فاشتغلوا عن طعام الطَّغام[2]، ومال بهم حذر الباس عن تَنَوُّق اللباس[3]».

ومن مواعظ ابن السماك[4]: «همة العاقل في النجاة والهرب، وهمة الأحمق في اللهو والطرب، عجبًا لعين تلذ بالرقاد، وملك الموت معها على الوساد، أفلا منتبه من نومته، أو مستيقظ من غفلته، ومفيق من سكرته، وخائف من صرعته؟! أما تجعل للآخرة منك حظًّا؟! أقسم بالله، لو رأيت القيامة تخفق بأهوالها، والنار مشرفة على آلها، وقد وضع الكتاب، وجيء بالنبيين والشهداء، لسرك أن يكون لك في ذلك الجمع منزلة.

أَبَعْدَ الدنيا دار معتمل؟! أم إلى غير الآخرة منتقل؟! هيهات! ولكن صمَّت الآذان عن المواعظ، وذهلت القلوب عن المنافع، فلا الواعظ ينتفع، ولا السامع ينتفع».

ومنها: «ألا متأهبٌ فيما يوصف أمامه؟! ألا مستعدٌ ليوم فقره [وفاقته]؟! ألا [شيخٌ] مبادرٌ [انقضاء مدته و]فناء أجله؟! ما ينتظر من ابيضت شعرته بعد سوادها، وتكرش وجهه بعد انبساطه، وتقوس ظهره بعد انتصابه، وكَلّ بصره، وضعف ركنه، وقل نومه، وبَلِيَ منه شيء بعد شيء في حياته؟! فرحم الله امرأً عقَل الأمر، وأحسن النظر، واغتنم أيامه».

❑❑❑❑❑

---

(١) (٢١٠/١).

(٢) أراذل الناس وأوغادهم.

(٣) أي: المبالغة في تحسينه وتجويده.

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٣٣٠/٧)، و«تاريخ الإسلام» (٣٦٩/١٢-٣٧٠).

فوائد تتعلق بذكر الله تعالى

أصل الذكر
في اللغة ومعناه وما يدخل فيه

قال القرطبي[١]: «أصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له، وسُمِّي الذكر باللسان ذكرًا لأنه دلالة على الذكر القلبي، غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللساني صار هو السابق للفهم».

وقال النووي[٢]: «قال الإمام أبو الحسن الواحدي: أصل الذكر في اللغة: التنبيه على الشيء، ومن ذَكَّرك شيئًا فقد نبهك عليه، وإذا ذكَّرته فقد نبهته عليه. قال: ومعنى الذكر: حضور المعنى في النفس. ثم يكون تارة بالفعل، وتارة بالقول، وليس بشرط أن يكون بعد نسيان. هذا كلام الواحدي».

⦿⦿⦿⦿⦿

الذكر يشمل كل الطاعات

قال النووي[٣]: «اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها، بل كل عامل لله تعالى بطاعة فهو ذاكر لله تعالى، كذا قاله سعيد بن جبير[٤] رضي الله عنه وغيره من العلماء. وقال عطاء رحمه

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧١/٢).

(٢) «تهذيب الأسماء واللغات» (١١١/٣).

(٣) «الأذكار» (ص ٧).

(٤) وهو في «الحلية» لأبي نعيم (٢٧٦/٤)، بلفظ: «الذكر طاعة الله، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر، وان أكثر التسبيح وقراءة القرآن».

الله: مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع وتصلي وتصوم وتنكح وتطلق وتحج، وأشباه هذا».

وقال شيخ الإسلام[1]: «إن كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرب إلى الله، من تعلم علم وتعليمه، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، فهو من ذكر الله، ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض، أو جلس مجلسًا يتفقه أو يُفَقِّه فيه الفقه الذي سماه الله ورسوله فقهًا، فهذا أيضًا من أفضل ذكر الله».

وقال ابن سعدي[2]: «الذكر لله الذي ورد في القرآن الأمر به والثناء على أهله، وما رتب عليه من الجزاء، يطلق على جميع الطاعات الظاهرة والباطنة، القولية والفعلية، فكل ما تصوره القلب أو أراده[3]، أو فعله العبد أو تكلم به مما يقرب إلى الله فهو ذكر لله، والله تعالى شرع العبادات كلها لإقامة ذكره، فهي ذكر لله.

ويطلق على ذكر الله باللسان، بذكر أوصافه وأفعاله، والثناء عليه بنعمه، وتسبيحه وتكبيره وتحميده والتهليل، والصلاة على النبي ﷺ.

ومن ذكره ذكر أحكامه؛ تعلمها وتعليمها، ولهذا مجالس التعلم والتعليم يقال لها: مجالس الذكر».

⦿⦿⦿⦿⦿

أفضل الأعمال بعد الفرائض

وقال شيخ الاسلام[4] مجيبًا من سأله عن أفضل الأعمال بعد الفرائض: «وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض، فإنه يختلف باختلاف

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦٦١/١٠).

(٢) «تيسير اللطيف المنان» (ص ٢٠١).

(٣) من عقيدة أو فكر نافع أو خلق جميل. كما في «أصول وكليات في التفسير» (تيسير الكريم المنان: ٤٨٤/٥).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٦٦٠/١٠).

الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد، لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره أن ملازمة ذكر الله دائمًا هو أفضل ما شَغل العبدُ به نفسَه في الجملة» ـ إلى أن قال: ـ «والدلائل القرآنية والإيمانية بصرًا وخبرًا ونظرًا على ذلك كثيرة». اهـ.

⊙⊙⊙⊙⊙

أنواع الذكر
وما يثاب الذاكر عليه منها

النوع الأول: نطق اللسان بالأذكار، من تلاوة وتسبيح وتحميد وتهليل وتكبير، ونحوها.

الثاني: نطق القلب بهذه الأذكار دون اللسان.

الثالث: اشتراك اللسان والقلب بالنطق، بأن يتفرغ القلب مع اللسان فيه.

الرابع: استحضار القلب لمعاني الأذكار دون نطق اللسان.

الخامس: استحضار القلب لها مع نطق اللسان بالذكر.

السادس: استحضار عظمه الله تعالى مع نطق اللسان بالذكر إجمالًا، أو بالتفصيل؛ بتدبر أسماء الله الحسنى وصفاته العلا الثابتة في الكتاب والسنة، بتناول كل اسم وصفه منها، والتفكر في معانيها، و استحضار عظمة الموصوف بها وكماله وجماله، وتنزيهه عما لا يليق به، ثم امتلاء القلب من ذلك، وحصول ثمرته من المحبة لله تعالى والخوف منه والرجاء له، وخشوع القلب لله وإخلاصه له وطُمَأنينته بذكره، وتوكله عليه، وسائر أحوال القلب الإيمانية.

ويدخل في هذا الذكر التفكر في مخلوقات الله تعالى البديعة، ويدخل فيه أيضًا ذكر نعمه السابعة، الظاهرة والباطنة، وذكر جوده وكرمه وتفضله على عبده،

مما يثير الطائعين منهم والمقصرين إلى شكره.

وهذا النوع من الذكر ـ أعني السادس ـ هو أعلى أنواع الذكر لله، خاصة إذا التحق به:

النوع السابع: بأن يضاف إلى هذه الأحوال الشريفة الرفيعة نطق اللسان بالأذكار الشرعية الصحيحة، وتدبر معانيها وتفهم أسرارها ومراميها، فإنها تارة تعبر عما في القلب، وتاره تجلبه وتوجبه.

ويكون هذا الذكر نافعًا بتحقق:

النوع الثامن: وهو الانقياد والتسليم لأوامر الله تعالى، فيسارع العبد إلى فعل الصالحات واجتناب المنهيات، محبه لله تعالى و خوفًا منه ورغبة إليه، وإرادة لوجهه، ومتابعة لرسوله ﷺ.

ومع مداومة هذا الذكر وامتلاء القلب منه والصبر عليه لابد أن يفتح الفتاح العليم والرزاق الكريم على عبده، ويوفقه لأحسن الأخلاق والأعمال، وأرفع المقامات الأحوال، وأعلى درجات الكمال، إلى أن يتولاه ويصطفيه، ويجعله من أحبابه المقربين، الذين عبدوه بالإحسان، كأنهم يرونه، نسال الله تعالى من فضله العظيم.

أما النوع الأول والثالث من الذكر فلا شك أن صاحبه مثاب.

قال الحافظ[1]: «الذكر يقع تارة باللسان، ويؤجر عليه الناطق، ولا يشترط استحضاره لمعناه، ولكن يشترط أن لا يقصد به غير معناه، وإن انضاف إلى النطق الذكر بالقلب فهو أكمل، فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر وما اشتمل عليه من تعظيم الله تعالى ونفي النقائص عنه ازداد كمالًا، فإن وقع ذلك

(١) «فتح الباري» (٢٠٩/١١). وانظر «المرقاة» (١٠/٥)، و«الفتوحات الربانية» لابن علان (٢٠٨/١)، و«مدارج السالكين» (٣٣١/١)، و«الوابل الصيب» (ص ١١٤-١١٥)، و«الاستقامة» (١٧/٢).

في عمل صالح مهما فرض من صلاة أو جهاد أو غيرهما ازداد كمالًا، فإن صحح التوجه وأخلص لله تعالى في ذلك فهو أبلغ الكمال.

وقال الفخر الرازي: المراد بذكر اللسان الألفاظ الدالة على التسبيح والتحميد والتمجيد، والذكر بالقلب التفكر في أدلة الذات والصفات، وفي أدلة التكاليف من الأمر والنهي حتى يطَّلع على أحكامها، وفي أسرار مخلوقات الله، والذكر بالجوارح هو أن تصير مستغرقة في الطاعات، ومن ثم سمى الله الصلاة ذكرا فقال: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:٩].

ونقل عن بعض العارفين قال: الذكر على سبعة أنحاء: فذكر العينين بالبكاء، وذكر الأذنين بالإصغاء، وذكر اللسان بالثناء، وذكر اليدين بالعطاء، وذكر البدن بالوفاء، وذكر القلب بالخوف والرجاء، وذكر الروح بالتسليم والرضاء».

وأما النوع الثاني من الذكر فلا ثواب فيه، ولا أصل له في الشرع، إذ لا يكون الذكر ذكرًا ولا الكلام كلامًا إلا بالنطق به والتلفظ(١).

قال ابن علان(٢): «قال ابن حجر الهيتمي في «شرح المشكاة» بعد نقله أفضلية الذكر القلبي على اللسان: وخالف عِيَاض فقال: لا ثواب بالذكر بالقلب، قال البُلقيني: وهو حق لا شك فيه. اهـ. وقد يقال: إن أريد الثواب من حيث اللفظ فالأصح عدمه، أو من حيث المعنى واشتغال النفس به فالحق الثواب، وإنه أفضل من الأول».

أما النوع الرابع ففيه ثواب بلا ريب، اذ هو نوع من الفكر، وإن كان دون النوع الخامس لاشتراك القلب واللسان في هذا الأخير.

وبالله التوفيق.

---

(١) وسيأتي مزيد تقرير لهذا (صفحة ص ١٢٠-١٢١).

(٢) «الفتوحات الربانية» (١٠٧/١) .

قال ابن القيم[1]: «الذكر أنواع:

الأول: ذكر أسماء الرب تبارك وتعالى وصفاته، والثناء عليه بهما، وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به تبارك وتعالى، بإنشاء الثناء عليه بها من الذاكر، نحو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، ونحو ذلك، فأفضل هذا النوع أجمعه للثناء وأعمه نحو: سبحان الله عدد خلقه، فهذا أفضل من مجرد قولك: سبحان الله[2].

الثاني: الخبر عن الرب تعالى بأحكام أسمائه وصفاته، نحو قولك: الله عز وجل يسمع أصوات عباده، ويرى حركاتهم، ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم، وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم، ونحو ذلك.

الثالث: ذكر أمره ونهيه وأحكامه، إخبارًا عنه أمر بكذا، ونهى عنه كذا، وأحب كذا، وسخط كذا، ورضي كذا.

الرابع: ذكره عند أمره فيبادر إليه، وعند نهيه فيهرب منه، فذكر أمره ونهيه شيء، وذكره عند أمره ونهيه شيء آخر.

الخامس: ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه، ومواقع فضله على عبيده، وهذا أيضًا من أجل أنواع الذكر».

قال: «فهذه خمسة أنواع، وهي تكون بالقلب واللسان تارة، وذلك أفضل الذكر، وبالقلب وحده تارة، وهي الدرجة الثانية، وباللسان وحده تارة، وهي الدرجة الثالثة».

⦿⦿⦿⦿⦿

---

(١) «الوابل الصيب» (ص ١١٢) مختصرًا وبتصرف يسير.

(٢) انظر ـ إن شئت ـ تفصيل هذا في فاتحة كتابي «الأذكار المضاعفة».

روح الذكر

اعلم أن حضور القلب في العبادة من ذكر وغيره هو روحها ـ كما تقدمت الإشارة إليه في أول هذه الفوائد ـ، فكما أنه لا حياة للجسد بلا روح فكذلك كل عبادة لا حضور فيها فإنها ميتة لا روح فيها.

وحضور القلب في الذكر يُقصد به: تدبر الذاكر معنى ما يجريه على لسانه، وجمع قلبه عليه، مع تنبهه لعظمة الله تعالى وجلاله، واستشعاره لمراقبته.

قال الدهلوي(١): «روح الصلاة هي الحضور مع الله، والاستشراف للجبروت، وتذكر جلال الله، مع تعظيم ممزوج بمحبة وطُّمَأنينة.

وروح تلاوة القرآن: أن يتوجه إلى الله بشوق وتعظيم، ويتدبر في مواعظه، ويستشعر الانقياد في أحكامه، ويعتبر بأمثاله وقصصه.

وروح الذكر: الحضور والاستغراق في الالتفات إلى الجبروت».

وقال النووي(٢): «المراد من الذكر حضور القلب، فينبغي أن يكون هو مقصود الذاكر، فيحرص على تحصيله، ويتدبر ما يذكر، ويتعقل معناه، فالتدبر في الذكر مطلوب كما هو مطلوب في القراءة، لاشتراكهما في المعنى المقصود».

وقال ابن الجوزي(٣): «الذكر لله له شرطان: حضور القلب في تحريره، وبذل الجهد في تكثيره، فإن أحببت أن تكون في الراسخين الأقدام في هذا المقام فحَرِّرِ الذكرَ على الإحسان، وكَثِّرْه بقدر الإمكان».

وقال(٤): «تأملت على أكثر الناس عباداتهم، فإذا هي عادات، فأما أرباب اليقظة فعاداتهم عبادة حقيقية، فإن الغافل يقول: «سبحان الله» عادة، والمتيقظ لا يزال فكره في

---

(١) انظر «حجة الله البالغة» (٦٧/٢).

(٢) «الأذكار» (ص ٩).

(٣) «التذكرة في الوعظ» (ص ٥٩).

(٤) «صيد الخاطر» (ص ٣٩٧).

عجائب المخلوقات أو في عظمة الخالق، فيحركه الفكر في ذلك فيقول: «سبحان الله».

ولو أن إنسانًا تفكر في رمانة، فنظر في تصفيف حبها وحفظه بالأغشية لئلا يتضاءل، وإقامة الماء على عظم العجم، وجعل الغشاء عليه يحفظه، وتصوير الفرخ في بطن البيضة، والآدمي في حشا الأم، إلى غير ذلك من المخلوقات، أزعجه هذا الفكر إلى تعظيم الخالق، فقال: «سبحان الله»، وكان هذا التسبيح ثمرة الفكر، فهذا تسبيح المتيقظين، وما تزال أفكارهم تجول فتقع عباداتهم بالتسبيحات محققة.

وكذلك يتفكرون في قبائح ذنوب قد تقدمت، فيوجب ذلك الفكرُ قلقَ القلب ونَدَمَ النفس، فيثمر ذلك أن يقول قائلهم: «أستغفر الله»، فهذا هو التسبيح والاستغفار.

فأما الغافلون فيقولون ذلك عادة، وشتان ما بين الفريقين!!».

وقال ابن سعدي(١): «الصلاة والقراءة والذكر وغيرها من العبادات، إذا كانت بقوة حضور قلب وإيمان كامل، فلا ريب أن بينها وبين عبادة الغافل درجات تنقطع دونها أعناق المَطِيّ(٢)».

وقال ابن القيم(٣): «أفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده، لأن ذكر القلب يورث المعرفة، ويهيج المحبة، ويثير الحياء، ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويَزَع عن التقصير في الطاعات، والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئًا من هذه الآثار، وإن أثمر شيئًا منها فثمرة ضعيفة».

وقال(٤): «من الذاكرين من يبتدئ بذكر اللسان وإن كان على غفلة، ثم لا

---

(١) «تيسير اللطيف المنان» (ص ١٨٩).

(٢) مفردها مَطِيَّة، وهو ما يُركب ويُمتطى، كالبعير والناقة. والمعنى: أنها درجات بعيدة، صعبة المنال على الغافل.

(٣) «الوابل الصيب» (ص ١١٥).

(٤) «الفوائد» (ص ١٩٢).

يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطئا على الذكر، ومنهم من لا يرى ذلك ولا يبتدئ على غفلة، بل يسكن حتى يحضر قلبه فيشرع في الذكر بقلبه، فإذا قوي استتبع لسانه فتواطئا جميعًا، فالأول ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه، والثاني ينتقل من قلبه إلى لسانه من غير أن يخلو قلبه منه، بل يسكن أولًا حتى يحس بظهور الناطق فيه، فإذا أحس بذلك نطق قلبه، ثم انتقل النطق القلبي إلى الذكر اللساني، ثم يستغرق في ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكرًا، وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده».

قلت: وكلامهم رحمهم الله تعالى في معنى حضور القلب يرجع ـ كما نبهوا هم عليه ـ إلى تحقيق مقام الإحسان، الذي ذُكِر في أعظم حديث في هذا الباب، وفيه قوله ﷺ عن الإحسان:

«أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[(١)].

⦿⦿⦿⦿⦿

شأن الذكر

قال ابن القيم[(٢)]: «الذكر منشور الولاية الذي من أُعطيه اتصل ومن منعه عُزل، وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورًا، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورًا، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ... فنترك الذكر أحيانا فننتكس

(١) متفق عليه.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٤٢٣-٤٢٤).

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم به المصيبات، إذا أظلهم البلاء فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم، فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون، يدع القلب الحزين ضاحكًا مسرورًا، ويوصل الذاكر إلى المذكور، بل يدع الذاكر مذكورًا.

وفي كل جارحة من الجوارِح عبودية مؤقتة، والذكر عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة، بل هم مأمورون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال، قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها، فكذلك القلوب بور وخراب وهو عمارتها وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقًا، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضًا من كل شيء.

به يزول الوقر عن الأسماع، والبَكَم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار، زين الله به ألسنة الذاكرين كما زين بالنور أبصار الناظرين، فاللسان الغافل كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

قال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسه الإنسي.

وهو روح الأعمال الصالحة، فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه».

⦿⦿⦿⦿⦿

السر في كون الذكر أفضل الأعمال رغم سهولته

قال في «موعظة المؤمنين»(١): «إن قلت: ما بال ذكر الله سبحانه، مع خفته على اللسان، وقلة التعب فيه، صار أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقة فيها؟

فاعلم أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب، فأما الذكر باللسان والقلب لاهٍ فهو قليل الجدوى، بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو في أكثر الأوقات هو المقدم على العبادات، بل به تشرف سائر العبادات، وهو غاية ثمرة العبادات العملية».

تنبيه: إياك وترك الذكر باللسان لعلمك أنه أضعف الأذكار، أو خوفًا من الرياء، أو لعدم مواطأة القلب للسان، بل اذكر بلسانك، مخلصًا في ذلك، مجتهدًا في حضور قلبك، مستعينًا بالله عز وجل على ذلك كله.

واعلم أن ذكر اللسان مجردًا وإن كان أضعف الأذكار فإنه ذكر شريف، وسبب لحبس اللسان عن الفحش والغيبة، وسائر آفات اللسان، وهو أيضًا الطريق الموصل لتحقيق ذكر القلب، فان العبد لا يزال يحرك لسانه بذكر الله تعالى حتى يفتح الله عليه، ويوفقه لاستحضار معنى ما يقول وتدبره، حتى يصل إلى الحضور التام والتعظيم والإجلال لله سبحانه وتعالى.

---

(١) (ص ١٣٧-١٣٨) بحذف يسير.

وقد قيل[1]: «لا تترك الذكر لعدم حضورك فيه مع الله، لأن غفلتك عن ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، وما ذلك على الله بعزيز».

وقال ابن القيم[2]: «وذكر الله على الغفلة وعلى كل حال خير من نسيانه بالكلية، والألسن متى تركت ذكر الله ــ الذي هو محبوبها ــ اشتغلت بذكر ما يبغضه ويمقت عليه».

وقال شيخ الإسلام[3]: «الذكر يكون بلسان الإنسان ولكن يكون لقلبه من ذلك نصيب، إذ الأعضاء لا تتحرك إلا بإرادة القلب، لكن قد تكون الغفلة غالبة عليه، وذلك الكلام خير من العدم، والله يحبه ويأمر به».

⦿⦿⦿⦿⦿

من آداب الذكر

قال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:٢٠٥].

ذَكَرَ الله تعالى في هذه الآية آدابًا لذكره ـ كما قال القاسمي[4] ـ:

«الأول: أن يكون في نفسه، لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص، وأقرب إلى الإجابة، وأبعد من الرياء.

الثاني: أن يكون على سبيل التضرع، وهو التذلل والخضوع والاعتراف

---

(١) انظر «الفتوحات الربانية» لابن علان (١٠٩/١).

(٢) «مدارج السالكين» (٤٥/٣).

(٣) «الاستقامة» (١٧/٢).

(٤) «محاسن التأويل» (٣٣٣/٧-٣٣٢) مختصرًا.

بالتقصير، ليتحقق بذلة العبودية لعزة الربوبية.

الثالث: أن يكون على وجه الخيفة؛ أي: الخوف والخشية من سلطان الربوبية، وعظمة الألوهية، من المؤاخذة على التقصير في العمل، لتخشع النفس، ويخضع القلب.

الرابع: أن يكون دون الجهر، لأنه أقرب إلى حسن التفكر.

الخامس: أن يكون باللسان لا بالقلب وحده، وهو مستفاد من قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾.

السادس: أن يكون بالغدو والآصال؛ أي: في البكرة والعشي، فتدل الآية على مزية هذين الوقتين، لأنهما وقت سكون ودَعَة وتعبد واجتهاد، وما بينهما الغالب فيه الانقطاع إلى أمر المعاش».

⊙⊙⊙⊙⊙

تحريك اللسان بالذكر

اعلم أنه لا يُعتدّ بشيء من الأذكار من تلاوة أو تسبيح أو غيرها ولا يثاب عليها إلا بالتلفظ وتحريك اللسان بها، ولا تسمى أصلًا تلاوة ولا ذكرًا ولا قولًا ولا كلامًا دون ذلك.

قال النووي في «الأذكار»: «اعلم أن الأذكار المشروعة في الصلاة وغيرها، واجبةً كانت أو مستحبةً لا يُحسبُ شيءٌ منها ولا يُعتدّ به حتى يتلفَّظ به بحيثُ يُسمِع نفسه إذا كان صحيح السمع لا عارض له».

وقال الجزري في «عدة الحصن»: «ولا يُعتدّ له بشيء مما رتبه الشارع على قوله حتى يتلفظ به ويُسمِع نفسه».

قلت: وهو قول الأئمة الثلاثة: أبي حنيفة والشافعي وأحمد، إنها لا تصح إلا

بالتلفظ مع إسماع النفس.

وذهب مالك إلى أنها تصح إذا تلفظ بها وإن لم يُسمِع نفسه، وهو الصواب إن شاء الله تعالى، لأنه يقع عليه مسمى الكلام والقراءة والقول، وبمثل هذا قال شيخ الإسلام[1].

وقال الشوكاني معقبًا على كلام صاحب «العدة» المتقدم: «قوله: ولا يُعتدّ له بشيء مما رتبه الشارع على قوله حتى يتلفظ به ويُسمِع نفسه. أقول: أما باعتبار التلفظ فهو معلوم من أقواله ﷺ المصرحة بأن من قال كذا كان له من الأجر كذا، فلا يحصل له ذلك الأجر إلا بما يصدق عليه معنى القول، وهو لا يكون إلا بالتلفظ باللسان، وأما اشتراط أن يُسمِع نفسه فلم يرد ما يدل عليه، لأنه يصدق القول بمجرد التلفظ، وهو تحريك اللسان وإن لم يُسمِع نفسه»[2]. اهـ.

⊙⊙⊙⊙⊙

دوام الذكر

يعين على شرائع الإسلام ويسهلها

عن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه، أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأخبرني بشيء أتشبث به. قال:

«لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ»[3].

قال ابن القيم[4]: «فدله الناصح ﷺ على شيء يبعثه على شرائع الإسلام والحرص عليها والاستكثار منها، فإنه إذا اتخذ ذكر الله شعاره أحبه وأحب ما

---

(١) انظر «مختصر الفتاوى المصرية» (ص ٤٣).

(٢) ولكلامه بقية.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧٥) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) «الوابل الصيب» (ص ٧٦-٧٧).

يحب، فلا شيء أحب إليه من التقرب بشرائع الإسلام، فدله ﷺ على ما يتمكن به من شرائع الإسلام وتسهل به عليه، وهو ذكر الله عز وجل.

يوضحه: أن ذكر الله عز وجل من أكبر العون على طاعته، فإنه يحببها إلى العبد، ويسهلها عليه، ويلذذها له، ويجعل قرة عينه فيها، ونعيمه وسروره بها، بحيث لا يجد لها من الكُلْفة والمشقة والثِقَل ما يجد الغافل، والتجربة شاهدة بذلك.

يوضحه: أن ذكر الله عز و جل يسهل الصعب، وييسر العسير، ويخفف المشاقَّ، فما ذُكِر الله عز و جل على صعب إلا هان، ولا على عسير إلا تيسر، ولا مشقة إلا خَفَّتْ، ولا شدة إلا زالت، ولا كربة إلا انفرجت، فذِكْرُ الله تعالى هو الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، والفرج بعد الغم والهم».

⦿⦿⦿⦿⦿

الذكر الكثير
سبب للتوفيق لاتباع السنة

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٢١].

فالأسوة الحسنة والاقتداء بالنبي الكريم ﷺ إنما يوفَّق لها من كان هذا وصفه، وكان من أهل الذكر الكثير لله تعالى.

فيا من يدعي اتباع السنة والأثر! أين ذكرك لله تعالى؟! أين اقتداؤك بالنبي ﷺ في كثرة ذكره لله عز وجل؟ أين اقتداؤك به ﷺ فيما يخالف هواك؟!

⦿⦿⦿⦿⦿

الذكر يوجب التوبة
ويحل عقدة الإصرار على الذنوب

من فوائد الذكر العظيمة: أنه يوجب الاستغفار، ويَحل عقدة الإصرار، قال الله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٣٥].

فقول تعالى: ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾، يدل على أن الاستغفار جاء عقب الذكر ونتيجة له، فالذكر هو الذي أوجب لهم التوبة وترك الذنب، وهو بلا شك الذكر المتضمن التعظيم لله عز وجل والخوف منه والرجاء له سبحانه.

والاستغفار المذكور في الآية لا شك أنه الاستغفار التام، المتضمن للتوبة وترك الذنب، يؤكده قوله تعالى بعده: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

قال محمد رشيد رضا: ذكر الله عند الذنب يكون بتذكر نهيه ووعيده، أو عقابه، أو ذكر عظمته وجلاله.

وقال الزمخشري: ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ تذكروا عقابه، أو وعيده، أو نهيه، أو حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء منه.

وسيأتي أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى.

⊙⊙⊙⊙⊙

تعريف الذكر الكثير

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢].

قال ابن الصلاح[١]: «إذا واظب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحًا ومساء،

(١) «فتاوى ابن الصلاح» (١/١٥٠).

وفي الأوقات والأحوال المختلفة في ليل العبد ونهاره، وهي مبينة في «كتاب عمل اليوم والليلة»، كان من الذاكرين الله تبارك وتعالى كثيرًا».

وقال ابن سعدي[1]: «وأقل ذلك، أن يلازم الإنسان أوراد الصباح والمساء، وأدبار الصلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب».

وقال ابن الجزري[2]: «والمواظب على الأذكار المأثورة صباحا ومساء وفي الأحوال المختلفة هو من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات».

وقال بعضهم[3]: «المؤمن يذكر الله تعالى بكله، لأنه يذكر الله بقلبه فتسكن جميع جوارحه إلى ذكره، فلا يبقى منه عضو إلا وهو ذاكر في المعنى، فاذا امتدت يده إلى شيء ذكر الله فكف يده عما نهى الله عنه، وإذا سعت قدمه إلى شيء ذكر الله فغض بصره عن محارم الله، وكذلك سمعه ولسانه وجوارحه مصونة بمراقبة الله تعالى، ومراعاة أمر الله، والحياء من نظر الله، فهذا هو الذكر الكثير الذي أشار الله إليه بقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾.

والذكر القليل ذكر المنافقين، يذكرون الله بألسنتهم رئاء الناس، وليس في قلوبهم من الذكر شيء، قال الله تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [النساء:١٤٢].

والذكر المطلوب ذكر القلب، وإنما اللسان طريق إليه، فمن لازم ذكر الله تعالى بلسانه، مخلصًا لله تعالى، وصلت بركة الذكر إلى قلبه، فعاش قلبه بذكر الله

---

(١) «تفسيره» (١٥٧/٤).

(٢) «عدة الحصن الحصين» (ص ١٧).

(٣) وهو من أحسن ما قيل، ولا يحضرني قائله، فقد وجدته في بعض كتبي غير معزو إلى أحد.

تعالى، فعند ذلك يكون ذكره كثيرًا».

قلت: ويلحق بالذاكرين الله كثيرًا والذاكرات: من قام من الليل وأيقظ امرأته فصليا جميعًا ركعتين، كما روى أبو سعيد وأبو هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّيَا، أَوْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا، كُتِبَا فِي الذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ»(١).

⊙⊙⊙⊙⊙

المفاضلة بين الذكر والجهاد

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٥-٩٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ: رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً(٢) أَوْ فَزْعَةً(٣) طَارَ عَلَيْهِ يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مَظَانَّهُ(٤).

أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ(٥) فِي رَأْسِ شَعَفَةٍ(٦) مِنْ هَذِهِ الشَّعَفِ، أَوْ بَطْنِ وَادٍ مِنْ

(١) أخرجه أبو داود (١٤٥١) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) هي الصوت عند حضور العدو. «نووي».

(٣) هي النهوض إلى العدو. «نووي».

(٤) أي: يطلبه في مواطنه التي يرجى فيها، لشدة رغبته في الشهادة. «نووي».

(٥) تصغير الغنم؛ أي: قطعة منها. «نووي».

(٦) الشَّعَفَة: أعلى الجبل. «نووي».

هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ مَنْزِلًا؟». قلنا: بلى يا رسول الله. قال:

«رَجُلٌ آخِذٌ بِرَأْسِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَتَّى يَمُوتَ أَوْ يُقْتَلَ، وَأُخْبِرُكُمْ بِالَّذِي يَلِيهِ؟». قلنا: نعم يا رسول الله. قال:

«رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شِعْبٍ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْتَزِلُ شُرُورَ النَّاسِ، وَأُخْبِرُكُمْ بِشَرِّ النَّاسِ؟». قلنا: نعم يا رسول الله. قال:

«الَّذِي يُسْأَلُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا يُعْطِي بِهِ»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مَرَّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشِعْبٍ فيه عُيَيْنَةٌ من ماء عذبة، فأعجبته لطِيبها، فقال: لو اعتزلتُ الناس فأقمت في هذا الشِّعْبِ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فذَكَرَ ذلك لرسول الله ﷺ، فقال:

«لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ مُقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ(٣) عَامًا، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، وَيُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ، اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَوَاقَ نَاقَةٍ(٤) وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»(٥).

وعنه رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: دُلَّنِي على عمل

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٩) وغيره.

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٥٢)، والنسائي (٢٥٦٩)، واللفظ له، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٣) المحفوظ: «سِتِّينَ سَنَةً»، انظر «صحيح الترغيب» (١٠٣/٢).

(٤) قَدْر ما بين الحَلْبتين من الوقت.

(٥) أخرجه الترمذي (١٦٥٠) وغيره، وحسنه الألباني.

يَعْدِلُ الجهادَ. قال: «لَا أَجِدُهُ». قال:

«هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَفْتُرَ وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ؟ » قال: ومن يستطيع ذلك؟!

قال أبو هريرة: إن فرس المجاهد لَيَسْتَنُّ في طِوَلِهِ فيُكْتَبُ له حسنات[1].

(وفي رواية): قال: قيل للنبي ﷺ: ما يَعْدِلُ الجهادَ في سبيل الله عز وجل؟ قال: «لَا تَسْتَطِيعُونَهُ». قال: فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثًا، كل ذلك يقول: «لَا تَسْتَطِيعُونَهُ». وقال في الثالثة:

«مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللَّهِ، لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى».

(وفي رواية): قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ـ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ ـ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْخَاشِعِ الرَّاكِعِ السَّاجِدِ».

وعن خالد بن الوليد السَّكْسَكِي قال: سمعت رجلًا من أهل دمشق يحدث ابن أبي كبشة بالهند، زعم أنه أدرك رسول الله ﷺ قال: أقبل عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أريد أن أُبْتَعَثَ في هذا البعث الذي أمر به رسولُ الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «نَعَمْ». قال: فإني أريد أن أخرج فأشتري جهازًا وظهرًا من الأحياء التي وراء المدينة، قال: فخرج، فما انصرف حتى بعث رسول الله ﷺ ذلك البعث، وأقبل عبد الرحمن فقال: يا رسول الله، فاتني ذلك البعث، وإنما كنت في جهازي، فأخبِرني بعمل أعمله بعدهم أبلغ به درجتهم،

---

(١) أخرجه البخاري (٦/٤- فتح)، والنسائي (٦/١٩)، كلاهما بالرواية الأولى، ومسلم (١٨٧٨)، والترمذي (١٦١٩)، كلاهما بالرواية الثانية، والرواية الثالثة للنسائي (٦/١٨)، وقول أبي هريرة: «إن فرس المجاهد لَيَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ فيُكْتَبُ له حسنات» عند البخاري وحده.

فقال له النبي ﷺ:

«هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ!! لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ». قال: أوَ صيامٍ أوَ صلاةٍ أوَ صدقةٍ؟ قال: «تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُومَ فَلَا تَنَامَ، وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ، حَتَّى يَنْصَرِفُوا؟» قال: لا، فقال له رسول الله ﷺ:

«لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ مَا بَلَغْتَ دَرَجَاتِهِمْ»(١).

وعن معاذ بن سهل رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أن امرأة أتته فقالت: يا رسول الله، انطلق زوجي غازيًا، وكنت أَقتدي بصلاته إذا صلى، وبفِعْلِهِ كُلِّهِ، فأخبرني بعمل يُبْلِغُنِي عَمَلَهُ حتى يرجع، فقال لها:

«أَتَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَقُومِي وَلَا تَقْعُدِي، وَتَصُومِي وَلَا تُفْطِرِي، وَتَذْكُرِي اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَا تَفْتُرِي، حَتَّى يَرْجِعَ؟» قالت: ما أُطِيقُ هذا يا رسول الله. فقال:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ طُوِّقْتِيهِ مَا بَلَغْتِ الْعُشْرَ مِنْ عَمَلِهِ حَتَّى يَرْجِعَ»(٢).

قال ابن النحاس(٣): «فإذا كان أولو الهمم العلية، والنفوس الأبية، والشهامة الدينية، المضاعفة أجورهم بالصحبة النبوية، الفائزون بالسبق إلى كل كمال، الحائزون من رتب الاجتهاد كل مقام عال، لا يستطيعون عملًا يعدل الجهاد، فكيف تَقَرُّ أعين أمثالنا من غير اجتهاد؟! وكيف تسكن إلى الأعمال اليسيرة بالهمم الدنية الحقيرة، مع ما يشوبها من الرياء وعدم الإخلاص، والدسائس التي لا يكاد يرجى معها خلاص؟! اللـهم أيقظنا من هذه الغفلة، ووفقنا للجهاد في سبيلك قبل حلول النَّقلة، فأنت المرجو لكل خير، ولا حول ولا قوة إلا بالله». اهـ.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «كتاب الجهاد» (رقم ٦٩)، وفي «الآحاد والمثاني» (٢٤٤٩)، وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (١٥٢٠٦) وغيره. وهو في «صحيح الترغيب» (١٣٢١).

(٣) «مشارع الأشواق» (١٤٩/١).

«أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قالوا: بلى. قال: «ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى»[1].

قال الحافظ[2] بعد أن ذكر هذا الحديث: «وقد أشرت إليه مستشكلًا في أوائل الجهاد[3] مع ما ورد في فضل المجاهد، أنه كالصائم لا يفطر وكالقائم لا يفتر[4]، وغير ذلك مما يدل على أفضليته على غيره من الأعمال الصالحة، وطريق الجمع والله أعلم: أن المراد بذكر الله في حديث أبي الدرداء الذكر الكامل، وهو ما يجتمع فيه ذكر اللسان والقلب، بالتفكر في المعنى، واستحضار عظمة الله تعالى، وأن الذي يحصل له ذلك يكون أفضل ممن يقاتل الكفار مثلًا من غير استحضار لذلك، وأن أفضلية الجهاد إنما هي بالنسبة إلى ذكر اللسان المجرد، فمن اتفق له أنه جمع ذلك، كمن يذكر الله بلسانه وقلبه واستحضاره، وكل ذلك حال صلاته أو في صيامه أو تصدقه أو قتاله الكفار مثلًا، فهو الذي بلغ الغاية القصوى، والعلم عند الله تعالى. وأجاب القاضي أبو بكر بن العربي بأنه ما من عمل صالح إلا والذكر مشترط في تصحيحه».

وقال ابن القيم[5]: «الذاكر المجاهد أفضل من الذاكر بلا جهاد والمجاهد الغافل، والذاكر بلا جهاد أفضل من المجاهد الغافل عن الله تعالى، فأفضل الذاكرين المجاهدون، وأفضل المجاهدين الذاكرون.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٧) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) «فتح الباري» (٢١٠/١١).

(٣) «الفتح» (٥/٦).

(٤) ورد نحوه في حديث متفق عليه.

(٥) «الوابل الصيب» (ص ٤٩).

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال:٤٥]، فأمرهم بالذكر الكثير والجهاد معًا ليكونوا على رجاء من الفلاح».

وقال[١]: «إن أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكرًا لله عز وجل، فأفضل الصوام أكثرهم ذكرًا لله عز وجل في صومهم، وأفضل المتصدقين أكثرهم ذكرًا لله عز وجل، وأفضل الحاجّ أكثرهم ذكرًا لله عز وجل، وهكذا سائر الأحوال».

وقال شيخ الاسلام[٢] مجيبًا من سأله عن أفضل الأعمال بعد الفرائض: «وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض، فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد، لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره أن ملازمة ذكر الله دائمًا هو أفضل ما شَغل العبدُ به نفسَه في الجملة» ـ إلى أن قال: ـ «والدلائل القرآنية والإيمانية بصرًا وخبرًا ونظرًا على ذلك كثيرة».

⦿⦿⦿⦿⦿

الذكر سبب لمحبة الله عز وجل

قال ابن القيم[٣]: «الذكر يورث الذاكر المحبة، التي هي روح الإسلام، وقطب رحى الدين، ومدار السعادة والنجاة، وقد جعل الله لكل شيء سببًا، وجعل سبب المحبة دوام الذكر، فمن أراد أن ينال محبة الله عز وجل فليلهج بذكره، فإن الدرس والمذاكرة كما أنه باب العلم، فالذكر باب المحبة، وشارعها الأعظم،

(١) «الوابل الصيب» (ص ٩٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/٦٦٠).

(٣) انظر «الوابل الصيب» (ص ٥٢).

وصراطها الأقوم».

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُحِبَّ اللهَ وَرَسُولَهُ فَلْيَقْرَأْ فِي الْمُصْحَفِ»(١).

والمحب الصادق لربه عز وجل لا يفتر عن ذكره أبدًا، ويظهر ذلك جليًّا في أربعة مواطن، كما نبه إليه ابن القيم(٢):

أحدها: عند أخذ مضجعه، وتفرغ حواسه وجوارحه من الشواغل، واجتماع قلبه على ما يحبه، فإنه لا ينام إلا على ذكر من يحبه وشغل قلبه به.

الموطن الثاني: عند انتباهه من النوم، فأول شيء يسبق إلى قلبه ذكر محبوبه.

الموطن الثالث: عند دخوله في الصلاة، فإنها محك الأحوال، وميزان الإيمان، بها يوزن إيمان الرجل، ويتحقق حاله ومقامه، ومقدار قربه من الله ونصيبه منه، فإنها محل المناجاة والقربة، ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربه، فلا شيء أقر لعين المحب ولا ألذ لقلبه ولا أنعم لعيشه منها إن كان محبًّا، فإنه لا شيء آثر عند المحب ولا أطيب له من خلوته بمحبوبه، ومناجاته له، ومثوله بين يديه.

الموطن الرابع: عند الشدائد والأهوال، فإن القلب في هذا الموطن لا يذكر إلا أحب الأشياء إليه، ولا يهرب إلا إلى محبوبه الأعظم عنده.

وفي «التذكرة في الوعظ»(٣):

الزم طريق الذكر عمرَك دائبًا ... فالذكر في القلب المحبةَ زارع

⦿⦿⦿⦿⦿

---

(١) أخرجه ابن شاهين في «الترغيب» (١٩١)، وابن المقرئ في «المعجم» (٤٩٨)، واللفظ له، وغيرهما. وهو في «الصحيحة» (٢٣٤٢).

(٢) انظر «طريق الهجرتين» (٢/٦٦٤-٦٦٧ – أبو زيد).

(٣) (ص ٥٩).

معية الله تعالى للذاكر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ» الحديث[1].

وعنه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي، وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ»[2].

قال ابن القيم[3]: «وهذه المعية معية خاصة، غير معية العلم والإحاطة العامة، فهي معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق».

قال: «والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شيء، وهي أخص من المعية الحاصلة للمحسن والمتقي، وهي معية لا تدركها العبارة ولا تنالها الصفة، وإنما تُعلم بالذوق».

⦿⦿⦿⦿⦿

أول ما يحتاج إليه الذاكر

قال ابن الجوزي[4]: «أول ما يحتاج إليه العازم على ذكر الله: التفرغ من الشواغل الظاهرة، ثم تسكين جوارح البدن عن الحركات الشاغلة، ثم قطع الفكر عن قلبه، ثم إشعار نفسه عظمة ما قد عزم عليه من ذكر ربه، ثم استفراغ الوسع في تجويد الذكر، ثم إطالة المجلس ما أمكنه إطالته، ثم التحفظ

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٧٩٢) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) «الوابل الصيب» (ص ٨٣).

(٤) «التذكرة في الوعظ» (ص ١١٩).

بالحالة التي استفادها قلبه من الرقة، باجتناب المُلْهيات من حين يقوم عن الذكر إلى أن يعود إليه، فهذه الشرائط السبع من راعاها حق الرعاية بلغ من مراد الذاكرين أقصى الغاية».

⊙⊙⊙⊙⊙

أيهما أفضل الذكر أم الدعاء؟

قال ابن القيم[1]: «قراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، هذا من حيث النظر لكل منهما مجردًا، وقد يَعرِض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل، بل يُعَيِّنه فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل، وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما، بل القراءة فيهما منهي عنها».

قال[2]: «ولما كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذكر والدعاء، وهي جامعة لأجزاء العبودية على أتم الوجوه، كانت أفضل من كل من القراءة والذكر والدعاء بمفرده، لجمعها ذلك كله مع عبودية سائر الأعضاء».

⊙⊙⊙⊙⊙

وصف الحائزين
على الفضائل الواردة في الذكر

قال ابن بطال، عن بعض العلماء[3]: «الفضائل الواردة في فضل الذكر إنما هي لأهل الشرف في الدين والكمال، كالطهارة من الحرام والمعاصي العظام، فلا

---

(١) «الوابل الصيب» (ص ١١٨).

(٢) «الوابل الصيب» (ص ١١٩).

(٣) ذكره الحافظ في «الفتح» (٢٠٨/١١)، وانظر (٥٤١/١٣).

تظن أن من أدمن الذكر، وأصر على ما شاءه من شهواته، وانتهك دين الله وحرماته، أنه يلتحق بالمطهرين المقدسين، ويبلغ منازلهم بكلام أجراه على لسانه، ليس معه تقوى ولا عمل صالح».

قلت: من أدمن الذكر متفهمًا لمعناه، متدبرًا له، حاضرًا قلبه فيه، معظمًا للمذكور سبحانه، فإنه لا شك تناله الأجور والفضائل الواردة في الأذكار، وهو أهل لها بإذن الله، ومن ذكر الله تعالى على هذا النحو لا يمكن أن يكون من أهل المعاصي العظام المنتهكين لمحارم الله أصلًا، إذ أن ذكره هذا يصده عن المعصية، وأما أن تُحجر فضائل الذكر وأجوره الواردة على أهل الشرف والمقامات العالية في الدين فلا.

⦿⦿⦿⦿⦿

الذكر بالاسم المفرد

قال شيخ الإسلام(١): «المشروع في ذكر الله سبحانه هو ذكره بجملة تامة، وهو المسمى بالكلام، والواحد منه بالكلمة، وهو الذي ينفع القلوب، ويحصل به الثواب والأجر والقرب إلى الله ومعرفته ومحبته وخشيته، وغير ذلك من المطالب العالية والمقاصد السامية.

وأما الاقتصار على الاسم المفرد مظهرًا أو مضمرًا(٢) فلا أصل له فضلًا عن أن يكون من ذكر الخاصة والعارفين، بل هو وسيلة إلى أنواع من البدع والضلالات، وذريعة إلى تصورات أحوال فاسدة من أحوال أهل الإلحاد وأهل الاتحاد».

وقال: «فأما الاسم المفرد مظهرًا مثل: الله الله. أو مضمرًا مثل: هو هو. فهذا ليس بمشروع في كتاب ولا سنة، ولا هو مأثور أيضًا عن أحد من سلف

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٣٣).

(٢) مظهرًا: يعني قول: الله الله. ومضمرًا: يعني: هو هو. كما سيأتي.

الأمة، ولا عن أعيان الأمة المقتدى بهم، وإنما لهج به قوم من ضلال المتأخرين».

قال[1]: «وما في القرآن من قوله: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ [المزمل:٨]، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى:١]، وقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۞ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤-١٥]، وقوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤ و٩٦، والحاقة:٥٢]، ونحو ذلك، لا يقتضي ذكره مفردًا[2]».

قال[3]: «ولو كرر الإنسان اسم الله ألف ألف مرة لم يصر بذلك مؤمنًا، ولم يستحق ثواب الله ولا جنته، فإن الكفار من جميع الأمم يذكرون الاسم مفردًا، سواء أقروا به وبوحدانيته أم لا، حتى إنه لما أمرنا بذكر اسمه كقوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ [المائدة:٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ [الأنعام:١٢١]، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى:١]، وقوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤ و٩٦، والحاقة:٥٢]، ونحو ذلك، كان ذكر اسمه بكلام تام، مثل أن يقول: بسم الله. أو يقول: سبحان ربي الأعلى، وسبحان ربي العظيم، ونحو ذلك. ولم يشرع ذكر الاسم المجرد قط، ولا يحصل بذلك امتثال أمر ولا [حل صيد] ولا ذبيحة ولا غير ذلك.

فإن قيل: فالذاكر أو السامع للاسم المجرد قد يحصل له وجد محبة وتعظيم لله ونحو ذلك. قلت: نعم، ويثاب على ذلك الوجد المشروع والحال الإيماني، لا لأن مجرد الاسم مستحب، وإذا سمع ذلك حرك ساكن القلب، وقد يتحرك الساكن بسماع ذكر محرم أو مكروه، حتى قد يسمع المسلم من يشرك بالله أو يسبه فيثور في قلبه حال وجد ومحبة لله بقوة نفرته وبغضه لما سمعه».

⊙⊙⊙⊙⊙

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٢٩).

(٢) يعني: أن يقول الذاكر: الله الله .. .

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/٥٦٢-٥٦٣).

من بدع الذكر

قال الأخضري[1]:

ومــن شروط الذكــر أن لا يُسْــقِطا ... بعــض حــروف الاســم أو يُفْرِطــا

في البعض مـن مناسـك الشــريعة ... عمـــدًا فتلـــك بدعـــة شـــنيعة

والــرقص والصــراخ والتصــفيقُ ... عمـــدًا بـــذكر الله لا يليـــقُ

وإنمـــا المطلـــوب في الأذكارِ ... الذكـــر بالخشـــوع والوقـــارِ

وغـــير ذا حركـــة نفســـيهْ ... إلا مـــع الغلبـــة القويـــهْ

فواجـــب تنزيـــه ذكـــر اللهِ ... على اللبيـــب الذاكـــر الأواهِ

عــن كل مــا تفعلــه أهــل البــدعْ ... ويقتــدى بفعــل أربــاب الــورعْ

فقـــد رأينـــا فرقـــة إن ذكـــروا ... تبـــدّعوا وربمـــا قـــد كفـــروا

وصــنعوا في الذكــر صــنعا منكــرا ... صــعبا فجاهــدهم جهــادا أكــبرا

خَلُّــوا مــن اسـم الله حــرف الهــاءِ ... فألحـــدوا في أعظـــم الأســـماءِ

لقـــد أتَـــوْا واللهِ شـــيئًا إدّا ... تخـــرّ منـــه الشـــامخات هـــدّا

والألــف المحــذوف قبــل الهــاءِ ... قـــد أســـقطوه وهـــو ذو إخفـــاءِ

وغـــرّهم إســـقاطه في الخـــطِّ ... وكل مـــن يتركـــه فمخطـــي

قــد غــيروا اســم الله جــلّ وعــلا ... وزعمـــوا نيـــل المراتـــب العـــلا

تغـــرّهم مذاقـــة طبعيـــهْ ... ســـببها حركـــة نفســـيهْ

فزعمـــوا أن لهـــم أسرارا ... وأن في قلـــوبهم أنـــوارا

---

(١) «مجموعة الرسائل المنيرية« (آخر الجزء الرابع)

وزعموا أن لهم أحوالا   وأنهم قد بلغوا الكمالا
والقوم ما يدرون ما الأحوالُ   فكونها لمثلهم محالُ
حاشا بساط القدس والكمالِ   تطؤه حوافر الجهالِ
قد ادّعَوْا من الكمال منتهى   يكلّ عن تحصيله أولو النهى
والجاهلون كالحمير المُوكَفهْ   والعارفون سادة مشرَّفهْ
وهل يُرى بساحل الأنوارِ   من لجّ في بحر الظلام ساري
وقال بعض السادة المتبعهْ   في رجزٍ يهجو المبتدعهْ
ويذكرون الله بالتغبيرِ   ويشطحون الشطح كالحميرِ
وينبحون النبح كالكلابِ   طريقهم ليست على الصوابِ

ولخير الدين وانلي[1]:

الذكر بالنفس ليس الذكر بالنغمِ   والله يسمع همس الذر في الظُّلمِ
قد بين الله في القران مبلغه   فإنه دون جهر القول والكَلِمِ
إن كان يسمع رب الأنام فما   هذا الصراخ الذي يفضي إلى الصممِ
من أين جاؤوا بهذا الذكر ويحهمُ   من هيشة السوق أم من صرخة الألم
هل كان أصحاب خير الرسل قاطبةً   تهتز أردافهم فؤ الذكر بالنغمِ
هل كان ذاكرهم بالدف ينقرهُ   هل كان يشخِر في الحلقات كالنَّعَمِ
هل كان يلبس طَرطورًا له طَرَرٌ   هل كان يركع قبل الرقص للصنمِ
هل كان يعرف بالمزمار ينفخهُ   هل كان يَفتل مثل اللولب الهرمِ

(١) «ديوان الحق المبين» (ص ٦٩).

هل كان يهوى إلى الأذقان صارخهم ... تظنــه مــات مغشــيًا مــن اللَّمــمَ
يظـــل ينخُـــر والأشـــداق مزبِـــدةٌ ... والعين مغمضـة والقلـب في صَـمَمِ
مــا كان ذكــر أبي بكــر ولا عمــرَ ... كــذكر شرذمــة عادت مــن الأَجَـمِ
الذكــر تقــوى وإخــلاص ومرحمــةٌ ... مــا الذكــر شــعوذة أو زعقــة بفــمِ
الذكـــر وعي وإحســـان وتضـــحيةٌ ... ما الذكر غيبوبة الآهـات مـن بَهَـمِ
الذاكرون أضـاء الكـون مشـعلهم ... الذاكــرون أنــاروا حالــك الظُّلَــمِ
الذاكرون مشى في الأرض فـاتحهم ... يُحَطِّــم البــغي والطغيــان بالقــدمِ
الذاكــرون أقــاموع دولــة خفقــتْ ... رايتهــا فــوق ســهل الأرض والعَلَــمِ
الذاكــرون تعــالى صــوت قائــدهم ... بالذكر في حومة الفرسان في الضَّرَـمِ
الذاكــرون تهــاوى عنــد صرخــتهم ... الله أكــبر عــرش الــروم والعجــمِ
هذا هــو الذكــر هــذا حــال فاعلــهِ ... مــا كان دروشـــة أو جَذبــة العــدمِ
عــودوا إلى الله في ذكــر وفي عمــلٍ ... وســـــبحوه بأفعـــــال وبـــــالكلِمِ
واسـتلهموا سـنة المختـار أحمـدنا ... وخــيرِ مــن علَّــم الأذكار في الأمــمِ
فســنة المصــطفى نِــبراس دعوتنــا ... في الذكر والفكر في حرب وفي سَـلَمِ

هذا، وسيأتي أثناء الكتاب فوائد أخرى متعلقة بالذكر.

❑❑❑❑❑

محركات القلوب إلى الله تعالى

قال شيخ الإسلام[(١)]: «لا بد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب إلى الله عز وجل، فتعتصم به، فتقل آفاتها أو تذهب عنها بالكلية بحول الله وقوته، فنقول: اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، وأقواها المحبة، وهي مقصودة تراد لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق.

فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده.

فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبدًا لله لا لغيره.

فإن قيل: فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه، فأي شيء يحرك القلوب؟ قلنا: يحركها شيئان:

أحدهما: كثرة الذكر للمحبوب، لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به، ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢]. الآية.

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه، قال الله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ [لقمان:٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض، وما فيها

---

(١) «مجموع الفتاوى (١/٩٥-٩٦).

من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره، فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثًا.

وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه، وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو وما ورد في الرجاء».

⊙⊙⊙⊙⊙

هداية القلب وحياته
بالإقبال على القرآن الكريم تلاوة وتدبرًا وسماعًا

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ الآية، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا برب العالمين جل وعلا، يهدي للتي هي أقوم؛ أي: الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب.، فـ «التي» نعت لموصوف محذوف، على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

وما من المنعوت والنعت عُقِل ... يجوز حذفه وفي النعت يَقِل

وقال الزجاج والكلبي والفراء: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله والإيمان برسله.

وهذه الآية الكريمة أجملَ اللهُ جل وعلا فيها جميعَ ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم، لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة». اهـ

فبالإقبال على القرآن وتلاوته وسماعه وتدبره يحيا القلب، ويستنير الصدر، ويذهب همه وغمه، ويحضر سروره وفرحه، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا[(١)]».

قال: فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمُها؟ فقال:

«بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»[(٢)].

قال ابن القيم[(٣)]: «ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته، من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تُطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طُرُقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتَتُلُّ[(٤)] في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتُثَبِّتُ قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه وتوطّد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار، وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق، واجتماعهم فيما

---

(١) أو: «فَرَحًا» بالمهملة، لاختلاف نسخ «المسند» التي بين يدي.

(٢) أخرجه أحمد (٣٧٠٤ و٤٣٠٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٣٧٢ - موارد)، والحاكم (٥٠٩/١)، وغيرهم. وهو في «الصحيحة» (رقم ١٩٩).

(٣) «مدارج السالكين» (٤٥١/١-٤٥٣).

(٤) أي: تضع.

يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة تعرِّفه الربَّ المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه.

وتعرِّفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها، ومشاهدتها ومطالعتها:

فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم، فتريه الحق حقًّا، والباطل باطلًا، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرق به بين الهدى والضلال، والغَي والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه وحياة وسعة وانشراحًا وبهجة وسرورًا، فيصير في شأن والناس في شأن آخر.

فإن معاني القرآن دائرة على التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وما له من أوصاف الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، وعلى الإيمان بالرسل، وذكر براهين صدقهم، وأدلة صحة نبوتهم، والتعريف بحقوقهم، وحقوق مرسلهم، وعلى الإيمان بملائكته، وهم رسله في خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جُعِلوا عليه من أمر العالم العلوي والسفلي، وما يختص بالنوع الإنساني منهم، من حين يستقر في رحم أمه إلى يوم يوافي ربه ويقدم عليه، وعلى الإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه لأوليائه، من دار النعيم المطلق التي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد وتنغيص، وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل التي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح، وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه، وعلى تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر،

والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ والغايات في خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل، وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل، وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته ووَنَى في سيره: تقدم الركب وفاتك الدليل، فاللَّحاق اللَّحاق، والرحيل الرحيل. وتحدو به وتسير أمامه سير الدليل، وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو، أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر! فاعتصم بالله، واستعن به، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمل القرآن وتدبره وتفهمه أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد».

وقال[1]: «لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فاذا قرأه بتفكر حتى مر بآية هو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها، ولو مئة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٥٣٥ - أبو زيد).

بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، و أدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن».

⦿⦿⦿⦿⦿

شرط الانتفاع بالقرآن

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

قال ابن القيم[1]: «قاعدة جليلة: إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾. وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفًا على مؤثر مقتضٍ، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد.

فقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾، أشار إلى ما تقدم من أول السورة إلى هاهنا، وهذا هو المؤثر وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾، فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۞ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس:٦٩-٧٠]؛ أي: حي القلب. وقوله ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾؛ أي: وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام. وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾؛ أي شاهد القلب حاضر غير غائب.

---

(١) «الفوائد» (ص ٩-١٢).

قال ابن قتيبة: استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساه.

وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال ل والنظر فيه وتأمله.

فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووُجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر.

فإن قيل: إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه، فما وجه دخول أداة «أو» في قوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾، والموضع موضع «واو الجمع» لا موضع «أو» التي هي لأحد الشيئين؟!

قيل: هذا سؤال جيد، والجواب عنه أن يقال: خرج الكلام بـ«أو» باعتبار حال المخاطب المدعو، فإن من الناس من يكون حي القلب واعيه تام الفطرة، فإذا فكر بقلبه وجال بفكره دله قلبه وعقله على صحة القرآن وأنه الحق، وشهد قلبه بما أخبر به القرآن، فكان ورود القرآن على قلبه نورًا على نور الفطرة، وهذا وصف الذين قيل فيهم: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ [سبأ:٦].

وقال في حقهم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور:٣٥].

فهذا نور الفطرة على نور الوحي، وهذا حال صاحب القلب الحي الواعي».

قال: «وقد ذكرنا ما تضمنت هذه الآية من الأسرار والعبر في كتاب «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية»».

فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن فيجدها كأنها قد كتبت فيه، فهو يقرؤها عن ظهر قلب.

ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد واعي القلب كامل الحياة، فيحتاج إلى شاهد يميز له بين الحق والباطل، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحي الواعي، فطريق حصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام وقلبه لتأمله والتفكير فيه وتعقل معانيه، فيعلم حينئذ أنه الحق.

فالأول حال من رأى بعينه ما دُعي إليه وأُخبر به، والثاني حال من علم صدق المخبِر وتيقنه، وقال: يكفيني خبره، فهو في مقام الإيمان، والأول في مقام الإحسان، هذا قد وصل إلى علم اليقين وترقى قلبه منه إلى منزلة عين اليقين، وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر ودخل به في الإسلام.

فعين اليقين نوعان: نوع في الدنيا، ونوع في الآخرة، فالحاصل في الدنيا نسبته إلى القلب كنسبة الشاهد إلى العين، وما أخبرت به الرسل من الغيب يعاين في الآخرة بالأبصار، وفي الدنيا بالبصائر، فهو عين يقين في المرتبتين».

وقال[(١)]: «والناس ثلاثة: رجل قلبه ميت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه.

الثاني: رجل له قلب حي مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب، ليس حاضرًا، فهذا أيضًا لا تحصل له الذكرى مع استعداده ووجود قلبه.

الثالث: رجل حي القلب مستعد، تليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه،

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٤٤٢-٤٤٤).

وألقى السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، ملق السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حدق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره، وقابله على توسط من البعد والقرب، فهذا هو الذي يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور.

فإن قيل: فما موقع «أو» من هذا النظم على ما قررت؟

قيل: فيها سر لطيف، ولسنا نقول: إنها بمعنى الواو، كما يقوله ظاهرية النحاة، فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وقاد مليء باستخراج العبر واستنباط الحكم، فهذا قلبه يوقعه على التذكر والاعتبار، فإذا سمع الآيات كانت له نورًا على نور، وهؤلاء أكمل خلق الله، وأعظمهم إيمانًا وبصيرة، حتى كأن الذي أخبرهم به الرسول مشاهد لهم، لكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه، حتى قيل: إن مثل حال الصديق مع النبي ﷺ، كمثل رجلين دخلا دارًا، فرأى أحدهما تفاصيل ما فيها وجزئياته، والآخر وقعت يده على ما في الدار ولم ير تفاصيله ولا جزئياته، لكن علم أن فيها أمورًا عظيمة، لم يدرك بصره تفاصيلها، ثم خرجا، فسأله عما رأى في الدار؟ فجعل كلما أخبره بشيء صدقه، لما عنده من شواهده، وهذه أعلى درجات الصديقية، ولا تستبعد أن يمن الله المنان على عبد بمثل هذا الإيمان، فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر ولا حسبان.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نور من البصيرة ازداد بها

نورًا إلى نوره، فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمع وشهد قلبه ولم يغب حصل له التذكر أيضًا، ﴿فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞ﴾ [البقرة:٢٦٥].

والوابل والطل في جميع الأعمال وآثارها وموجباتها، وأهل الجنة سابقون مقربون، وأصحاب يمين، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما، حتى إن شراب أحد النوعين الصِّرف يطيَّب به شراب النوع الآخر ويمزج به مزجًا، قال الله تعالى ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦]. فكل مؤمن يرى هذا، ولكن رؤية أهل العلم له لون، ورؤية غيرهم له لون آخر».

⦿⦿⦿⦿⦿

أنواع هجر القرآن

قال ابن القيم[1]: «هجر القرآن أنواع: أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصِّل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به.

وكل هذا داخل في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ

(١) «الفوائد» (ص ١٠٧-١٠٨).

مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣٠]. وإن كان بعض الهجر أهون من بعض.

وكذلك الحرج الذي في الصدور منه، فإنه تارة يكون حرجًا من إنزاله وكونه حقًّا من عند الله، وتارة يكون من جهة المتكلِّم به، أو كونه مخلوقًا من بعض مخلوقاته ألهم غيره أن تكلم به، وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها، وأنه لا يكفي العباد، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأقيسة أو الآراء أو السياسات، وتارة يكون من جهة دلالته، وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة، وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مرادة فهي ثابتة في نفس الأمر؟! أو أوهم أنها مرادة لضرب المصلحة؟!

فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدونه في صدورهم، ولا تجد مبتدعًا في دينه قط إلا وفي قلب حرج من الآيات التي تخالف بدعته، كما أنك لا تجد ظالمًا فاجرًا إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتدبر هذا المعنى ثم ارضَ لنفسك بما تشاء».

⦿⦿⦿⦿⦿

الأسماء الحسنى
غير منحصرة في تسعة وتسعين اسمًا

قال شيخ الإسلام[1]: «الصواب الذي عليه جمهور العلماء أن قول النبي ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»[2]، معناه: أن من أحصى التسعة والتسعين من أسمائه دخل الجنة، ليس مراده أنه ليس له إلا

(١) «درء التعارض» (٣٣٢/٣).

(٢) متفق عليه بنحوه.

تسعة وتسعون أسمًا، فإنه في الحديث الآخر الذي رواه أحمد وأبو حاتم في «صحيحه»: «أَسْأَلكَ بِكُلِّ اسْم هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، أوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْب عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ غَمِّي وهَمِّي»(١).

وثبت في «الصحيح»(٢)، أن النبي ﷺ كان يقول في سجوده: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ».

فأخبر أنه ﷺ لا يحصي ثناء عليه، ولو أحصى جميع أسمائه لأحصى صفاته كلها فكان يحصي الثناء عليه، لأن صفاته إنما يعبَّر عنها بأسمائه».

⦿⦿⦿⦿⦿

الدعاء بالأسماء الحسنى

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠].

قال ابن سعدي(٣): «قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إلى آخر الآية، أصل التوحيد إثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله من الأسماء الحسنى، ومعرفة ما احتوت عليه من المعاني الجليلة، والمعارف الجميلة، والتعبد لله بها ودعاؤه بها.

فكل مطلب يطلبه العبد من ربه من أمور دينه ودنياه فليتوسل إليه باسم

---

(١) بعض حديث، أخرجه أحمد (٣٧٠٤ و٤٣٠٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٣٧٢ - موارد)، والحاكم (٥٠٩/١)، وغيرهم. وهو في «الصحيحة» (رقم ١٩٩).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦) وغيره.

(٣) «القول السديد» (ص ١٥٧-١٥٩).

مناسب له من أسماء الله الحسنى، فمن دعاه لحصول رزق فليسأله باسمه الرزاق، ولحصول رحمة ومغفرة فباسمه الرحيم الرحمن البر الكريم العفو الغفور التواب، ونحو ذلك.

وأفضل من ذلك أن يدعوه بأسمائه وصفاته دعاء العبادة، وذلك باستحضار معاني الأسماء الحسنى وتحصيلها في القلوب حتى تتأثر القلوب بآثارها ومقتضياتها، وتمتلئ بأجل المعارف.

فمثلًا أسماء العظمة والكبرياء والمجد والجلال والهيبة تملأ القلوب تعظيمًا لله وإجلالًا له.

وأسماء الجمال والبر والإحسان والرحمة والجود تملأ القلب محبة لله وشوقًا له وحمدًا له وشكرًا.

وأسماء العز والحكمة والعلم والقدرة تملأ القلب خضوعًا لله وخشوعًا وانكسارًا بين يديه.

وأسماء العلم والخبرة والإحاطة والمراقبة والمشاهدة تملأ القلب مراقبة لله في الحركات والسكنات، وحراسة للخواطر عن الأفكار الردية والإرادات الفاسدة.

وأسماء الغنى واللطف تملأ القلب افتقارًا واضطرارًا إليه، والتفاتًا إليه كل وقت في كل حال.

فهذه المعارف التي تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسمائه وصفاته، وتعبده بها لله لا يحصِّل العبد في الدنيا أجل ولا أفضل ولا أكمل منها، وهي أفضل العطايا من الله لعبده، وهي رُوح التوحيد ورَوحه.

ومن انفتح له هذا الباب انفتح له باب التوحيد الخالص، والإيمان الكامل، الذي لا يحصل إلا للكُمَّل من الموحدين».

وقال[1]: «ينبغي للمؤمن الناصح لنفسه أن يبذل ما استطاع من مقدوره في معرفة أسماء الله وصفاته وتقديسه، ويجعل هذه المسألة أهم المسائل عنده، وأولاها بالإيثار، وأحقها بالتحقيق؛ ليفوز من الخير بأوفر نصيب».

قال: «وطريق ذلك: أن يجمع العبد الأسماء الحسنى الواردة في القرآن، وهي قريب من ثمانين اسمًا، وفي السنة زيادة على ذلك، فيتدبرها، ويعطي كل اسم منها عموم ذلك المعنى وكماله وأكمله»[2].

وقال ابن القيم[3]: «وأكمل الناس عبودية المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يَطَّلع عليها البشر، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه القدير عن التعبد باسمه الحليم الرحيم، أو يحجبه عبودية اسمه المعطي عن عبودية اسمه المانع، أو عبودية اسمه الرحيم والعفو والغفور عن اسمه المنتقم[4]، أو التعبد بأسماء التودد والبر واللطف والإحسان عن أسماء العدل والجبروت والعظمة والكبرياء، ونحو ذلك.

وهذه طريقة الكُمَّل من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن، قال الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التعبد، وهو سبحانه

---

(١) «المواهب الربانية» (ص ٦٢).

(٢) ولكلامه بقية، ينبغي أن تنظر، وهو فريد في بابه، عزيز في فوائده.

وقد من الله تعالى علي بجمع الأسماء الحسنى، وأودعتها في كتابي المسمى «الطريقة المثلى في إحصاء أسماء الله الحسنى»، فمن أحب فليطلع عليها.

ولي كتاب آخر في الباب جمعت فيه شرح الأسماء لعلامة القصيم ابن سعدي رحمه الله، فليسعد به من أراد أن يمتثل ما نصح به الإمام، فقد تُلَّتْ في يده الأسماء ومعانيها، ولله النعمة والفضل والثناء الحسن.

(٣) «مدارج السالكين» (٤٢٠/١).

(٤) المنع والانتقام صفات ثابتة لله عز وجل، وأما كون المانع والمنتقم أسماء له سبحانه فهذا يفتقر إلى دليل.

يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها».

⊙⊙⊙⊙⊙

أحق ما قال العبد

اعلم أن من أجمع ما يقال بعد الرفع من الركوع[1]:

«اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِلْءَ السَّمَاوَاتِ، وَمِلْءَ الْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»[2].

وقوله ﷺ: (أحق ما قال العبد)، قال شيخ الإسلام[3]: «أي: تحميدك، والثناء عليك، وتمجيدك، أحق ما قال العبد».

وقال[4]: «قوله: (أحق ما قال العبد): خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هذا الكلام أحق ما قال العبد، فتبين أن حمد الله والثناء عليه أحق ما قاله العبد، وفي ضمنه توحيده له إذا قال: (ولك الحمد)؛ أي: لك لا لغيرك[5].

وقال في آخره: (لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت)، وهذا يقتضي انفراده بالعطاء والمنع، فلا يستعان إلا به، ولا يطلب إلا منه.

ثم قال: (ولا ينفع ذا الجد منك الجد)، فبين أن الإنسان وإن أُعْطِي المُلك

---

(١) وانظر «صفة الصلاة» للألباني (ص ١٣٧).

(٢) أخرجه مسلم وغيره، انظر «صحيحه» (٤٧٧ و٤٧٨ و٧٧١).

(٣) «قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام...» (ص ١٢٧).

(٤) انظر «مجموع الفتاوى» (٦/٢٦٥).

(٥) يقصد أن تقديم «لك» على «الحمد» يفيد الاختصاص.

والغنى والرئاسة فهذا لا ينجيه منك، إنما ينجيه الإيمان والتقوى، وهذا تحقيق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

وقوله: (أحق ما قال العبد) يقتضي أن يكون حمد الله أحق الأقوال بأن يقوله العبد، وما كان أحق الأقوال كان أفضلها وأوجبها على الإنسان».

وأفاد ـ لله دره ـ قائلًا[1]: «فذَكَر الحمد والثناء والمجد هنا كما ذَكَره في أول الفاتحة[2]، فالحمد يتناول جنس المحامد، والثناء يقتضي تكريرها وتعديدها والزيادة في عددها، والمجد تعظيمها وتوسيعها والزيادة في قدرها وصفتها، فهو سبحانه مستحق للحمد والثناء والمجد».

⦿⦿⦿⦿⦿

كلمات الله تعالى نوعان

قال شيخ الإسلام[3]: «كلمات الله تعالى نوعان: كلمات كونية، وكلمات دينية. فكلماته الكونية: هي التي استعاذ بها النبي ﷺ في قوله: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ، الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ»[4]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]. وقال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام:١١٥]. والكون كله داخل تحت هذه الكلمات، وسائر الخوارق الكشفية التأثيرية.

---

(١) «درء التعارض» (١٧/٤).

(٢) كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: [ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: [ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: [مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ]، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي». الحديث. أخرجه مسلم (٣٩٥).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣٢٢/١١).

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٤١٥). وهو في «الصحيحة» (٢٧٣٨).

والنوع الثاني: الكلمات الدينية، وهي القرآن وشرع الله الذي بعث به رسوله، وهي أمره ونهيه وخبره، وحظ العبد منها العلم بها والعمل، والأمر بما أمر الله به».

⦿⦿⦿⦿⦿

لا حول ولا قوة إلا بالله كلمة استعانة لا كلمة استرجاع

قال شيخ الإسلام[(١)]: «هذه الكلمة كلمة استعانة، لا كلمة استرجاع، وكثير من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع، ويقولها جزعًا لا صبرًا».

وقال ابن الأثير[(٢)]: «المَعْنِيّ بهذا اللفظ: إظهار الفاقة إلى الله تعالى، بطلب المعونة على ما يزاوله من الأمور».

⦿⦿⦿⦿⦿

حياة القلب موجبة للتذكر والانتفاع دون تكلف

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

و«أو» هنا في هذه الآية على ظاهرها، وليست بمعنى الواو، كما قاله بعضهم.

والأصل حمل كلام الله عز وجل على ظاهره، ولا يُصار إلى غير ذلك إلا بدليل صحيح أو موجب لازم.

إذًا فأهل الذكرى صنفان:

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦٨٦/١٠).

(٢) «جامع الأصول» (٣٩٨/٤).

الأول مَن كان له قلب؛ أي: قلب حي، قد استنار بالعلم والإيمان، فهذا مجرد أن يسمع الوعظ ينتفع به دون تكلف، فيكون له نورًا على نور.

الثاني: من كان له قلب ضعيف وليس بذاك، وهذا إذا ألقى سمعه وأشهد قلبه انتفع ـ ولا بد ـ، كما ذكر ربنا سبحانه وتعالى، كيف لا وقد انتفع كثير من أهل الكفر فأسلموا ودخلوا في دين الله تعالى، وصار كثير منهم من خيرة خلق الله عز وجل، فإذًا لا بد لهذا من تكلف الاستماع وإلزام القلب بالحضور، وهو أول الطريق للانتفاع بما يُلقى إليه.

فإذا رأيت من نفسك عدم انتفاع بالموعظة ونقص تذكر بما تسمع فاعلم أنك إنما أُتيت من تَيْنِ الجهتين.

وقد تكلم على هذه الآية الإمام ابن القيم في مواضع من كتبه، منها أول كتاب «الفوائد»[1]، وإنما هنا زدنا الفائدة نوعًا من الإيضاح، وبالله التوفيق.

⦿⦿⦿⦿⦿

المعاصي بريد الكفر والتكذيب وحجاب القلب عن معرفة الله في الدنيا سبب للحجاب عنه تعالى في الآخرة

قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ * كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٠-١٧].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾، نفي وزجر وردع لكل معتد أثيم قائل بأن آيات الله تعالى أساطير الأولين، وما حمله على قوله هذا إلا معاصيه التي أكثر منها وأوضع

(١) انظر ما تقدم (صفحة ١٤٤ وما بعدها).

فيها، حتى علت قلبه فاسود وأصبح لا يرى الحقيقة الواضحة التي لا شيء أحق منها ولا أوضح، وهي أن اليوم الآخر حقٌّ لا مِرية فيه، وأن آيات الله عز وجل ليس شيء أحقَّ منها ولا أوضح ولا أبيَن.

فالمعصية على المعصية والذنب على الذنب سبب لتراكم الران على القلب، حتى يؤدي ذلك إلى الطبع وإحاطة الخطيئة به، فيكون مصيره العذاب والحجاب، والعياذ بالله تعالى!

فلما حُجِب القلب عن الحقائق بسبب ما علاه من الران عوقب صاحبه بأن حُجِب عن رؤية الله تعالى في الآخرة، جزاء وفاقًا، فإنه كان محجوبًا عن معرفته والإيمان به، فكيف إذًا يراه في الآخرة؟!

وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ[١] قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا، حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»[٢].

وقد حذر النبي ﷺ من صغائر الذنوب أشد تحذير، وبين عاقبتها أوضح بيان، ومثل لإهلاكها صاحبها أصدق مثال، فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ مَثَلَ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بِبَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ وَذَا بِعُودٍ، حَتَّى جَمَعُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ»[٣].

---

(١) سُقل لغة في صُقل؛ أي: جُلِي ولُمِّع وهُذِّب وأُزيل صدؤه، كما يصقل الإناء والسيف، فيصير أملس مصقولًا.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه الطبراني في «معاجمه» الثلاثة (٩٠٤ و٧٣٢٣ و٥٨٧٢) وغيره. وهو في «الصحيحة» (٣٨٩).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ:

«يَا عَائِشَةُ إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا»(١).

هذا، ومن أخوف عقوبات المعاصي على العبد ـ كما قال ابن القيم(٢) ـ: «أنها تُضعِف القلبَ عن إرادته، فتقوى إرادة المعصية وتضعف إرادة التوبة شيئًا فشيئًا، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية، فلو مات نصفه لما تاب إلى الله، فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشيء كثير، وقلبه معقود بالمعصية، مُصِرّ عليها، عازم على مواقعتها متى أمكنَتْه، وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك».

قال: «ومنها: أن الذنوب إذا تكاثرت طُبِع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين، كما قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، قال: هو الذنب بعد الذنب.

وقال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب.

وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم.

وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية، فإن زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا، ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقفلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإن حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد».

وذكر رحمه الله أن المعاصي تُخرج العبد من دائرة الإحسان، ثم بين كيف أنها تخرجه بعد ذلك من دائرة الإيمان، ثم قال: «فإن استمر على الذنوب وأصر عليها خِيف عليه أن يَرين على قلبه، فيخرجه عن الإسلام بالكلية، ومن هنا اشتد خوف السلف».

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٣) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) «الداء والدواء» (ص ١٤١ - طبعة بكر أبو زيد).

فصل

قال ابن رجب رحمه الله[1] في قول الله عز وجل: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۞ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [المطففين:١٤-١٧]: «فذكر الله تعالى ثلاثة أنواع من العذاب: حجابهم عنه، ثم صليهم الجحيم، ثم توبيخهم بتكذيبهم به في الدنيا، ووصفهم بالران على قلوبهم، وهو صدأ الذنوب الذي سود قلوبهم، فلم يصل إليها بعد ذلك في الدنيا شيء من معرفة الله ولا من إجلاله ومهابته وخشيته ومحبته، فكما حجبت قلوبهم في الدنيا عن الله حجبوا في الآخرة عن رؤيته، وهذا بخلاف حال أهل الجنة».

قال: «وأعظم عذاب أهل النار حجابهم عن الله عز وجل، وإبعادهم عنه، وإعراضه عنهم، وسخطه عليهم، كما أن رضوان الله على أهل الجنة أفضل من كل نعيم الجنة، وتجليه لهم ورؤيتهم إياه أعظم من جميع أنواع نعيم الجنة».

فصل

وأما رؤية المؤمنين ربهم تبارك وتعالى في الآخرة فقد ذكر بعد ذلك في نفس السورة، وذلك قوله تبارك اسمه: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ۞ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [المطففين:٢٢-٢٤].

فقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ ﴾؛ يعني: إلى ما هم فيه من النعيم، وأجله وأعلاه رؤية وجه الرب الكريم.

وقد جاء هذا واضحًا مفسرًا في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

---

(١) «التخويف من النار» (ص ٥٣).

فليس في الواضحات أوضح من هذه الآية في إثبات رؤية أهل الجنة ربهم تبارك وتعالى.

هذا، وقد دلّ قوله سبحانه في حق أهل الجحيم: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، بمفهومه، على أن أهل الجنة يرون ربهم، وإلا لما كان لذكر حجاب أهل الجحيم عن ربهم فائدة! إذا كان أهل الجنة محجوبين عن ربهم مثلهم، وبالله التوفيق.

⊙⊙⊙⊙⊙

مراتب سوء الخاتمة وخطرها

قال الغزالي[١]: «اعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين:

إحداهما أعظم من الأخرى، فأما الرتبة العظيمة الهائلة: فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك وإما الجحود، فتُقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك، فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجابًا بينه وبين الله تعالى أبدًا، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد.

والثانية وهي دونها: أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه، حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره، فيتفق قبض روحه في تلك الحال، فيكون استغراق قلبه به منكِّسًا رأسه إلى الدنيا وصارفًا وجهه إليها.

ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب، ومهما حصل الحجاب نزل العذاب، إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه».

وقال ابن القيم[٢]: «وإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال

---

(١) «الإحياء» (٤/١٧٣-١٧٤).

(٢) «الداء والدواء» (ص ٢١٨-٢١٩).

إدراكه قد تمكن منه الشيطان، واستعمله فيما يريده من معاصي الله، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى، وعطل لسانه عن ذكره، وجوارحه عن طاعته، فكيف الظن به عند سقوط قواه، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع؟! وجمع الشيطان له كل قوته وهمته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته، فإن ذلك آخر العمل، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحال! فمن ترى يسلم على ذلك؟

فهناك ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره، واتبع هواه وكان أمره فرطا؟! فبعيد من قلب بعيد من الله تعالى، غافل عنه، متعبد لهواه، أسير لشهواته، ولسانه يابس من ذكره، وجوارحه معطلة من طاعته، مشتغلة بمعصيته، أن يوفق للخاتمة بالحسنى».

⊙⊙⊙⊙⊙

المبيت على طهارة سبب لاستغفار الملائكة

عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال:

«طَهِّرُوا هَذِهِ الْأَجْسَادَ طَهَّرَكُمُ اللهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ يَبِيتُ طَاهِرًا إِلَّا بَاتَ مَعَهُ مَلَكٌ فِي شِعَارِهِ، لَا يَنْقَلِبُ سَاعَةً مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِكَ [فُلَانٍ]، فَإِنَّهُ بَاتَ طَاهِرًا»(١).

وقوله ﷺ: (من بات طاهرًا)؛ المقصود: من الحدث الأكبر والحدث الأصغر،

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣٦٢٠ و١٣٦٢١)، واللفظ له، وابن حبان (١٦٧ - موارد)، والزيادة له، وغيرهما، وهو في «صحيح الترغيب» (٥٩٦ و ٥٩٨ - ط١).

وأيضًا طاهر الجسد وما يليه من النجاسة، وإلا كيف يبيت الملك في شعاره؟!

وينبغي لمن أراد العمل بهذه الخصلة من المبيت على طهارة أن لا يغفل عن تطهير نفسه من الذنوب والمعاصي، وذلك بالتوبة إلى الله تعالى منها، وهو ما نبه عليه النبي ﷺ في جمعه بين الطهارتين في الدعاء بعد إسباغ الطهارة، وذلك فيما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ المُتَطَهِّرِينَ، فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»(١).

⦿⦿⦿⦿⦿

بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين

قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤].

فما نال الإمامة في الدين إلا من صبر على طاعة الله، وصبر عن معصيته، وصبر على أقداره، وصبر على الدعوة إليه عز وجل، وكان من أهل اليقين به وبشرعه، واستقر الإيمان في قلبه ورسخ، وانصبغ بذلك.

فمقام الإمامة في الدين، وهداية الناس إلى رب العالمين، لا يصلح له إلا من اتصف بذلك، فإنه ما تأهل لهداية الخلق إلا من أيقن حق اليقين بما يدعو إليه، وإلا من صبر في طريق ذلك، فهما صفتان للإمامة أهّلاه، وخصلتان في هذا المنصب وضعاه، وهو أحوج الناس إليهما.

⦿⦿⦿⦿⦿

(١) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي (٥٥)، وصححه الألباني، وهو في «صحيح مسلم» (٢٤٣) بسياقة أخرى، دون الشاهد.

من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه

تكررت هذه القاعدة في كلام العلماء، ونسبها بعضهم إلى النبي ﷺ، ولم أجدها بهذا اللفظ من كلامه ﷺ، لكن جاء عنه ﷺ ما يفيد معناها ويؤكد محتواها، فعن أبي قتادة وأبي الدَّهماء قالا: أَتينا على رجل من أهل البادية، فقلنا: هل سمعت من رسول الله ﷺ شيئا؟ قال: نعم، سمعته يقول:

«إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا بَدَّلَكَ اللَّهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ»[١].

⊙⊙⊙⊙⊙

المشقة في ترك المألوفات والعوائد

قال ابن القيم[٢]: «فائدة جليلة: إنما يجد المشقة في ترك المألوفات والعوائد من تركها لغير الله، فأما من تركها صادقًا مخلصًا من قلبه لله فإنه لا يجد في تركها مشقة، إلا في أول وهلة، ليُمتحن أصادق هو في تركها أم كاذب؟! فإن صبر على تلك المشقة قليلًا استحالت لذة.

قال ابن سيرين: سمعت شريحًا يحلف بالله، ما ترك عبد لله شيئًا فوجد فقده.

وقولهم: «من ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا منه»[٣] حق، والعِوض أنواع مختلفة، وأجل ما يعوَّض به الأنس بالله ومحبته، وطُمَأنينة القلب به، وقوته ونشاطه وفرحه، ورضاه عن ربه تعالى».

⊙⊙⊙⊙⊙

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٣٦٣، وفي مواضع أُخَر) وغيره، وصححه الألباني في «السلسلة الضعيفة» تحت الحديث (رقم ٥).

(٢) «الفوائد» (ص ١٤١).

(٣) تقدم هذا المعنى في الحديث السابق.

كيف يجتمع التصديق الجازم ويتخلف العمل؟!

قال ابن القيم[1]: «فإن قلت: كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل؟ وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غدًا إلى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة، أو يكرمه أتم كرامة، ويبيت ساهيًا غافلًا لا يتذكر موقفه بين يدي الملك، ولا يستعد له، ولا يأخذ له أُهبته؟!

قيل: هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر الخلق، فاجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء، وهذا التخلف له عدة أسباب:

أحدها: ضعف العلم، ونقصان اليقين، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت، فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها.

وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتى عِيانًا بعد علمه بقدرة الرب على ذلك، ليزداد طُمَأنينة، ويصير المعلوم غيبًا شهادة.

وقد روى أحمد في «مسنده»[2]، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ».

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره، أو غَيبته عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرها، لاشتغاله بما يضاده، وانضم إلى ذلك تقاضي الطبع، وغَلَبات الهوى، واستيلاء الشهوة، وتسويل النفس، وغرور الشيطان، واستبطاء الوعد، وطول الأمل، ورقدة الغفلة، وحب العاجلة، ورُخَص التأويل، وإلف العوائد، فهناك لا يمسك الإيمان إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا.

وبهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال، حتى ينتهي إلى أدنى

---

(١) «الجواب الكافي» (ص ٤٠-٤١).

(٢) (١٨٤٢ و٢٤٤٧)، ومن طريقه ابن حبان (٦١٨٠/٥١/٩ - التعليقات الحسان)، وصححه الألباني. وأحد لفظي أحمد هو: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا أَلْقَى الْأَلْوَاحَ، فَانْكَسَرَتْ».

مثقال ذرة في القلب.

وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر، ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين، وجعلهم أئمة في الدين، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]».

⊙⊙⊙⊙⊙

ما بال الإنسان يقع في الذنب مع علمه بقبح عواقبه؟!

قال المقدسي[١]: «فإن قيل: ما بال الإنسان يقع في الذنب مع علمه بقبح عواقبه؟!

فعن ذلك أجوبة:

منها: أن العقاب الموعود ليس بحاضر.

ومنها: أن المؤمن إذا أذنب لابد أن يعزم على التوبة، وقد وُعِد أن التوبة تجبر ما فعل، وطول الأمل غالب على الطباع، فلا يزال يسوف بالتوبة، فلما رجا التوبة أقبل على الذنب.

ومنها: أنه يرجو عفو الله عنه.

وعلاج هذه الأسباب: أن يفكر في نفسه أن كل ما هو آتٍ قريب، والمُسَوِّف يبني الأمر على ما ليس إليه، وهو البقاء، فلعله لا يبقى، وإن بقي فربما لم يقدر على الترك غدًا كما يقدر عليه اليوم، وهل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة، وهي غير مفارقة له غدًا؟! بل تتأكد بالاعتياد، ومن هذا هلك المُسَوِّفون، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين، وما مثال المُسَوِّف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة، فرآها قوية لا تنقطع إلا بمشقة شديدة، فقال: أُؤَخرها سنة ثم أعود إليها، وهو لا يعلم أن الشجرة

(١) انظر «مختصر منهاج القاصدين» (ص ٢٦٦-٢٦٧).

كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فالعجب من عجزه مع قوته عن مقاومتها في حال ضعفها، كيف ينتظر الغلبة إذا ضَعُفَ وقَوِيَتْ؟!

وأما انتظار عفو الله تعالى، فعفو الله سبحانه ممكن، إلا أن الإنسان ينبغي له الأخذ بالحزم، وما مثال ذلك إلا كمثل رجل أنفق أمواله كلها، وترك نفسه وعياله فقراء ينتظر من الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في خربة، وهذا ممكن إلا أن صاحبه ملقب بالأحمق».

⊙⊙⊙⊙⊙

سبب جحد الحق مع العلم به

قال الله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال:٦].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ * وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الأنعام:٢٥-٢٦].

وقال سبحانه: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ [الرعد:١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا﴾ [الإسراء:٤١].

فانظر إلى جدالهم وعنادهم وجحدهم وكفرهم! ليوقفك هذا كله على شأن تزكية النفس وأهمية علاجها من أمراضها، التي هي سبب ضلالها وكفرها ومعصيتها وهلاكها، كما قال ربنا جل وعلا: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [النمل:١٤].

واعلم أن أعظم أسباب العناد والمجادلة في الحق ورفض التواضع له هو الكبر، كما قال الله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ [غافر:٥٦].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: إن الذين يخاصمونك يا محمد فيما أتيتهم به من عند ربك من الآيات، ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾، يقول: بغير حجة جاءتهم من عند الله بمخاصمتك فيها، ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾، يقول: ما في صدورهم إلا كبر يتكبرون من أجله عن اتباعك، وقبول الحق الذي أتيتهم به، حسدًا منهم على الفضل الذي آتاك الله، والكرامة التي أكرمك بها من النبوّة، ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾، يقول: الذي حسدوك عليه أمر ليسوا بمدركيه ولا نائليه، لأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وليس بالأمر الذي يدرك بالأماني.

وقد قيل: إن معناه: إن في صدورهم إلا عظمة ما هم ببالغي تلك العظمة لأن الله مُذِلُّهم». اهـ.

قلت: وهذا القول الثاني هو الصواب إن شاء الله، لأن الأَولى بالضمير أن يرجع إلى المنطوق المصرح به لا إلى المفهوم! ناهيك من أن المنطوق هو أقرب مذكور.

وقال سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ * ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [الحج:٨-١٠].

قوله تعالى: ﴿ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ ﴾؛ أي: لاوي جانبه وعنقه استكبارًا وإعراضًا.

قال شيخ الإسلام[١]: «فإن الإنسان قد يعرف أن الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده إياه، أو لطلب علوه عليه، أو لهوى النفس، ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدي عليه، ويرد ما يقول بكل طريق، وهو في قلبه يعلم أن الحق معه، وعامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم، وأنهم صادقون، لكن إما لحسدهم، وإما لإرادتهم

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩١/٧).

العلو والرياسة، وإما لحبهم دينهم الذي كانوا عليه، وما يحصل لهم به من الأغراض، كأموال ورياسة وصداقة أقوام وغير ذلك، فيرَوْن في اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة إليهم، أو حصول أمور مكروهة إليهم، فيكذبونهم ويعادونهم، فيكونون من أكفر الناس، كإبليس وفرعون، مع علمهم بأنهم على الباطل والرسل على الحق».

⊙⊙⊙⊙⊙

نقض ما يتكل عليه المغترون

اعلم أن من الناس من يتكل في ارتكابه المعاصي على قول: «لا إله إلا الله»، ظنًّا منه أن من قالها لا يعذَّب ولا تضره معصيه، وهذا من أعظم الغرور، وأعجب الجهل بهذه الكلمة العظيمة، فإن «لا إله إلا الله» تقتضي فعل الأوامر وترك النواهي، وبقدر صدق العبد وإخلاصه في قولها، تنبعث جوارحه إلى طاعة الله تعالى، وتنصرف عن معصيته.

وبحسب ذلك تنصرف عن العبد عقوبات الدنيا والآخرة، فلا يَظننّ غارق في الجهل أن العذاب خاص بالكفار، بل إن كثيرًا من أهل الإسلام يعذبون في النار، بحسب تهاونهم في العمل بمقتضى «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وإن كان آخر مآلهم إلى الجنة، وإن كثيرًا منهم أيضًا يعذبون في قبورهم، كما جاءت به دلائل الكتاب والسنة.

ومن الناس من يغتر باعتقاده أنه يحسن الظن بالله عز وجل، وأنه لن يعذبه، وسيتجاوز عنه، وهو مقيم على معاصيه!! وهو سبحانه وتعالى أهل للظن الحسن، وهذا لعمر الله تعالى حق، ولكن محسن الظن ـ زعم ـ المقيم على المعصية واهم مغرور، فإن قائل هذا لو أحسن الظن بالله عز وجل لأحسن عمله، بل إن هذا منه إساءة ظن بالله تعالى، فإنه سبحانه قد توعد على عصيانه بالعقاب، وهذا يقول: لا يعذبني! ويعتبر ذلك إحسان ظن بالله تعالى!! ولو أقلع عن المعصية وتاب وأناب، ثم أحسن الظن بالله تعالى أنه سيغفر له ويتجاوز عنه لأحسن وأصاب.

قال ابن القيم[1]: «وكيف يكون محسنَ الظن بربه من هو شارد عنه، حالّ مرتحل في مساخطه وما يغضبه، متعرض للعنته، قد هان حقّه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه، وأصرَّ عليه!».

وقال[2]: «حسن الظن إن حمل على العمل وحثَّ عليه وساق إليه فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور.

وحسن الظن هو الرجاء، فمن كان رجاؤه حاديًا له على الطاعة، زاجرًا له عن المعصية، فهو رجاء صحيح، ومن كانت بطالته رجاءً، ورجاؤه بطالةً وتفريطًا، فهو المغرور.

ولو أن رجلًا له أرض يؤمِّل أن يعود عليه من مُغَلِّها ما ينفعه فأهملها، ولم يبذُرها، ولم يحرثها، وأحسن ظنه بأنه يأتي من مُغَلِّها ما يأتي مَن حَرَث وبَذَر وسقَى وتعاهد الأرض لعَدَّه الناس من أسفه السفهاء.

وكذلك لو حسّن ظنَّه وقوّى رجاءَه بأن يجيئه ولد من غير جماع، أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب للعلم وحِرص تامٍّ عليه، وأمثال ذلك.

فكذلك من حسّن ظنه وقوّى رجاءه في الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيم، من غير طاعة ولا تقرب إلى الله تعالى، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. وبالله التوفيق.

وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢١٨].

فتأمل كيف جعل رجاءهم إتيانَهم بهذه الطاعات!».

فصل

ومن الناس من يغتر باستغفار اللسان وتوبة الكذابين، أو بأذكار يقولها وعد الشرع عليها بالمغفرة أو الجنة، فيظن أنه قد حصَّل الموعود بمجرد أن يقولها

(١) «الداء والدواء» (ص ٤٥ - طبعة بكر أبو زيد).

(٢) «الداء والدواء» (ص ٨٦-٨٧).

بلسانه وهو مقيم على المعاصي، معانق لها، مشغوف بها!

فمن ذلك ـ مثلًا ـ من يتلفظ بسيد الاستغفار، ويقول أنا إذا قلته دخلت الجنة، كما في الحديث.

فيقال لهذا المغرور: هذا الوعد لمن قاله صادقًا من قلبه، بإخلاص وحضور وفهم لمعناه، وهذا صعب عزيز لا يأتي بالهين ولا ينال بالأمنية.

ومن الناس من يغتر في ارتكابه المعاصي بكثرة مطالعة العلم وحفظه ومصاحبة العلماء، ويظن أن ذلك ينجيه! وذلك لشرف العلم وفضله عند الله تعالى.

وهذا من أغرب أنواع الغرور، فإن العلم النافع الذي مدحه الله ورسوله هو العلم المثمر لخشية الله تعالى والعمل بتقواه، أما العلم المجرد الذي لا ثمرة له فلا ينفع بحال حتى يعمل صاحبه به، وغالبًا ما يكون مريدًا به وجه الناس والمنزلة عندهم، لأنه لا يملك من طاعة الله تعالى والأعمال الصالحة النصيب الذي تندفع بنوره آفات النيات والأعمال، من رياء وعُجْب ونحو ذلك.

ومن الناس من يغتر بنعم الله تعالى عليه، فيظن أن الله تعالى ما أنعم عليه إلا لأنه يحبه، وأنه أهل لذلك، مع أنه مقيم على المعصية! مقصر في الطاعة! ولا يدري المسكين أن هذا نوع استدراج من الله تعالى له، كما روى عقبة بن عامر الجُهَنِيِّ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال:

«إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يُحِبُّ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ لَهُ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ». ثم نَزَعَ بهذه الآية: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۞ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٤-٤٥][(١)].

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩١٣)، و«الأوسط» (٩٢٧٢)، وغيرُه. وهو في «الصحيحة» (٤١٣).

وقال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ * كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾ [الفجر:١٥-١٧].

قال ابن القيم[(١)]: «أي: ليس كل من نعَّمتُه ووسعت عليه رزقه أكون قد أكرمته، ولا كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد أهنته، بل أبتلي هذا بالنعمة، وأُكرم هذا بالابتلاء».

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ * وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٣٣-٣٥].

وقال سبحانه: ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون:٥٤-٥٦].

ومن الناس من يُغرُّه في ارتكاب المعاصي عدم رؤيته عقوبة الله تعالى عليها، فيظن أنها قد غفرت أو أنها ليست بشيء، فيستحقرها وينساها ما دام لا يرى آثارها.

وهذا الصنف من المغرورين يشبه الذي قبله، فذاك غرته الدنيا ورزق الله تعالى ونعمه، وهذا غرته نعمة الأمن وتأخير العقوبة، وكلاهما والعياذ بالله مستدرَج خاسر.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩].

---

(١) «الداء والدواء» (ص ٧٨).

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

قال النووي: «معنى (يملي): يمهل ويؤخر ويطيل له في المدة، وهو مشتق من المُلْوَة، وهي المدة والزمان، بضم الميم وكسرها وفتحها. ومعنى (لم يفلته): لم يطلقه ولم ينفلت منه. قال أهل اللغة: يقال: أفلته: أطلقه. وانفلت: تخلص منه».

⊙⊙⊙⊙⊙

التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات

قال شيخ الإسلام[1]: «التوبة المشروعة: هي الرجوع إلى الله وإلى فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، وليست التوبة من فعل السيئات فقط، كما يظن كثير من الجهال، لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد من القبائح، كالفواحش والمظالم، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهي عنها».

⊙⊙⊙⊙⊙

التوبة واجبة على الدوام

قال في «مختصر منهاج القاصدين»[2]: «التوبة واجبة على الدوام، فإن الإنسان لا يخلو عن معصية، لو خلا عن معصية بالجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه، وإن خلا عن ذلك لم يخل عن وسواس الشيطان، بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى، لو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور في

---

(١) «جامع الرسائل» (ص ٢٢٨).

(٢) (ص ٢٥١-٢٥٢).

العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص، ولا يسلم أحد من هذا النقص، وإنما الخلق يتفاوتون في المقادير، وأما أصل ذلك فلا بد منه».

⦿⦿⦿⦿⦿

معنى التوبة النصوح

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم:٨].

قال ابن القيم[(١)]: «(النصوح) على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصدًا للمبالغة، كالشكور والصبور، وأصل مادة (ن ص ح) لخلاص الشيء من الغِش والشوائب الغريبة، وهو ملاقٍ في الاشتقاق الأكبر لنَصَحَ إذا خَلَصَ، فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه، والنصح ضد الغش».

ثم قال رحمه الله[(٢)]: «النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوّم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن

---

(١) «مدارج السالكين» (٣١٠/١).

(٢) «المدارج» (٣١١/١).

يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاءَ حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل.

فالأول يتعلق بما يتوب منه، والثالث يتعلق بمن يتوب إليه، والأوسط يتعلق بذات التائب ونفسه، فنصح التوبة الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه، وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة».

⦿⦿⦿⦿⦿

أجناس ما يتاب منه

قال ابن القيم[1]: «ولا يستحق العبد اسم التائب حتى يتخلص منها، وهي اثنا عشر جنسًا مذكورة في كتاب الله عز وجل، هي أجناس المحرمات: الكفر، والشرك، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والإثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول على الله بلا علم، واتباع غير سبيل المؤمنين.

فهذه الاثنا عشر جنسًا عليها مدار كل ما حرم الله، وإليها انتهاء العالم بأسرهم، إلا أتباع الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، وقد يكون في الرجل أكثرها وأقلها، أو واحدة منها، وقد يعلم ذلك، وقد لا يعلم.

فالتوبة النصوح هي بالتخلص منها، والتحصن والتحرز من مواقعتها، وإنما يمكن التخلص منها لمن عرفها».

قال: «وهذا الفصل من أنفع فصول الكتاب، والعبد أحوج شيء إليه».

قلت: ثم ذكرها كلها، وبين حدودها وحقائقها.

⦿⦿⦿⦿⦿

(١) «مدارج السالكين» (١/٣٣٥).

الفرق بين التوبة والاستغفار

جاء الاستغفار في القران الكريم تارة منفردًا، وتارة مقرونًا بالتوبة، وكذلك التوبة جاءت منفردة.

فالاستغفار المنفرد، مثل قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل:٢٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:١١٠].

والتوبة المنفردة، كقوله تعالى:﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٣١].

وقوله تعالى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٩].

والجمع بين التوبة والاستغفار، مثل قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة:٧٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود:٣].

فالاستغفار إذا جاء منفردًا فإنه يعني: طلب المغفرة ووقاية شر ما مضى من الذنوب، ويتضمن التوبة، وهي الرجوع إلى الله تعالى بفعل أوامره وترك نواهيه.

وكذلك التوبة إذا جاءت منفردة فإنها تتضمن الاستغفار، وهو طلب المغفرة.

وأما إذا قرنت بالاستغفار فيكون معناها: الرجوع إلى الله تعالى ـ كما

ذكرنا ـ ويكون معنى الاستغفار طلب المغفرة، وهذا واضح.

قال ابن القيم[1]: «الاستغفار المفرد كالتوبة، بل هو التوبة بعينها، مع تضمنه طلب المغفرة من الله، وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره».

وقال[2]: «وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله».

وقال ابن سعدي[3]: «والاستغفار: طلب المغفرة من الله، فإن اقترن به توبة فهو الاستغفار الكامل الذي رتبت عليه المغفرة، وإن لم تقترن به التوبة فهو دعاء من العبد لربه أن يغفر له، فقد يجاب دعاؤه وقد لا يجاب، وهو بنفسه عبادة من العبادات، فهو دعاء عبادة ودعاء مسألة».

قال شيخ الإسلام[4]: «ومن المعلوم أن الله قد يغفر الذنوب بالتوبة وقد يغفرها بالحسنات أو بالمصائب وقد يغفرها بمجرد استغفار العبد وسؤاله أن يغفر له فهذه مغفرة من عنده».

وبالمناسبة أخي القارئ، فقد جعلت القسم الثاني من هذا الكتاب في الفروق في باب تزكية النفس، وقد استللتها من كتابي «الفروق عند ابن القيم»، وهي فيه بعنوان: «الفروق في باب الأخلاق والسلوك».

⦿⦿⦿⦿⦿

---

(١) «مدارج السالكين» (٣٠٧/١).

(٢) «مدارج السالكين» (٣٠٨/١).

(٣) «خلاصة تفسير القرآن» (ص ٢٠٢).

(٤) «مختصر الفتاوى المصرية» (ص ١١٥)، وانظر «مجموع الفتاوى» (٣١٩/١٠).

الحذر من مغبة المعاصي

قال ابن الجوزي: «الواجب على العاقل أن يحذر مغبة المعاصي، فإن نارها تحت الرماد، وربما تأخرت العقوبة، ثم فجَأت، وربما جاءت مستعجلة، فليبادر بإطفاء ما أوقد من نيران الذنوب، ولا ماء يطفئ تلك النار إلا ما كان من عين العين».

⦿⦿⦿⦿⦿

معنى قول الله عز وجل

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٧].

قال ابن القيم[١]: «و(الجهالة) هاهنا جهالة العمل[٢]، وإن كان عالمًا بالتحريم.

قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عُصِي اللهُ به فهو جهالة، عمدًا كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل.

وأما التوبة من قريب: فجمهور المفسرين على أنها التوبة قبل المعاينة.

قال عكرمة: قبل الموت. وقال الضحاك: قبل معاينة ملك الموت. وقال السُّدي والكلبي: أن يتوب في صحته قبل مرض موته».

قلت: ويؤيده قول الله تعالى بعده: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ

---

(١) «مدارج السالكين» (١/١٨٤).

(٢) كذا في النسخ المطبوعة التي بين يدي، وأظنها خطأ صوابه: «جهالة العمد»، فليُتأمل!

كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء:١٨].

قال محمد رشيد رضا[١]: «اغتر الناس بظواهر هذه الأقوال، فصاروا يسوفون في التوبة، ويصرون على المعاصي، فترسخ في قلوبهم، وتأنس بها أنفسهم، وتصير ملكات وعادات يتعذر عليهم، أو يتعسر على غير الموفق النادر الإقلاع عنها، حتى يجيئهم الأجل الموعود».

ثم قال: «وجملة القول أن المراد أن الإصرار والتسويف خطر، وإن كانت التوبة تقبل في كل حال اختيار، إذ الغالب أن المرء يموت على ما عاش فليحذر المغرورون».

وقال[٢]: «وذهب جمهور المفسرين إلى تفسير الزمن القريب بما قبل حضور الموت، واحتجوا على ذلك بالآية الثانية التي تنفي قبول توبة الذين يتوبون إذا حضر أحدهم الموت، وليس ذلك بحجة لهم، لأن الظاهر أن هذه الآية بينت الوقت الذي تقبل فيه التوبة من كل مذنب حتمًا، والآية الثانية بينت الوقت الذي لا تقبل فيه توبة مذنب قط، وما بين الوقتين مسكوت عنه، وهو محل الرجاء والخوف، فكلما قرب وقت التوبة من وقت اقتراف الذنب كان الرجاء أقوى، وكلما بعد الوقت بالإصرار، وعدم المبالاة، والتسويف، كان الخوف من عدم القبول هو الأرجح، لأن الإصرار قد ينتهي قبل حضور الموت بالرَّيْن، والخَتْم، وإحاطة الخطيئة».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»[٣].

---

(١) انظر حاشية الفقي على المدارج (٢٨٤/١).

(٢) «تفسير المنار» (٣٦١/٤).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧) وغيره، وحسنه الألباني.

قال ابن القيم[1]: «وأما إذا وقع في السياق فقال: (إني تبت الآن)، لم تقبل توبته، وذلك لأنها توبة اضطرار لا اختيار، فهي كالتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها، ويوم القيامة، وعند معاينة بأس الله».

تنبيه: قال ابن الجوزي[2]: «ينبغي للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه، وإن تاب منها، وبكى عليها، وإني رأيت أكثر الناس قد سكنوا إلى قبول التوبة، وكأنهم قد قطعوا على ذلك! وهذا أمر غائب! ثم لو غفرت بقي الخجل من فعلها».

قال: «فالحذر الحذر من كل ما يوجب خجلًا، وهذا أمر قَلَّ أن ينظر فيه تائب أو زاهد، لأنه يرى أن العفو قد غمر الذنب بالتوبة الصادقة!».

وقال[3]: «أيها المذنب، إذا أحسست نفحات الجزاء فلا تكثرن الضجيج، ولا تقولن: قد تبت وندمت، فهلّا زال عني من الجزاء ما أكره! فلعل توبتك ما تحققت.

وإن للمجازاة زمان يمتد امتداد المرض الطويل، فلا تنجع فيه الحيل حتى ينقضي أوانه، فاصبر أيها الخاطئ حتى يتخلل ماء عينيك خلال ثوب القلب المتنجس، فإذا عَصَرَتْه كفُّ الأسى، ثم تكررت دُفَعُ الغَسْلات حُكِم بالطهارة».

⦿⦿⦿⦿⦿

حكم من يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب. . وهكذا

قال محمد رشيد رضا[4]: «كثير من الناس يقع في الذنب فيتوب ويستغفر، ثم يعرض له مرة أخرى فيعود إليه، ثم يلوم نفسه ويندم ويستغفر، وهَلُمَّ جرًّا، فهؤلاء

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٢٨٥).

(٢) انظر «صيد الخاطر» (ص ٣٨٤-٣٨٥).

(٣) انظر «صيد الخاطر» (ص ١٩٤-١٩٥).

(٤) «تفسير المنار» (٤/٣٦٥).

في أدنى طبقات التوابين، والنفس الباقية أرخص عندهم من النفس الفانية، وهم مع ذلك محل للرجاء، لأن لهم زاجرًا من أنفسهم يذكرهم دائمًا بالرجوع إلى الله تعالى عَقب كل خطيئة، فيوشك أن يقوى هذا الزاجر المذكِّر على الشهوات المزيِّنة للخطيئة، فإن كان تكرار الإثم يزيد الشهوة ضراوة والنفس جرأة فتكرار تذكير العلم الصحيح يُحدث فيها ألمًا يقاوم تلك الضراوة، بتقريع النفس وتحقيرها وتصوير سوء العاقبة لها، فتكون الحرب سِجَالًا، وأثر الآلام في النفس أقوى من أثر اللذات، فإما أن تنتصر الخواطر والزواجر الإلهية بذلك فيلحق صاحب هذه النفس ببعض تلك الطبقات التي صحت توبتها، وإما أن تنكسر أمام جند الشهوة حتى تحيط بصاحبها الخطيئة، فيكون من المصرين الهالكين».

◉◉◉◉◉

التوبة المطلقة والتوبة العامة

قال شيخ الإسلام(١): «الإنسان قد يستحضر ذنوبًا فيتوب منها، وقد يتوب توبة مطلقة لا يستحضر معها ذنوبه، لكن إذا كانت نيته التوبة العامة فهي تتناول كل ما يراه ذنبًا. لأن التوبة العامة تتضمن عزمًا عامًّا على فعل المأمور وترك المحظور، وكذلك تتضمن ندمًا عامًّا على كل محظور.

فمن تاب توبة عامة كانت مقتضية لغفران الذنوب كلها، وإن لم يستحضر أعيان الذنوب، إلا أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه لقوة إرادته إياه، أو لاعتقاده أنه حسن ليس قبيحًا، فما كان لو استحضره لم يتب منه لم يدخل في التوبة، بخلاف ما لو كان لو استحضره لتاب منه، فإنه يدخل في عموم التوبة.

وأما التوبة المطلقة، وهي أن يتوب توبة مجملة، ولا يلتزم التوبة من كل

(١) «مختصر الفتاوى المصرية» (ص ١٣٨-١٣٩) مختصرًا.

ذنب، فهذه لا توجب دخول كل فرد، ولا تمنع دخوله، كاللفظ المطلق، لكن هذه تصلح أن تكون سببًا لغفران معين، كما لا تصلح أن تكون سببًا لغفرانه، بخلاف العامة فإنها مقتضية للغفران العام».

⦿⦿⦿⦿⦿

العصرة التي تصيب التائب

قال ابن القيم[1]: «وهاهنا دقيقة قل من يتفطن لها إلا فقيه في هذا الشأن، وهي أن كل تائب لا بد له في أول توبته من عصرة وضغطة في قلبه، من هم أو غم أو ضيق أو حزن، ولو لم يكن إلا تألمه بفراق محبوبه فينضغط لذلك وينعصر قلبه ويضيق صدره، فأكثر الخلق رجعوا من التوبة ونُكِسوا على رؤوسهم لأجل هذه العصرة، والعارف الموفق يعلم أن الفرحة والسرور واللذة الحاصلة عقيب التوبة تكون على قدر هذه العصرة، فكلما كانت أقوى وأشد كانت الفرحة واللذة أكمل وأتم».

⦿⦿⦿⦿⦿

قِصَر الأمل

اعلم عبد الله أن لذاتك ستنقطع عاجلًا أو آجلًا، وستبقى تَبِعَة الشهوات المحرمة في عنقك، أما لذتها المنغصة المكدرة فقد زالت، ولم يبقَ منها شيء، فحَرِيٌّ بك إن كنت عاقلًا أن لا تتعلق من الدنيا بشيء، لأن فراقها صعب على مُـحِبِّها، ولا بدَّ له منه.

وقد ذمّ اللهُ تعالى قومًا في كتابه بشدة تعلق قلوبهم بالدنيا الدنية، وحرصهم على طول البقاء فيها، من أجل شهواتها وملذاتها، لاهين عن الآخرة وثوابها

---

(١) «طريق الهجرتين» (ص ٤٣٨ – طبعة قطر).

وحسابها، غافلين عن حياتها الباقية الدائمة.

قال الله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ❁ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ❁ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الحجر:١-٣].

وقال سبحانه في اليهود عليهم لعائن الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦].

قال ابن كثير: «أي: على طول عمر، لما يعلمون من مآلهم السيئ، وعاقبتهم عند الله الخاسرة، لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم، وما يحذرون واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم، وهذا من باب عطف الخاص على العام».

وقال ابن سعدي: «ثم ذكر شدة محبتهم للدنيا فقال: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾، وهذا أبلغ ما يكون من الحرص، تمنَّوْا حالة هي من المحالات، والحال أنهم لو عُمِّروا العمر المذكور لم يغن عنهم شيئًا، ولا دفع عنهم من العذاب شيئًا، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾، تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم».

قال ابن القيم(١): «قِصَر الأمل: هو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب، فإنه يبعثه على معاصفة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مر السحاب، ومبادرة طي صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة، فيقوم بقلبه إذا داوم مطالعة قِصَر الأمل شاهد من شواهد اليقين، يريه

---

(١) «مدارج السالكين» (٤٤٨/١-٤٤٩).

فناء الدنيا، وسرعة انقضائها، وقلة ما بقي منها، وأنها قد ترحلت مدبرة، ولم يبق منها إلا صُبابة كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبها، وإنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رؤوس الجبال، ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة، وقد جاء أشراطها وعلاماتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعًا».

قال: «ويكفي في قِصَر الأمل قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧]. وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس:٤٥]. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦]. وقوله تعالى: ﴿ قَٰلُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ * قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٣-١١٤]. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف:٣٥]. وقوله تعالى: ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه:١٠٣-١٠٤]».

ثم قال: «وقِصَر الأمل بناؤه على أمرين: تيقن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها، ثم يقايس بين الأمرين ويؤْثر أَوْلاهما بالإيثار». اهـ.

قلت: ومن أبلغ ما قيل في قِصَر الأمل، وهو غاية ما ذُكِر في حَدِّه، ما أوجزه النبي ﷺ في قوله: «صَلِّ صَلَاةَ مُودِّعٍ»، وهو من حديث أبي أيوب رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، علمني وأوجز. قال:

«إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ، وَلَا تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ، وَأَجْمِعِ الْيَأْسَ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ»(١).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٧١) وغيره، وحسنه الألباني.

فقصِّر عبد الله الأمل، ولِم لا تكون كذلك وأنت ترى وتسمع كيف يموت في كل يوم ما لا يُحصى من الأطفال، فضلًا عن غيرهم من الشباب والشيوخ، فعجبًا لك!! كيف لا تتعظ والأمر عِيان أمامك، والسهم مصوَّب نحوك، إنها والله شدة الغفلة، والاستغراق في اللهو واللعب، فسارع إلى نجاتك، واسلك السبيل الحق قبل وفاتك، واستعن بالله تعالى على الخروج من غفلتك، والتغلب على تقصيرك، فإنما هي الأنفاس، فانتهزها قبل أن تنقطع، ولعلك اليوم في آخرها!

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«هَذَا ابْنُ آدَمَ، وَهَذَا أَجَلُهُ، وَوَضَعَ يَدَهُ عِنْدَ قَفَاهُ، ثُمَّ بَسَطَهَا فَقَالَ: وَثَمَّ أَمَلُهُ، وَثَمَّ أَمَلُهُ»(١).

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: خَطّ النبي ﷺ خطًّا مربعًا، وخَطّ خطًّا في الوسط خارجًا منه، وخَطّ خُطَطًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال:

«هَذَا الْإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ (أو: قَدْ أَحَاطَ بِهِ)، وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الخُطَطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا»(٢).

وفي لفظ: وخَطّ في وسط الخط خطًّا، وخَطّ خارجًا من الخط خَطًّا، وحول الذي في الوسط خُطوطًا.

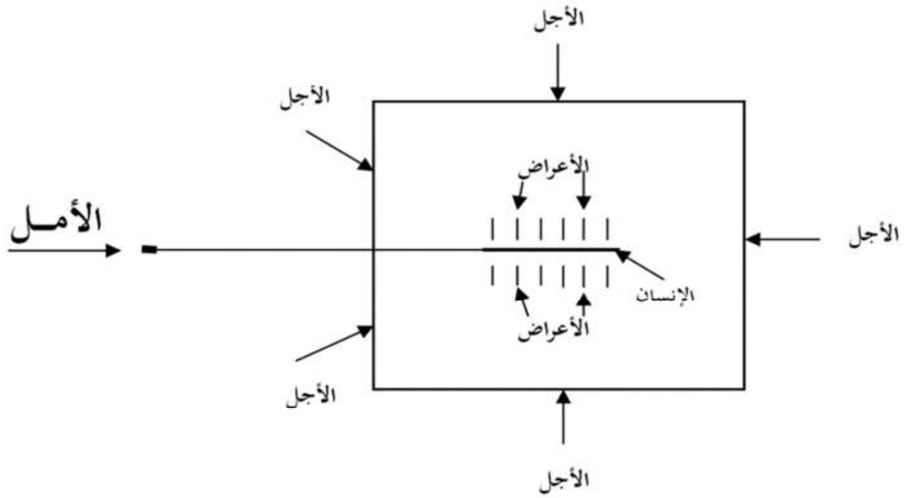
وفي لفظ: «هَذَا الْإِنْسَانُ، الْخَطُّ الْأَوْسَطُ، وَهَذِهِ الْخُطُوطُ إِلَى جَنْبِهِ الْأَعْرَاضُ، تَنْهَشُهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ».

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٤) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٧) وغيره، واللفظ الثاني لفظ ابن ماجه (٤٢٣١).

واختلف العلماء في رسم هذه الخطوط النبوية، ورسمتها فيما ظهر لي كما يلي:



والله تعالى أعلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا، وَطُولِ الْأَمَلِ»(١).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بِمَنْكِبِي، فقال: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، [وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَهْلِ الْقُبُورِ]»(٢).

قال ابن رجب(٣): «هذا الحديث أصل في قِصَر الأمل في الدنيا، وأن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطنًا ومسكنًا، فيطمئنَّ فيها، ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر، يهيِّئ جهازه للرحيل، وقد اتفقت على ذلك وصايا

(١) متفق عليه، وهذا لفظ البخاري.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦)، والزيادة للترمذي (٢٣٣٣) وغيره، وصححها الألباني في «الصحيحة» تحت الحديث (١١٥٧).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/٣٧٧).

الأنبياء وأتباعهم».

وعن بشر بن الحارث قال: حادثوا الآمال بقرب الآجال[1].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتِّباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتِّباع الهوى فيَصُد عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة، ألا وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، ولكل واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل[2].

قال ابن القيم[3]: «طول الأمل ينسي الآخرة، ويصد عن الاستعداد لها».

وقال[4]: «لقاحُ أخْذِ أُهْبَةِ الاستعداد للِّقاء قِصَرُ الأمل، فإذا اجتمعا فالخير كله في اجتماعهما، والشر في فرقتهما».

وقال[5]: «ليس للعبد أنفع من قِصَر الأمل، ولا أضر من التسويف وطول الأمل». اهـ.

ويا عبد الله، مهما طالت بك الحياة، ولو عُمِّرْتِ ما عُمِّر نوح عليه الصلاة والسلام فلا بد من الموت، فإذا جاء فكأنك ما عشت، ولا رأيت الدنيا، ولا عافست الأزواج، ولا لاعبت الأولاد، ولا تلذذت، ولا تنعمت، فهاهنا والله حياة الانقطاع والزوال، وثَمّ حياة البقاء والخلود.

ولك في قصة وفاة الكليم عليه الصلاة والسلام عبرة وتذكرة، فعن أبي

---

(١) «صفة الصفوة» (٢/٣٣٢).

(٢) «قصر الأمل» لابن أبي الدنيا (رقم ٤٩).

(٣) «الفوائد» (ص ٩٩).

(٤) «الفوائد» (ص ٢٠٠).

(٥) «طريق الهجرتين» (ص ٤٩٠ - طبعة قطر).

هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ:

«جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ: أَجِبْ رَبَّكَ».

قال: «فَلَطَمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَيْنَ مَلَكِ الْمَوْتِ فَفَقَأَهَا».

قال: «فَرَجَعَ الْمَلَكُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ: [يَا رَبِّ]، إِنَّكَ أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَكَ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ، وَقَدْ فَقَأَ عَيْنِي».

قال: «فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ عَيْنَهُ، وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى عَبْدِي فَقُلِ: الْحَيَاةَ تُرِيدُ؟ فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ فَمَا تَوَارَتْ يَدُكَ مِنْ شَعْرَةٍ فَإِنَّكَ تَعِيشُ بِهَا سَنَةً. قَالَ: ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: ثُمَّ تَمُوتُ. قَالَ: فَالْآنَ مِنْ قَرِيبٍ، رَبِّ أَمِتْنِي مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ».

قال رسول الله ﷺ: «وَاللَّهِ لَوْ أَنِّي عِنْدَهُ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكَثِيبِ(١) الْأَحْمَرِ»(٢).

وعن ابن السماك: هب الدنيا في يديك، ومثلها ضُمَّ إليك، وهب المشرق والمغرب يجيء إليك، فإذا جاءك الموت فماذا في يديك؟!(٣).

قال الغزالي(٤): «عليك أن تجتنب طول أملك، فإنه إذا طال هاج أربعة أشياء:

الأول ترك الطاعة والكسل فيها، يقول: سوف أفعل، والأيام بين يدي.

والثاني: ترك التوبة وتسويفها، يقول: سوف أتوب، وفي الأيام سَعَة، وأنا شاب وسني قليل، والتوبة بين يدي وأنا قادر عليها متى رُمتها، وربما اغتاله

---

(١) الكثيب: ما ارتفع من الرمل المجتمع.

(٢) متفق عليه، والسياق لمسلم، والزيادة لابن حبان (٦٢٢٣ و٦٢٢٤).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٨/٣٣٠).

(٤) «الاستعداد للموت» (ص ١٥-١٦)، بتصرف يسير.

الحِمام على الإصرار، واختطفه الأجل قبل إصلاح العمل.

والثالث: الحرص على جمع الأموال، والاشتغال بالدنيا عن الآخرة، يقول: أخاف الفقر في الكِبَر، وربما أضعف عن الاكتساب، ولا بد لي من شيء فاضل أدخره لمرض أو هرم أو فقر، هذا ونحوه يحرك إلى الرغبة في الدنيا، والحرص عليها، والاهتمام للرزق، تقول: إيش آكل؟! وإيش ألبس هذا الشتاء وهذا الصيف؟! وما لي شيء، ولعل العمر يطول فأحتاج، والحاجة مع الشيب شديدة، ولا بد لي من قوت وغُنية عن الناس، وهذه وأمثالها تحرك إلى طلب الدنيا، والرغبة فيها، والجمع لها، والمنع لما عندك منها.

والرابع: القسوة في القلب والنسيان للآخرة، لأنك إذا أمَّلت العيش الطويل لا تذكر الموت والقبر».

وفي «مختصر منهاج القاصدين»[1]: «اعلم: أن السبب في طول الأمل شيئان: أحدهما: حب الدنيا، والثاني: الجهل.

أما حب الدنيا: فإن الإنسان إذا أَنِس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثَقُل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كَرِهَ شيئًا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأماني الباطلة، فيُمَنِّي نفسه أبدًا بما يوافق مراده من البقاء في الدنيا، وما يحتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء، وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفًا على هذا الفكر، فيلهو عن ذكر الموت، ولا يُقَدِّر قربَه، فإن خطر له الموت في بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له سوَّف بذلك ووعد نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبَر ثم تتوب. وإذا كبِر قال: إلى أن يصير شيخًا. وإن صار شيخًا قال: إلى أن يفرغ من بناء هذه الدار، وعِمارة هذه الضيعة، أو يرجع من هذه السفرة.

(١) (ص ٣٨٥-٣٨٦)، بتصرف يسير.

فلا يزال يسوِّف ويؤخر، ولا يحرص في إتمام شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال، وهكذا على التدريج يؤخر يومًا بعد يوم، ويشتغل بشغل بعد شغل، إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته.

وأصل هذه الأماني كلها حب الدنيا والأنس بها، والغفلة عن قول النبي ﷺ: «أَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ»(١).

السبب الثاني: الجهل، وهو أن الإنسان يعوِّل على شبابه، ويستبعد قرب الموت مع الشباب، أوَليس يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عُدُّوا كانوا أقل من العُشر؟! وإنما قلُّوا لأن الموت في الشباب أكثر، وإلى أن يموت شيخ قد يموت ألف صبي وشاب، وقد يغتر بصحته، ولا يدري أن الموت يأتي فجأة، وإن استبعد ذلك، فإن المرض يأتي فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدًا، ولو تفكر وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص، من صيف وشتاء وربيع وخريف وليل ونهار، ولا هو مقيَّد بسن مخصوص، من شاب وشيخ أو كهل أو غيره، لَعَظُمَ ذلك عنده واستعد للموت».

⦿⦿⦿⦿⦿

أنجع طريق في تحقيق ذكر الموت

قال الغزالي: «اعلم أن الموت هائل، وخطره عظيم، وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ، بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا، فلا ينجع ذكر الموت في قلبه.

فالطريق فيه: أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي

(١) بعض حديث، أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٤٢٩ و٥٠٠٢) وغيرُه. وحسنه الألباني.

هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة، أو يركب البحر، فإنه لا يتفكر إلا فيه، فإذا باشر ذكر الموت قلبه، فيوشك أن يؤثِّر فيه، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه.

وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضَوْا قبله، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم! وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم! وكيف أرملوا نساءهم، وأيتموا أولادهم، وضيعوا أموالهم، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم!

فمهما تذكر رجل رجلًا، وفصَّل في قلبه حاله، وكيفية موته، وتوهم صورته، وتذكر نشاطه وتردده، وتأمله للعيش والبقاء، ونسيانه للموت، وانخداعه بمواتاة الأسباب، وركونه إلى القوة والشباب، وميله إلى الضحك واللهو، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع، والهلاك السريع، وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله! وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه! وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه! وكيف كان يدبّر لنفسه ما لا يحتاج إليه إلى عشر سنين، في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر! وهو غافل عما يراد به، حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه، فانكشف له صورة الملَك، وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار، فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم، وغفلته كغفلتهم، وستكون عاقبته كعاقبتهم.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا ذكرتَ الموتى فعُدَّ نفسك كأحدهم.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: السعيد من وُعِظ بغيره

وقال عمر بن عبد العزيز: ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديًا أو رائحًا إلى الله عز وجل؟! تضعونه في صَدْع من الأرض، قد توسد التراب، وخلّف

الأحباب، وقطع الأسباب.

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها، مع دخول المقابر، ومشاهدة المرضى، هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب، حتى يغلب عليه، بحيث يصير نصب عينيه، فعند ذلك يوشك أن يستعد له ويتجافى عن دار الغرور، وإلا فالذكر بظاهر القلب وعَذَبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد له من مفارقته.

نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها، ثم بكى فقال: والله لولا الموت لكنت بك مسرورًا، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا، ثم بكى بكاءً شديدًا حتى ارتفع صوته». اهـ.

⊙⊙⊙⊙⊙

مراتب الجهاد

قال ابن القيم[1]: «الجهاد أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين.

فجهاد النفس أربع مراتب أيضًا:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق، الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

---

(١) «زاد المعاد» (٣/١٠).

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيًّا حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه. اهـ.

فصل

وأما جهاد الشيطان فمرتبتان، إحداهما: جهاده على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

الثانية: جهاده على دفع ما يلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات، فالجهاد الأول يكون بعده اليقين، والثاني: يكون بعده الصبر. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤]. فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

فصل

وأما جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس، وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان.

فصل

وأما جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات فثلاث مراتب، الأولى: باليد إذا قدر، فإن عجز انتقل إلى اللسان، فإن عجز جاهد بقلبه، فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد، و«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ»(١). اهـ.

⊙⊙⊙⊙⊙

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (١٩١٠) وغيره.

بداية الشر والمعصية

قال ابن القيم[1]: «فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية فيوسوس إليه ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه ويمنيه ويشهيه، فيصير شهوة، ويزينها له ويحسنها ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه، فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمني ويشهي ويُنَسِّي علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب فيبعث الشيطان معهم مددًا لهم وعونًا، فإن فتروا حركهم وإن ونَوْا أزعجهم، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم:٨٣]؛ أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا، كلما فتروا أو ونَوْا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة».

⦿⦿⦿⦿⦿

الأحلام الشيطانية

ومن شر الشيطان: ما يلقيه في نفس العبد وهو نائم من حب الدنيا وتعظيم شأنها، والصد عن الآخرة، وتحسين المعاصي، وتزيين الشهوات، فيأتي العبد من طريق الأحلام الشيطانية، فيحسن له شهوة قد تاب منها ويزينها له، أو يذكره بمعشوق قد نسيه أو كاد، وغير ذلك من الدعوة إلى المعاصي والصد عن الخيرات، بالطرق الخفيات والظاهرات، فيمسي العبد تائبًا ويصبح خائبًا،

(١) «بدائع الفوائد» (٢/٢٥٧-٢٥٨).

ويمسي مخلصًا ويصبح مرائيًا.

وشأن المنامات الشيطانية الصادة عن الخير، المثبطة عن السير، معلومة لكل عاقل، ومع هذا لا يكاد يتنبه إليها إلا القليل من الناس، فلا ينجو من شرها إلا من حفظه الله تعالى.

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ: مِنْهَا أَهَاوِيلُ[1] مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ بِهَا ابْنَ آدَمَ، وَمِنْهَا مَا يَهُمُّ بِهِ الرَّجُلُ فِي يَقَظَتِهِ فَيَرَاهُ فِي مَنَامِهِ، وَمِنْهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»[2].

وعن جابر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه قال:

«إِذَا رَأَى أَحَدُكُمُ الرُّؤْيَا يَكْرَهُهَا، فَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ثَلَاثًا، وَلْيَتَحَوَّلْ عَنْ جَنْبِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ»[3].

⦿⦿⦿⦿⦿

مراتب شرور الشيطان

قال ابن القيم[4]: «ولا يمكن حصر أجناس شره فضلًا عن آحادها، إذ كل شر في العالم فهو السبب فيه، ولكن ينحصر شره في ستة أجناس لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحدًا منها أو أكثر:

الشر الأول: شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد، فلا يزال به

---

(١) أهاويل: جمع أهوال، هو جمع هول، كأقاويل: جمع أقوال، جمع قول. «سندي».

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٠٧) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٦٢) وغيره.

(٤) «بدائع الفوائد» (٢/٢٦٠-٢٦٢) بحذف يسير.

حتى يناله منه، فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره واستنابه على أمثاله وأشكاله، فصار من دعاة إبليس ونوابه، فإذا يئس منه من ذلك وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه نقله إلى:

المرتبة الثانية من الشر: وهي البدعة، وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي، لأن ضررها في نفس الدين، وهو ضرر مُتَعَدٍّ، وهي ذنب لا يتاب منه، وهي مخالفة لدعوة الرسل ودعاء إلى خلاف ما جاؤوا به، وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها بقي أيضًا نائبه وداعيًا من دعاته، فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ومعاداة أهل البدع والضلال نقله إلى:

المرتبة الثالثة من الشر: وهي الكبائر على اختلاف أنواعها، فهو أشد حرصًا على أن يوقعه فيها، ولا سيما إن كان عالمًا متبوعًا، فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه، ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه في الناس، ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تدينًا وتقربًا بزعمه إلى الله تعالى، وهو نائب إبليس ولا يشعر، فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم، هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها! فكيف إذا تولَّوا هم إشاعتها وإذاعتها؟! لا نصيحة منهم ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه، كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به، وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهون عند الله من ذنوب هؤلاء، فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته وبدل سيئاته حسنات، وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين وتتبع لعورتهم وقصد لفضيحتهم، والله سبحانه بالمرصاد لا تخفى عليه كمائن الصدور ودسائس النفوس، فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى:

المرتبة الرابعة: وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها،

ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالًا منه، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى:

المرتبة الخامسة: وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة، وكان حافظًا لوقته شحيحًا به، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها، وما يقابلها من النعيم والعذاب، نقله إلى:

المرتبة السادسة: وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه، ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل الخير المفضول ويحضه عليه ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه، وقَلَّ مَنْ يتنبه لهذا من الناس، فإنه إذا رأى فيه داعيًا قويًّا ومحركًا إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة، فإنه لا يكاد يقول: إن هذا الداعي من الشيطان، فإن الشيطان لا يأمر بخير، ويرى أن هذا خير، فيقول: هذا الداعي من الله، وهو معذور ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير! إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوِّت بها خيرًا أعظم من تلك السبعين بابًا وأجل وأفضل، وهذا لا يُتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله، وأحبها إليه وأرضاها له وأنفعها للعبد، وأعمها نصيحة لله تعالى ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم، ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض، وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك فلا يخطر بقلوبهم، والله تعالى يمُنّ بفضله على من يشاء من عباده.

فإن أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعيا عليه سلط عليه حزبه

من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه وقصد إخماله وإطفائه، ليشوش عليه قلبه ويشغل بحربه فِكْرَه، ولِيمنع الناس من الانتفاع به، فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه، ولا يفتر ولا يني، فحينئذ يلبس المؤمن لامة الحرب ولا يضعها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أُسر أو أُصيب، فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله».

⊙⊙⊙⊙⊙

بقدر قوة الإيمان والاعتصام بالرحمن
يغلب العبد الشيطان

اعلم أنه ليس للشيطان سبيل على المؤمنين الموحدين، فمن آمن بالله تعالى حقًّا، واعتصم به صدقًا، وتوكل عليه ثقة به وبكفايته ونصره، فأنّى للشيطان أن يصل إليه، أو أن يكون له سبيل عليه؟! كيف وقد اعتصم بالله القوي المتين؟!

وبقدر قوة الإيمان، والاعتصام بالرحمن، يغلب العبد الشيطان، ويدفع وسوسته، ويتخلص من شره، أما الموالي له بطاعته فإنه قد فتح له الطريق إلى الوصول إليه والتمكن منه.

فبقدر طاعة العبد للشيطان يسيطر عليه ويتمكن منه، حتى يصبح وليه وصاحبه، بله شيطان مثله! والعياذ بالله تعالى.

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۞ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠].

فسلطانه عليهم: هو إضلاله إياهم وتزيينه لهم، وهم الذين مكنوه من ذلك بطاعتهم وموالاتهم له، وهذه الطاعة والموالاة هي الإشراك به المقصود من

قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾، فالضمير في «به» يعود على الشيطان، وهو أقرب مذكور[١].

⊙⊙⊙⊙⊙

لا يحرز العبد نفسه من الشيطان إلا بذكر الله

عن الحارث الأشعري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا». الحديث. وفيه:

«وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا، حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ»[٢].

قال ابن القيم[٣]: «وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس، و(الخناس): الذي إذا ذَكَر العبدُ اللهَ انخنس وتجمع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله تعالى التقم القلب، وألقى إليه الوساوس، التي هي مبادئ الشر كله، فما أحرز العبدُ نفسَه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل».

وقال[٤]: «فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة، لكان حقيقًا

---

(١) وانظر «أضواء البيان» (٣/٣٥٨-٣٥٩)، و«فتح القدير» (٣/١٩٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٦٣ و٢٨٦٤)، وصححه الألباني.

(٣) «بدائع الفوائد» (٢/٢٧٠).

(٤) «الوابل الصيب» (ص ٤٦).

بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى، وأن لا يزال لَهِجًا بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده، فإذا غَفَل وثب عليه وافترسه، وإذا ذَكَر اللهَ تعالى انخنس عدو الله تعالى وتصاغر وانقمع، حتى يكون كالوصع[1] وكالذباب، ولهذا سُمِّي (الوسواس الخناس)؛ أي: يوسوس في الصدور، فإذا ذُكِر الله تعالى خَنَس؛ أي: كَفّ وانقبض».

⊙⊙⊙⊙⊙

إعراض العبد عن ذكر الله تعالى سبب لتقييض الشيطان له

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف:٣٦].

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾؛ أي: يتعامى ويتغافل ويعرض. كما قال ابن كثير.

قال سيد[2]: «وقد قضت مشيئة الله في خلقة الإنسان ذلك، واقتضت أنه حين يغفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه، فيلزمه ويصبح له قرين سوء يوسوس له ويزين له السوء.

وهذا الشرط وجوابه هنا في الآية يعبران عن هذه المشيئة الكلية الثابتة، التي تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب، كما قضاه الله في علمه».

وقال ابن الجوزي[3]: «العذاب مصبوب على أهل سخط الله، والسخط حالٌّ على أهل معصية الله، والمعصية لازمة لمن الشيطان له ملازم، وإنما يلازم الشيطان من عَشِيَ عن ذكر الله، فاحذر الغفلة عن ذكر الله، فإنها أصل كل

---

(١) الوصع: بفتح الصاد وسكونها: طير أصغر من العصفور.

(٢) «الظلال» (٣٣٣/٧).

(٣) «التذكرة في الوعظ» (ص ٦٦).

بلية، وجالبة كل رَزِيّة».

وقال الله تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [المجادلة:١٩].

⦿⦿⦿⦿⦿

أبواب الشيطان
التي يتسلط منها على ابن آدم

وهي: فضول النظر، والكلام، والطعام، ومخالطة الناس.

قال ابن القيم(١): «فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة».

فضول النظر

قال: فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال به، والفكرة في الظفر به.

فمبدأ الفتنة من فضول النظر، وهو أصل البلاء، والحوادث العظام إنما هي كلها من فضول النظر، فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة؟! كما قال الشاعر:

كُلُّ الحـوادثِ مَبْـداها مـن النظـرِ ... ومعظمُ النار من مُستصغَر الشـررِ
كم نظرةٍ فَتكتْ في قلب صـاحبها ... فَتْـكَ السـهامِ بـلا قـوسٍ ولا وَتَـرِ

وقال المتنبي:

وأنـا الذي جَلَـبَ المنيـةَ طَرفُـهُ ... فمَـن المطالَـبُ والقتيـلُ القاتـلُ

قال ابن القيم:

يـا راميًـا بسـهام اللحـظ مجتهـدًا ... أنت القتيل بمـا تـرمي فـلا تُصِـبِ

---

(١) انظر «بدائع الفوائد» (٢/٢٧١-٢٧٢).

وباعـثَ الطـرف يَرتـاد الشـفاءَ لهُ تَوَقَّـــه إنــــه يَرتـــدُّ بالعَطَـــبِ
ترجو الشـفاء بأحـداق بهـا مـرضٌ فهل سمعت ببُرْءٍ جـاء مـن عَطَـبِ
وواهبًـا عمـرَه في مثـل ذا سـفهًا لو كنت تعرف قَدْرَ العمر لـم تَهَـبِ
وبائعًـا طِيـب عـيشٍ مـا له خَطَـرٌ بطَيفِ عـيشٍ مـن الآلام مُنتهَـبِ
غُبِنْتَ والله غَبْنًا فاحشًـا فلـوِ اسـ ـترجعتَ ذا العَقدِ لم تُغبن ولـم تَخِـبِ

فضول الكلام

قال: وأما فضول الكلام: فإنها تفتح للعبد أبوابًا من الشر كلها مداخل للشيطان، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة، وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»[(١)].

وأكثر المعاصي إنما يولدها فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملان ولا يسأمان، بخلاف شهوة البطن، فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام، وأما العين واللسان فلو تُركا لم يفترا من النظر والكلام، فجنايتهما متسعة الأطراف، كثيرة الشعب، عظيمة الآفات.

وكان السلف يحذرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام، وكانوا يقولون: ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان.

فضول الطعام

قال: وأما فضول الطعام: فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر، فإنه يحرك

(١) بعض حديث، أخرجه بنحوه الترمذي (٢٦١٦) وغيره، وصححه الألباني. واللفظ أعلاه عند الطبراني في «الكبير» وغيره.

الجوارح إلى المعاصي، ويثقلها عن الطاعات، وحسبك بهذين شرًّا، فكم من معصية جلبها الشِّبَع وفضول الطعام! وكم من طاعة حال دونها! فمن وُقِيَ شر بطنه فقد وُقِيَ شرًّا عظيمًا، والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام.

وقال النبي ﷺ: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ»(١).

ولو لم يكن في الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله عز وجل لكفى به شرًّا، فإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان، ووعده ومناه وشهاه، وهام به في كل واد، فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت، وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت.

فضول المخالطة

قال: وأما فضول المخالطة فهي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة! وكم زرعت من عداوة! وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول، ففي فضول المخالطة خسارة الدنيا والآخرة.

وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة، ويجعل الناس فيها أربعة أقسام، متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه الشر:

أحدها: من مخالطته كالغذاء لا يُستغنى عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠) وغيره، وصححه الألباني، ولفظه كاملًا: عن مقدام بن مَعْدِي كَرِبَ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ».

حاجته منه ترك الخلطة، ثم إذا احتاج إليه خالطه، هكذا على الدوام، وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله تعالى وأمره، ومكايد عدوه، وأمراض القلوب وأدويتها، الناصحون لله تعالى ولكتابه ولرسوله ولخلقه، فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كل الربح.

القسم الثاني: من مخالطته كالدواء، يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحًا فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يُستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من:

القسم الثالث: وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه.

فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن، وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا، ومع ذلك فلا بد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما، فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت فهي مرض الموت المخوِّف.

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس، يشتد ضربًا عليك، فإذا فارقك سكن الألم.

ومنهم من مخالطته حُمَّى الروح، وهو الثقيل البغيض العقل الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها، بل إن تكلم فكلامه كالعِصي تنزل على قلوب السامعين، مع إعجابه بكلامه وفرحه به، فهو يُحْدث من فيه كلما تحدث، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس، وإن سكت فأثقل من نصف الرحى العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض.

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حُمَّى للروح فعرضية ولازمة، ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب وليس له بد من معاشرته ومخالطته، فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجًا ومخرجًا.

القسم الرابع: من مخالطته الهُلك كله، ومخالطته بمنزلة أكل السم، فإن اتفق لأكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثرهم الله! وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة رسول الله الداعون إلى خلافها، ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الأعراف:٤٥، وهود:١٩]، فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة، والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا.

إن جردت التوحيد بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين. وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين. وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير قالوا: أنت من المشبِّهين. وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر قالوا: أنت من المُفَتِّنين. وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين. وإن انقطعت إلى الله تعالى وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا: أنت من المُلَبِّسين. وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم فأنت عند الله تعالى من الخاسرين، وعندهم من المنافقين.

فالحزم كل الحزم التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم، وأن لا تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم، ولا تبالي بذمهم ولا بغضبهم، فإنه عين كمالك، كما قال [الشاعر]:

وإذا أتتــك مــذمتي مــن نــاقصٍ   فــهي الشــهادة لي بــأني فاضــلُ

انتهى كلام ابن القيم.

شأن الخطرات

ويحترز العبد من شر الشيطان بحفظ خطراته وأفكاره، وإمساكها عن الجولان في الشهوات المحرمة، والأماني الكاذبة، والأفكار الفاسدة، فإن إطلاقها في ذلك مدخل من مداخل الشيطان، بل هو أصل كل شر.

وتكلم ابن القيم رحمه الله على الخطرات، فقال[1]: «وأما الخطرات: فشأنها أصعب، فإنها مبدأ الخير والشر، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه، وقهر هواه، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب، ومن استهان بالخطرات قادته قهرًا إلى الهلكات.

وأخس الناس همة وأوضعهم نفسًا من رضي من الحقائق بالأماني الكاذبة، واستجلبها لنفسه وتَحَلَّى بها، وهي لعمر الله رؤوس أموال المفلسين، ومتاجر البطالين، وهي قوت النفس الفارغة، التي قد قنعت من الوصل بزورة الخيال، ومن الحقائق بكواذب الآمال، وهي أضر شيء على الإنسان، ويتولد منها العجز والكسل، وتولد التفريط والحسرة والندم.

والمتمني لمّا فاتته مباشرة الحقيقة بجسمه حَوَّل صورتها في قلبه، وعانقها وضمها إليه، فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره، وذلك لا يجدي عليه شيئًا، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن، يصور في وهمه صورة الطعام والشراب، وهو لا يأكل ولا ويشرب».

وقال في «فوائده»[2]: «دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت فكرة، فدافع الفكرة فان لم تفعل صارت شهوة، فحاربها فإن لم تفعل صارت عزيمة وهِمّة،

---

(١) انظر «الجواب الكافي» (ص ١٨١).

(٢) (ص ٤٦).

فإن لم تدافعها صارت فعلًا، فإن لم تتداركه بضدِّه[1] صار عادة، فيصعب عليك الانتقال عنها».

وقال[2]: «قاعدة في ذكر طريق قريب يوصل إلى الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال، وهي شيئان:

أحدهما: حراسة الخواطر وحفظها والحذر من إهمالها والاسترسال معها، فإن أصل الفساد كله من قبلها يجيء، لأنها هي بذر الشيطان والنفس في أَرض القلب، فإذا تمكن بذرُها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرى، حتى تصير إرادات، ثم يسقيها حتى تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال، ولا ريب أن دفع الخواطر أَيسر من دفع الإرادات والعزائم، فيجد العبد نفسه عاجزًا أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة، وهو المفرط إذا لم يدفعها وهي خاطر ضعيف، كمن تهاون بشرارة من نار وقعت في حطب يابس، فلما تمكنت منه عجز عن إطفائها.

فإن قلت: فما الطريق إلى حفظ الخواطر؟ قلت: أسباب عدة:

أحدها: العلم الجازم باطلاع الرب تعالى ونظره إلى قلبك وعلمه بتفصيل خواطرك.

الثاني: حياؤك منه.

الثالث: إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته[3] الذى خلقه

---

(١) من توبة واستغفار وحسنات ماحية، ونحو ذلك.

(٢) «طريق الهجرتين» (ص ٣١٧-٣٢٠ - طبعة قطر).

(٣) يعني القلب، يشير إلى الحديث المشتهر: «القلب بيت الرب». ولا أصل له، وهو من كلام المتصوفة، قال السخاوي: «ليس له أصل في المرفوع، والقلب بيت الإيمان [بالله] ومعرفته ومحبته».

لمعرفته ومحبته.

الرابع: خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر.

الخامس: إيثارك له أن تساكن قلبك غير محبته.

السادس: خشيتك أن تتولد تلك الخواطر ويستعر شرارها فتأكل ما في القلب من الإيمان ومحبة الله، فتذهب به جملة وأنت لا تشعر.

السابع: أن تعلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحَب الذي يلقى للطائر ليصاد به، فاعلم أن كل خاطر منها فهو حبة في فخ منصوب لصيدك وأنت لا تشعر.

الثامن: أن تعلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان ودواعي المحبة والإنابة أصلًا، بل هي ضدها من كل وجه، وما اجتمعا في قلب إلا وغلب أحدهما صاحبه وأخرجه واستوطن مكانه، فما الظن بقلب غلبت خواطر النفس والشيطان فيه خواطر الإيمان والمعرفة والمحبة فأخرجتها واستوطنت مكانها! لكن لو كان للقلب حياة لشعر بألم ذلك وأحس بمصابه.

التاسع: أن يعلم أن تلك الخواطر بحر من بحور الخيال لا ساحل له، فإذا دخل القلب في غمراته غرق فيه وتاه في ظلماته، فيطلب الخلاص منه فلا يجد إليه سبيلًا، فقلب تملكه الخواطر بعيد من الفلاح معذب مشغول بما لا يفيد.

العاشر: أن تلك الخواطر هي وادي الحمقى وأماني الجاهلين، فلا تثمر لصاحبها إلا الندامة والخزي، وإذا غلبت على القلب أورثته الوساوس وعزلته عن سلطانه[1] وأفسدت عليه رعيته وأَلقته في الأسر الطويل، كما أن هذا معلوم في الخواطر النفسانية فهكذا الخواطر الإيمانية الرحمانية هي أصل الخير

(١) في المطبوع: «سلطانها»، والصواب ما أثبته، كما سيظهره السياق الآن.

كله، فإن أرض القلب إذا بذر فيها خواطر الإيمان والخشية والمحبة والإنابة والتصديق بالوعد ورجاء الثواب، وسقيت مرة بعد مرة، وتعاهدها صاحبها بحفظها ومراعاتها والقيام عليها، أثمرت له كل فعل جميل، وملأت قلبه من الخيرات، واستعملت جوارحه في الطاعات، واستقر بها المَلِك في سلطانه واستقامت له رعيته، ولهذا لما تحققت طائفة من السالكين ذلك عملت على حفظ الخواطر، وكان ذلك هو سيرها وجل عملها.

وهذا نافع لصاحبه بشرطين:

أحدهما: أن لا يترك به واجبًا ولا سنة.

الثاني: أن لا يجعل مجرد حفظها هو المقصود، بل لا يتم ذلك إلا بأن يجعل موضعها خواطر الإيمان والمحبة والإنابة والتوكل والخشية، فيفرِّغ قلبه من تلك الخواطر ويَعمره بأضدادها، وإلا فمتى عمل على تفريغه منهما معًا كان خاسرًا، فلا بد من التفطن لهذا».

⦿⦿⦿⦿⦿

شأن استقامة اللسان

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ». الحديث[1].

قال ابن القيم[2]: «وفي اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص العبد من إحداهما لم يخلص من الأخرى: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد يكون كل

(١) أخرجه أحمد (١٣٠٤٨) وغيره. وهو في «السلسلة الصحيحة» (٢٨٤١).

(٢) «الجواب الكافي» (ص ١٦١).

منهما أعظم إثمًا من الأخرى في وقتها، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاص لله، مراء مداهن، إذا لم يخف على نفسه، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق، عاص لله، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين، وأهل الوسط ـ وهم أهل الصراط المستقيم ـ كفُّوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة، فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلًا أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به».

⦿⦿⦿⦿⦿

شأن غض البصر

قال الله العليم الخبير سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠].

قال شيخ الإسلام(١): «فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أقوى تزكية للنفس، وبين أن ترك الفواحش من زكاة النفوس، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور، من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك».

وقال ابن سعدي: «﴿ذَٰلِكَ﴾ الحفظ للأبصار والفروج، ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾: أطهر وأطيب وأنمى لأعمالهم، فإن من حفظ فرجه وبصره طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم الذي تطمع إليه النفس وتدعو إليه، فمن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، ومن غض بصره عن المحرم أنار الله بصيرته، ولأن العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته مع

(١) «العبودية» (ص ٩١).

داعي الشهوة كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سماه الله حفظًا، فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه في مراقبته وحفظه وعمل الأسباب الموجبة لحفظه لم ينحفظ، كذلك البصر والفرج إن لم يجتهد العبد في حفظهما أوقعاه في بلايا ومحن».

قال: «ثم ذكَّرهم بعلمه بأعمالهم ليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات».

وقال ابن القيم[1]: «قال تعالى عَقِيبَ أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور:٣٥].

وسر هذا الخبر: أن الجزاء من جنس العمل، فمن غض بصره عما حرم الله عز وجل عليه عوضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى، وهذا أمر يُحِسّه الإنسان من نفسه، فإن القلب كالمرآة، والهوى كالصدأ فيها، فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صورة الحقائق كما هي عليه، وإذا صَدِئت لم ينطبع فيها صورة المعلومات، فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون». اهـ.

وعن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: ما أَيِسَ الشيطان من شيء إلا أتاه من قِبَل النساء.

ثم قال لنا سعيد ـ وهو ابن أربع وثمانين سنة، وقد ذهبت إحدى عينيه، وهو يعشو بالأخرى ـ: ما شيء أخوف عندي من النساء[2].

وقال: ما خِفْتُ على نفسي شيئًا مخافةَ النساء. قالوا: يا أبا محمد، إن مثلك لا يريد النساء، ولا تريده النساء. فقال: هو ما أقول لكم.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٤٨/١).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢٣٧/٤).

وكان شيخًا كبيرًا أعمش[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: من تضييع الأمانة النظرُ في الحُجُرات والدور[2].

وعن قيس بن الحارث قال: قال سلمان: لأن أموت ثم أنشر، ثم أموت ثم أنشر، ثم أموت ثم أنشر، أحب إلي من أن أرى عورة مسلم أو يراها مني[3].

وعن وكيع قال: خرجنا مع سفيان الثوري في يوم عيد فقال: إن أول ما نبدأ به في يومنا غض أبصارنا[4].

وعن أبي حكيم قال: خرج حسان بن أبي سنان يوم العيد، فلما رجع قالت له امرأته: كم من امرأة حسنة قد نظرت اليوم إليها؟

فلما أكثرت عليه قال: ويحك! ما نظرت إلا في إبهامي منذ خرجت حتى رجعت إليك[5].

وعن العلاء بن زياد قال: لا تُتبع بصرك رداء المرأة، فإن النظر يجعل شهوة في القلب[6].

وعن إبراهيم بن أدهم قال: كثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب[7].

---

(١) «السير» (٤/٢٤١).

(٢) «الورع» لابن أبي الدنيا (رقم ٧١).

(٣) «الزهد» لأحمد (رقم ٨٣٥).

(٤) «الورع» لابن أبي الدنيا (رقم ٦٦).

(٥) «الورع» لابن أبي الدنيا (رقم ٦٨).

(٦) «الزهد» لأحمد (رقم ١٤٢٨).

(٧) «حلية الأولياء» (٨/٢٢).

وقال ابن مفلح[1]: «وليحذر العاقل إطلاق البصر، فإن العين ترى غير المقدور عليه على غير ما هو عليه، وربما وقع من ذلك العشق فيُهلك البدن والدين، فمن ابتُلي بشيء منه فليتفكر في عيوب النساء.

قال ابن مسعود: إذا أعجبت أحدَكم امرأةٌ فليذكر مناتنَها».

⦿⦿⦿⦿⦿

قول الله تعالى

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾

قال تبارك وتعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٧].

قال ابن القيم[2]: «فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه وتدارك فارطه واغتنام بقية أنفاسه، فيعمل على حياة قلبه وحصول النعيم المقيم، وإلا فلا خير له في حياته، فإن العبد على جناح سفر، إما إلى الجنة وإما إلى النار، فإذا طال عمره وحسن عمله كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة، فإنه كلما طال السفر إليها كانت الصبابة أجل وأفضل، وإذا طال عمره وساء عمله كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه، ونزولًا له إلى أسفل، فالمسافر إما صاعد وإما نازل».

⦿⦿⦿⦿⦿

---

(١) «الفروع» مع «التصحيح» (٨/٢٨١).

(٢) «الفوائد» (ص ٢٤٤).

السر في كون الشهداء يأمنون الفزع وفتنة القبر

عن المِقْدَامِ بن مَعْدِي كَرِبَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ [مِنْ دَمِهِ]، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، [وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ]، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: أنه سأل جبريل عليه السلام عن هذه الآية: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، مَنِ الذين لم يشأ اللَّهُ أن يصعقهم؟ قال:

«هُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»(٢).

والسر في كونهم كذلك ـ والله أعلم ـ هو أنهم لما ألقَوْا بأنفسهم لوجه الله تعالى في المعارك، حيث المخاوف العظيمة، والأخطار الجسيمة، من جرح وقتل وأسر وتمثيل وحرق وغير ذلك، عوضهم الله تعالى بالأمن، جزاءً وفاقًا.

ويدل عليه ما رواه راشد بن سعد، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، أنّ رجلًا قال: يا رسول الله، ما بالُ المؤمنين يُفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟! قال:

«كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً»(٣).

⦿⦿⦿⦿⦿

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٦٣)، واللفظ له، وقال: «حسن صحيح غريب». وابن ماجه (٢٧٩٩)، وأحمد (١٣١/٤)، والزيادتان لهما، وصحح إسناده الألباني في «أحكام الجنائز» (ص ٣٦).

(٢) أخرجه الحاكم (٢٥٣/٢)، وقال: «صحيح الإسناد»، وصححه الذهبي على شرط الشيخين، وهو في «صحيح الترغيب» (رقم ١٣٨٧).

(٣) أخرجه النسائي (٩٩/٤)، وصحح إسناده الألباني في «أحكام الجنائز» (ص ٣٦).

أنواع البكاء وأنواع التباكي

قال ابن القيم[1]: «البكاء أنواع:

أحدها: بكاء الرحمة والرقة.

والثاني: بكاء الخوف والخشية.

والثالث: بكاء المحبة والشوق.

والرابع: بكاء الفرح والسرور.

والخامس: بكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم احتماله.

والسادس: بكاء الحزن.

والفرق بينه وبين بكاء الخوف، أن بكاء الحزن يكون على ما مضى من حصول مكروه أو فوات محبوب، وبكاء الخوف يكون لما يتوقع في المستقبل من ذلك.

والفرق بين بكاء السرور والفرح وبكاء الحزن، أن دمعة السرور باردة والقلب فرحان، ودمعة الحزن حارة والقلب حزين، ولهذا يقال لما يفرح به: هو قرة عين، وأقر الله به عينه، ولما يحزن: هو سخينة العين، وأسخن الله عينه به.

والسابع: بكاء الخَوَر والضعف.

والثامن: بكاء النفاق، وهو أن تدمع العين والقلب قاس، فيظهر صاحبه الخشوع وهو من أقسى الناس قلبًا.

والتاسع: البكاء المستعار والمستأجر عليه، كبكاء النائحة بالأجرة، فإنها كما قال عمر بن الخطاب: تبيع عبرتها وتبكي شجو غيرها.

والعاشر: بكاء الموافقة، وهو أن يرى الرجل الناس يبكون لأمر ورد

---

(١) «زاد المعاد» (١/١٧٧-١٧٨).

عليهم فيبكي معهم، ولا يدري لأي شيء يبكون، ولكن يراهم يبكون فيبكي.

وما كان من ذلك دمعًا بلا صوت فهو «بُكى» مقصور، وما كان معه صوت فهو «بكاء» ممدود، على بناء الأصوات.

وقال الشاعر:

بكت عيني وحق لها بكاها … وما يغني البكاء ولا العويل

وما كان منه مستدعى متكلفًا فهو التباكي، وهو نوعان: محمود ومذموم، فالمحمود أن يُستجلب لرقة القلب ولخشية الله لا للرياء والسمعة. والمذموم أن يُجتلب لأجل الخلق.

وقد قال عمر بن الخطاب للنبي ﷺ وقد رآه يبكي هو وأبو بكر في شأن أسارى بدر: أخبرني ما يبكيك يا رسول الله؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما، ولم ينكر عليه ﷺ(١).

وقد قال بعض السلف: ابكوا من خشية الله، فإن لم تبكوا فتباكوا».

⦿⦿⦿⦿⦿

شأن تذكير النفس ومعاتبتها

قال الحق جل وعلا: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠-٤١].

قال الغزالي(٢): «اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٣)، في حديث طويل.

(٢) «الإحياء» (٤/٤١٦-٤٢٢) مختصرًا. ولكلامه بقية. ولي ولله الحمد كتاب شامل جامع في معاتبة النفس، وهو الآن (١٤٣٩هـ) تحت الطبع، أسأل الله أن ينتفع به كاتبه وقارئه.

خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير، وأمرتَ بتزكيتها وتقويمها وقَودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية.

فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولًا بوعظ نفسك.

وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها، وأنها أبدا تتعزز بفطنتها وهدايتها، ويشتد أنَفها واستنكافها إذا نُسبت إلى الحمق، فتقول لها: يا نفس، ما أعظم جهلك! تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقًا! أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار، وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب؟ فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم؟! وعساك اليوم تُختطفين أو غدًا، فأراك ترَين الموت بعيدًا ويراه الله قريبًا! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن البعيد ما ليس بآت؟! أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة، وأنه لا يأتي في شيء دون شيء، ولا في شتاء دون صيف ولا في صيف دون شتاء، ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار، ولا يأتي في الصبا دون الشباب ولا في الشباب دون الصبا، بل كل نفَس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة، ثم يفضي إلى الموت، فما لك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب، أما تتدبرين قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ

حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:١-٣]؟! اهـ.

⦿⦿⦿⦿⦿

أعجب الأشياء مجاهدة النفس

قال ابن الجوزي[١]: «أعجب الأشياء مجاهدة النفس، لأنها تحتاج إلى صناعة عجيبة، فإن أقوامًا أطلقوها فيما تحب فأوقعتهم فيما كرهوا، وإن أقوامًا بالغوا في خلافها حتى منعوها حقها وظلموها، وأثّر ظلمُهم لها في تعبداتهم، فمنهم من أساء غذاءها فأثر ذلك ضعف بدنها عن إقامة واجبها، ومنهم من أفردها في خلوة أثمرت الوحشة من الناس، وآلت إلى ترك فرض أو فضل من عيادة مريض أو بر والدة.

وإنما الحازم من تَعْلم منه نفسه الجِد وحفظ الأصول، فإذا فسح لها في مباح لم تتجاسر أن تتعداه، فيكون معها كالملك إذا مازح بعض جنده، فإنه لا ينبسط إليه الغلام، فإن انبسط ذَكر هيبة المملكة، فكذلك المحقق يعطيها حظها ويستوفي منها ما عليها».

وقال[٢]: «تأملت جهاد النفس فرأيته أعظم الجهاد، ورأيت خلقًا من العلماء والزهاد لا يفهمون معناه، لأن فيهم من منعها حظوظها على الإطلاق، وذلك غلط من وجهين:

أحدهما: أنه رُب مانع لها شهوة أعطاها بالمنع أوفى منها، مثل أن يمنعها مباحًا فيشتهر بمنعه إياها ذلك، فترضى النفس بالمنع لأنها قد استَبدلتْ به المدح.

(١) «صيد الخاطر» (ص ١٤١).

(٢) «صيد الخاطر» (ص ٨٠-٨٢).

وأخفى من ذلك أن يرى بمنعه إياها ما منع أنه قد فَضُل سواه ممن لم يمنعها ذلك، وهذه دقائق تحتاج إلى مِنقاش[1] فَهْمٍ يُخَلِّصها.

والوجه الثاني: أننا قد كُلِّفنا حفظها، ومن أسباب حفظها ميلها إلى الأشياء التي تُقِيمها، فلا بد من إعطائها ما يُقِيمها، وأكثر ذلك أو كله مما تشتهيه، ونحن كالوكلاء في حفظها، لأنها ليست لنا، بل هي وديعة عندنا، فمنعها حقوقها على الإطلاق خطر.

ثم رب شد أوجب استرخاء، ورب مُضَيِّق على نفسه فرت منه، فصعب عليه تلافيها، وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل، يحملها على مكروهها في تناول ما ترجو به العافية، ويُذَوِّب في المرارة قليلًا من الحلاوة، ويتناول من الأغذية مقدار ما يصفه الطبيب، ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطعم ربما جر جوعًا، ومن لقمه ربما حَرَمتْ لُقمات.

فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها، ولا يهمل مِقودها، بل يرخي لها في وقت والطِّوَل[2] بيده، فما دامت على الجادة لم يضايقها في التضييق عليها، فإذا رآها قد مالت ردها باللطف، فإن وَنَتْ وأبت فبالعنف، ويحسبها في مقام المداراة كالزوجة التي مبنى عقلها على الضعف والقلة، فهي تدارى عند نشوزها بالوعظ، فإن لم تصلح فبالهجر، فإن لم تستقم فبالضرب، وليس في سياط التأديب أجود من سوط عزم. هذه مجاهدة من حيث العمل.

فأما من حيث وعظها وتأنيبها، فينبغي لمن رآها تسكن للخلق وتتعرض بالدناءة من الأخلاق، أن يُعَرِّفها تعظيم خالقها لها، فيقول: ألست التي قال فيك: خلقتك بيدي، وأسجدت لك ملائكتي، وارتضاك للخلافة في أرضه، وراسلك، واقترض منك، واشترى؟! فإن رآها تتكبر قال لها: هل أنت إلا قطرة من ماء مهين،

---

(١) المنقاش: مِلْقاط؛ أداة تُستخرج بها الأشياء الصغيرة، كالشوكة.

(٢) الرَّسَن أو الحبل.

تقتلك شَرْقة، وتؤلمك بقة؟! وإن رأى تقصيرها، عَرَّفها حق الموالي على العبيد، وإن وَنَتْ في العمل حدثها بجزيل الأجر، وإن مالت إلى الهوى خوّفها عظيمَ الوزر، ثم يحذرها عاجل العقوبة الحسية، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ﴾ [الأنعام:٤٦]. والمعنوية، كقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦]. فهذا جهاد بالقول[١]، وذاك جهاد بالفعل».

⦿⦿⦿⦿⦿

كيفية التخلص من الهوى

قال ابن الجوزي[٢]: «اعلم أن الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل قد خُلق في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم ما أكل، وإلى المشرب ما شرب، وإلى المنكح ما نكح، وكذلك كل ما يشتهيه، فالهوى مستجلِب له ما يفيد، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذي، فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق، وإنما يُذم المفرِط من ذلك، وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار، ولما كان الغالب مِن مُوافق الهوى أنه لا يقف منه على حد المنتفع أُطلِق ذمُّ الهوى والشهوات لعموم غلبة الضرر».

وقال[٣]: «اعلم أن مطلِق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلًا وإن كانت سببًا للألم والأذى في العاجل، ومنعِ لذاتٍ في الآجل.

فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذة تُعقب ألمًا، وشهوة تورث ندمًا، وكفى

---

(١) يعني: وعظ النفس ومعاتبتها ولومها وتأنيبها.

(٢) «ذم الهوى» (ص ١٢).

(٣) «ذم الهوى» (ص ١٢-١٥) مختصرًا.

بهذا القدر مدحًا للعقل وذمًّا للهوى.

ألا ترى أن الطفل يؤثر ما يهوى وإن أداه إلى التلف؟ فيفضل العاقل عليه بمنع نفسه من ذلك.

وإذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالبًا وجب عليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل، فإنه سيشير عليه بالنظر في المصالح الآجلة، ويأمره عند وقوع الشبهة باستعمال الأحوط في كف الهوى، إلى أن يتيقن السلامة من الشر في العاقبة.

وينبغي للعاقل أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب ليستمر بذلك على ترك ما تؤذي غايته.

وليعلم العاقل أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذونها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها، لأنها قد صارت عندهم كالعيش الاضطراري، ولهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذ بذلك عشر التذاذ من لم يدمن، غير أن العادة تقتضيه ذلك، فيلقي نفسه في المهالك لنيل ما يقتضيه تعوده، ولو زال رَين الهوى عن بصر بصيرته لرأى أنه قد شَقي من حيث قدَّر السعادة، واغتم من حيث ظن الفرح، وأَلِم من حيث أراد اللذة، فهو كالحيوان المخدوع بحَب الفخ، لا هو نال ما خُدع به، ولا أطاق التخلص مما وقع فيه.

فإن قال قائل: فكيف يُتخلص من هذا من قد نشب فيه؟ قيل له: بالعزم القوي في هجران ما يؤذي، والتدرج في ترك ما لا يؤمَن أذاه، وهذا يفتقر إلى صبر ومجاهدة، يهونهما سبعة أشياء:

أحدها: التفكر في أن الإنسان لم يخلق للهوى، وإنما هيئ للنظر في العواقب، والعمل للآجل، ويدل على هذا أن البهيمة تصيب من لذة المطعم والمشرب والمنكح ما لا يناله الإنسان، مع عيش هني خال عن فكر وهم، ولهذا

تساق إلى منحرها وهي منهمكة على شهواتها، لفقدان العلم بالعواقب.

والثاني: أن يفكر في عواقب الهوى، فكم قد أفات من فضيلة! وكم قد أوقع في رذيلة! وكم من مطعم قد أوقع في مرض! وكم من زلة أوجبت انكسار جاه وقبح ذكر مع إثم! غير أن صاحب الهوى لا يرى إلا الهوى، فأقرب الأشياء شبهًا به مَن في المدبغة، فإنه لا يجد ريحها حتى يخرج فيعلم أين كان.

والثالث: أن يتصور العاقل انقضاء غرضه من هواه، ثم يتصور الأذى الحاصل عقيب اللذة، فإنه يراه يُرْبي على الهوى أضعافًا، وقد أنشد بعض الحكماء:

وأفضل الناس من لم يرتكب سببًا   حتى يميِّز ما تجني عواقبُهُ

والرابع: أن يتصور ذلك في حق غيره، ثم يتلمح عاقبته بفكره، فإنه سيرى ما يعلم به عيبه إذا وقف في ذلك المقام.

والخامس: أن يتفكر فيما يطلبه من اللذات، فإنه سيخبره العقل أنه ليس بشيء، وإنما عين الهوى عمياء.

والسادس: أن يتدبر عز الغلبة وذل القهر، فإنه ما من أحد غلب هواه إلا أحس بقوة العز، وما من أحد غلبه هواه إلا وجد في نفسه ذل القهر.

والسابع: أن يتفكر في فائدة المخالفة للهوى، من اكتساب الذكر الجميل في الدنيا، وسلامة النفس والعرض، والأجر في الآخرة، ثم يعكس فيتفكر لو وافق هواه في حصول عَكْسِ ذلك على الأبد».

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية(١): ما دواء من تحكم فيه الداء؟ وما الاحتيال فيمن تسلط عليه الخيال؟ وما العمل فيمن غلب عليه الكسل؟ وما الطريق إلى التوفيق؟ وما الحيلة فيمن سَطَتْ عليه الحيرة؟ إن قصد التوجه إلى

---

(١) انظر «مختصر الفتاوى المصرية» (ص ٦٥٠-٦٥١)، و«جامع المسائل - بكر أبو زيد» (المجموعة ٧/ ٤٤٦-٤٤٨).

الله تعالى منعه هواه! وإن رام الإدّكار غلب عليه الافتكار! وإن أراد أن يشتغل لم يطاوعه الفشل!

فأجاب رحمه الله: دواؤه الالتجاء إلى الله ودوام التضرع والدعاء، بأن يتعلم الأدعية المأثورة، ويتوخَّى الدعاء في مظانّ الإجابة، مثل آخر الليل، وأوقات الأذان والإقامة، وفي سجوده، وفي أدبار الصلوات.

ويضم إلى ذلك الاستغفار، فإنه من استغفر الله ثم تاب إليه متعه متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى، وليتخذ وردًا من الأذكار، طرفي النهار، ووقت النوم.

وليصبر على ما يَعرِض له من الموانع والصوارف، فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه، ويكتب الإيمان في قلبه.

وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس بباطنه وظاهره، فإنها عمود الدين، وليكن هِجِّيراه[١] لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فإنه بها يحمل الأثقال، ويكابد الأهوال، وينال رفيع الأحوال.

ولا يسأم من الدعاء والطلب، فإن العبد يُستجاب له ما لم يَعْجَلْ، فيقول: قد دعوت فلم يُستجب لي[٢]، وليعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا.

ولم ينل أحدٌ شيئًا من جسيم الخير ـ نبيٌّ فمَن دونه ـ إلا بالصبر، والحمد لله رب العالمين».

وفي «المدهش»[٣]: «يا تائهًا في بوادي الهوى، انزل ساعة بوادي الفكر

---

(١) دأبه وعادته.

(٢) كما في «الصحيحين» وغيرهما، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي». وقوله: «أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ». بعض حديث نبوي، أخرجه الحاكم (٣/٦٦٦) وغيره، وهو في « الصحيحة» (٢٣٨٢).

(٣) «المدهش» (ص ٤٠٥).

يخبرك بأن اللذة قصيرة، والعقاب طويل، وا عجبا لمن يشتري شهوة ساعة بغم الأبد! كانت المعصية ساعة لا كانت، فكم ذلت بعدها النَّفْس؟! وكم تصاعد لأجلها النَّفَس؟! وكم جرى لتذكارها دمع؟!».

وفيه[١]:

أيـا نفـس حقـك أن تجـزعي ويـا عـين إيـاك أن تهجـعي
ويـا أذني إن دعاك الهـوى فإيـاك إيـاك أن تسـمعي

⊙⊙⊙⊙⊙

كيفية محاسبة النفس ومعاتبتها

اعلم أنه ليس في محاسبة النفس ومعاتبتها طريقة معينة أو لازمة، ولكن يحاسب العبد نفسه على التقصير في أداء الطاعات، ويحاسبها على فعل المحرمات، ويراقبها باستمرار، ويحذرها على الدوام، ويجاهدها في الليل والنهار.

فيقول لها: ويحك نفس! (أو يا عبد الله، أو يا يزيد، ويذكر اسمه)، لِمَ تركتِ كذا من الواجبات؟ ولِمَ تركتِ كذا، ويخوفها من عقاب الله تبارك اسمه، ويرغبها في ثوابه، ويلزمها فعل الطاعة، واستدراك ما فات منها، بأدائه إن أمكن شرعًا، أو بإصلاحه، وإلا فبالتوبة النصوح.

ثم يحاسبها على فعل المعاصي، فيوبخها قائلًا: لِمَ فعلتِ كذا؟ ولِمَ فعلتِ كذا؟ يا ظالمة، يا جاهلة، يا مرائية، يا قليلة الطاعات، يا كثيرة المعاصي، أمّا المعاصي فتسترينها عن الخلق! وأمّا الطاعات فمع قلتها فأنت ترائين الناس بها وتسمِّعين! وتحسبين أنك مأجورة! لا والله، بل أنت مغرورة، ولن ينفعك إلا ما كان خالصًا لوجه مولاك جل وعلا.

---

(١) (ص ٢١٧).

ويقول لها: ألا تتقين الله تعالى؟! ألا تخافين عقابه؟! ألا ترغبين في ثوابه؟! ألا تستحين ممن ينعم عليك ويسترك؟! أما آن لك أن تخافي وترعوي؟! إلى متى؟! وحتى متى؟! ألا تؤمنين أنه لا بد من الموت ولقاء الله عز وجل؟! فكيف تلاقينه بهذه المعاصي الكثيرة؟! أم لك قدرة على النار وحر النار؟!

ويقول لها: ألا تخافين أن يفاجئك الموت وأنت مصرة على المعاصي؟! ألا تخافين أن تتراكم عليك الذنوب ولا توفقي لتوبة مدى العمر؟!

ويكِ يا نفس! منذ كذا وكذا وأنت تقولين: غدًا أتوب، غدًا أتوب. متى يأتي غدًا هذا؟! أعند انتهاء العمر؟! أم إلى أن تزول نعمة الصحة والعافية؟! أم حتى تنقضي مدة الشباب، أو حتى تمرضي مرض الموت، وتقعي في حسره الفوت؟!

ويقول لها: لا تغتري بالشباب، فان الموت قد يفاجئك، ألم تسمعي بآلاف من الشباب يموتون فجأة، ومن غير علة؟! فاتقي الله يا نفس، وهيا إلى رضاه وسعادتك، هيا هيا.

ويقول لها: لن أطيعك بعد اليوم، وسأتوب إلى مولاي من غدٍ، لا بل أخاف ألا أدرك غدًا، أنا تائب من الآن، ولن أطيعك، وسأمنعك من المحرمات، وألزمك بالطاعات.

ولو أبيتِ، ولو أظهرتِ العجز، ومهما تضايقتِ، ومهما فعلتِ لن أطيعك.

ويقول لها: تفكري في السابقين وأحوالهم، تدبري في ثواب الأبرار وسرورهم، والمقربين وعُلُوّ منازلهم، ألا همة للَّحاق بهم ومنافستهم، ونيل الدرجات العلى عند المليك المقتدر؟!

ويقول لها: واعلمي أنك بعد قليل ستفرحين وتتلذذين بالتوبة وترك الذنب أكثر من فرحك وتلذذك به.

قال ابن القيم: «فلو علم العاصي أن لذة التوبة وفرحتها تزيد على لذة المعصية وفرحتها أضعافًا مضاعفة لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية»[1].

واصبري يا نفس، فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣، والأنفال:٤٦]، وهو سبحانه وتعالى شكور، ولن يَتِرَكِ عملَك، وسيعوضك جزاء ما تركت خيرًا منه وأطيب، في الدنيا قبل الآخرة.

ألم يقل سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾ [الانفطار:١٣، والمطففين:٢٢]. هذا في الدنيا والآخرة.

ألم يقل رسوله ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِلَّا بَدَّلَكَ اللهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ»[2].

فهيا يا نفس إلى طاعة الله تعالى وترك معصيته، وهيا إلى جنة عالية، قبل فوات الأوان، وانقضاء الزمان.

وقولي معي[3]:

يا نَداماي[4] صحا القلب صحا ... فاطردوا عني الصِّبا والمَرَحا
زجر الوعظ فؤادي فارعوى[5] ... وأفاق القلب مني وصحا
هزم العزم جنودًا للهوى ... فاسِدي لا تعجبوا أن صَلُحا
بادروا التوبة من قبل الردى ... فمناديه ينادينا الوَحا[6]

⦿⦿⦿⦿⦿

(١) «الروح» (ص ٣٣٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٣/٥، وفي مواضع أُخَر) وغيره، وصححه الألباني في «السلسلة الضعيفة» تحت الحديث (رقم ٥).

(٣) أبيات ذكرها ابن رجب في «لطائف المعارف» (ص ١٨٣)، ثم عاد فختم بها كتابه.

(٤) هي: ندامى، جمع نديم، مضافة إلى ياء المتكلم، والنديم: الرفيق المسامر المصاحب.

(٥) ارعوى: من رعَا رِعْوًا ورَعْوَى؛ أي: كفّ وارتدع.

(٦) الوحا: البِدار، فيقال للإسراع: الوحا الوحا؛ أي: البِدار البِدار.

أنواع محاسبة النفس

قال ابن القيم[1]: «ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده.

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه.

قال الحسن رحمه الله: رحم الله عبدًا وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر.

وشرح هذا بعضهم فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهم به العبد، وقف أولًا ونظر: هل ذلك العمل مقدور له أو غير مقدور ولا مستطاع؟ فإن لم يكن مقدورًا لم يقدم عليه، وإن كان مقدورًا وقف وقفة أخرى ونظر: هل فعله خير له من تركه، أو تركه خير له من فعله؟ فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة ونظر: هل الباعث عليه إرادة وجه الله عز وجل وثوابه أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟ فإن كان الثاني لم يقدم، وإن أفضى به إلى مطلوبه، لئلا تعتاد النفس الشرك، ويخف عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله تعالى، حتى يصير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى ونظر: هل هو مُعان عليه، وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجًا إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه.

فهذه أربعة مقامات يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل الفعل، فما كل ما يريد العبد فِعله يكون مقدورًا له، ولا كل ما يكون مقدورًا له يكون فعله خيرًا له من تركه، ولا كل ما يكون فعله خيرًا له من تركه يفعله لله، ولا كل ما

---

(١) انظر «إغاثة اللهفان» (١/٨١-٨٢).

يفعله لله يكون معانًا عليه، فإذا حاسب نفسه على ذلك تبين له ما يقدم عليه، وما يحجم عنه.

النوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل، وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذى ينبغي.

وحق الله تعالى في الطاعة ستة أمور، وهي: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود منة الله عليه فيه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله.

فيحاسب نفسه: هل وَفَّى هذه المقامات حقها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح، أو معتاد: لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا وعاجلها؟ فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به».

وقال(١): «ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة: معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غدًا إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غدًا.

ويعينه عليها أيضًا: معرفته أن ربح هذه التجارة: سُكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها: دخول النار، والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم، فحَق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/٨٠-٨١).

وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فكل نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا حظ لها، يمكن أن يُشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه خسران عظيم، لا يَسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلًا، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠]».

⦿⦿⦿⦿⦿

أفضل الطرق في معاتبة النفس

وأنجع الطرق وأفضل الأساليب في لوم النفس ومعاتبتها: أن يخاطبها بما في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ، من الوعظ والتذكير، والتخويف والتحذير، كأن يقول لها مخوفًا وزاجرًا:

ويحك يا نفس! ألم تسمعي قول الله عز وجل: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٣٥].

وقوله سبحانه: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:٥٠-٥١].

وقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة:١٩٦].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٥٢].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم:٤٧].

وقوله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ [النساء:٨٤].

وقوله: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [المزمل:١٢-١٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم:١٥-١٧].

وقوله سبحانه: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [إبراهيم:٤٩-٥٠].

وقوله سبحانه وتعالى بعد ذكر أخذه للأقوام الظالمة بالعقوبات الشديدة المتنوعة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:١٠٢].

وقوله سبحانه: ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا * ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ [المزمل:١٦-١٩].

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٣].

وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ:٤٦].

وقول رسوله ﷺ من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ[(١)]، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ

(١) الأطيط: صوت الرَّحل والإبل من ثقل أحمالها. يُنظر «الصِّحاح». قال في «النهاية»: «أي أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت».

تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ».

قال أبو ذر: «لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ»[1].

وكأن يقول لها مُرَجِّيًا: يا نفس، ألم تسمعي قول مولاك الكريم: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣].

وقوله تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحجر:٤٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ [البروج:١٤].

وقول رسوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[2].

وقوله ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»[3].

وقوله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا بْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[4].

وقوله ﷺ في الحديث القدسي العظيم الشهير: عن سعيد بن عبد العزيز،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٢) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٩) وغيره.

(٣) متفق عليه.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) وغيره، وصححه الألباني.

عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخَوْلاني، عن أبي ذر، عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

«يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ». قال سعيد: كان أبو إدريس الخَوْلاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه[1].

ويقول لها مزَهِّدًا: اسمعي وتعقلي قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧].

وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ﴾ [الأحقاف:٣٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٤٢٥٧) وغيره.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص:٦٠].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ بذي الحُلَيْفَة، فإذا هو بشاة ميتة شائلة برجلها، فقال:

«أَتُرَوْنَ هَذِهِ هَيِّنَةً عَلَى صَاحِبِهَا؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا، وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا»(١).

ويقول لها مُنَدِّمًا: ألم تسمعي عتاب الله عز وجل بقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ [يس:٦٠-٦٢].

وروى أبو نعيم في «الحلية»(٢)، عن أبي المَليح قال: قرأ ميمون (يعني: ابن مِهْران): ﴿وَٱمْتَٰزُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾، فرَقّ حتى بكى، ثم قال: ما سمع الخلائق بعَتْب أشدّ منه قط.

يعني: قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ ﴾. الآيات.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد:١٦].

وهكذا، يحاسبها ويعاتبها بكلام ربها سبحانه، وبكلام رسوله ﷺ، ويخاطبها بما تضمنه، من أمر أو نهي، أو وصية وعهد، أو بِشارة أو نَذارة، أو غير

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (٤١١٠) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) (٤/٩٢).

ذلك، من ذكر إنعام الله وتفضله على أوليائه، وذكر عقوباته وعدله في أعدائه، وذكر أيامه عز وجل.

فيا ألله ما أعظم أثر ذلك! وما أجل ثمرته! وما أشد تأثيره في النفوس! وما أنجح إصلاحه للقلوب! فليس والله شيء أنجع منه، ولا أكثر تحريكًا لكامن الإيمان ومُخَبَّأ الفطرة منه.

قال الله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق:٤٥].

وقال سبحانه: ﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ [الأنعام:٧٠].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ﴾ [الأنبياء:٤٥].

وقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه:١١٣].

قال ابن الجوزي(١): «والله لو أن مؤمنًا عاقلًا قرأ سورة الحديد، وآخر سورة الحشر، وآية الكرسي، وسورة الإخلاص، بتفكر وتدبر، لتصدع من خشية الله قلبه، وتحير في عظمة الله لبه».

هذا، وتفصيل ذلك قد ذكرته في كتابي «معاتبة النفس»، وأودعت فيه من الأمثلة في ذلك شيئًا كثيرًا، إضافة إلى فوائد عظيمة، وتنبيهات جليلة، مما تقر به عين طلاب علوم التزكية، وسالكي طريق الآخرة، ولله تعالى وحده الفضل والمنة.

وإليك أخي القارئ، مثالًا من الكتاب المذكور، شديد الصلة بما نحن

---

(١) «التذكرة في الوعظ» (ص ٧٣-٧٤)

بصدده، من تزكية النفس وإصلاح القلب وتهذيب السلوك والأخلاق:

حسن الخلق

يا نفس، إن زِينتك هو التخلق بالأخلاق الحسنة الحميدة، وإن شِينتك هو التخلق بالأخلاق السيئة المذمومة.

فاحرصي على أن تتخلقي بهذه، من الصدق وطيب الكلام والتواضع وسلامة الصدر، وسائر الصفات التي أُمر بها في الكتاب والسنة، أو مدحها الله عز وجل، أو أثنى على أهلها، أو وعد عليها بالأجر والثواب.

واحرصي على أن تتخلَّيْ عن تلك، من الكذب وخبث الكلام والكبر وغل الصدر، وسائر الصفات التي نُهي عنها في الكتاب والسنة، أو ذمها الله عز وجل، أو ذم أهلها، أو توعد عليها بالعقوبة والعذاب.

وقد قال الله تعالى في حق رسوله ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِمْ»(١).

قال الشوكاني(٢): «قوله: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ) إلخ، فيه دليل على أن من ثبت له مزية حسن الخلق كان من أهل الإيمان الكامل، فإن كان أحسن الناس خلقًا كان أكمل الناس إيمانًا، وإن خصلة يختلف حال الإيمان باختلافها لخليقة بأن ترغب إليها نفوس المؤمنين.

قوله: (وَخِيَارُكُمْ خِيارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ)، وكذلك قوله في الحديث

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، واللفظ له، وغيرهما، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) «نيل الأوطار» (٦/٢٤٥-٢٤٦).

الآخر: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ»[1]، في ذلك تنبيه على أعلى الناس رتبة في الخير، وأحقهم بالاتصاف به، هو من كان خير الناس لأهله، فإن الأهل هم الأحقاء بالبِشر وحسن الخلق والإحسان وجلب النفع ودفع الضر، فإذا كان الرجل كذلك فهو خير الناس، وإن كان على العكس من ذلك فهو في الجانب الآخر من الشر، وكثيرًا ما يقع الناس في هذه الورطة، فترى الرجل إذا لقي أهله كان أسوأ الناس أخلاقًا وأشحهم نفسًا وأقلهم خيرًا، وإذا لقي غير الأهل من الأجانب لانت عريكته وانبسطت أخلاقه وجادت نفسه وكثر خيره، ولا شك أن من كان كذلك فهو محروم التوفيق، زائغ عن سواء الطريق، نسأل الله السلامة».

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

«مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»[3].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ:

«اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل

---

(١) بعض حديث، أخرجه الترمذي (٣٨٩٥) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣)، واللفظ له، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) وغيره، وحسنه الألباني.

الناس الجنة، فقال: «تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ».

وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «الْفَمُ وَالْفَرْجُ»[1].

قال ابن القيم[2]: «الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين».

وأنصحكِ يا نفس في هذا الباب ـ بعد كتاب الله عز وجل وتفسير ميسر له كتفسير ابن سعدي ـ بما صح من أحاديث في كتاب «الأدب المفرد» للبخاري، وكتاب «الترغيب والترهيب» للمنذري، وأنصحك أيضًا بكتاب «مختصر منهاج القاصدين»، وبمهذب لـ«مدارج السالكين»، وبالاستفادة من «أخلاق القرآن» للشرباصي.

الصدق والكذب

وليكن أول اهتمامك يا نفس فيما تتخلقين به وتتصفين به هو الصدق، فإنه الخلق الأعظم الهادي إلى سائر الأخلاق الحسنة، واجتناب الكذب، فإنه الخلق الأرذل الهادي إلى سائر الأخلاق السيئة، كما في حديث عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»[3].

وعن جوّابٍ التيمي قال: جاءت أخت الربيع بن خُثَيْمٍ عائدة إلى بُنَيٍّ له،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٢٩٤).

(٣) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

فانكبت عليه، فقالت: كيف أنت يا بني؟ فجلس ربيع، فقال: أرْضعتيه؟ قالت: لا. قال: ما عليكِ لو قلتِ: يا بن أخي، فصَدقتِ(١).

قلت: وهذا نوع من الورع يحذرك من الوقوع فيما هو أكبر مما ذكر، وإلا فإن قولك للطفل من غير ولدك: يا بني، ليست من الكذب في شيء! وإنما هي من لطف العبارة ورقة القلب وعطفه وحنانه.

وعن مالك بن أنس قال: قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ما كذبتُ كذبة منذ شددت عليّ إزاري(٢).

وعن الأحنف بن قيس قال: ما كذبت منذ أسلمت إلا مرة واحدة، فإن عمر سألني عن ثوب: بكم أخذته؟ فأسقطتُ ثلثي الثمن(٣).

وقيل لخالد بن صُبَيح: أيسمَّى الرجل كاذبًا بكذبة واحدة؟ قال: نعم(٤).

قلت: وأعظم الكذب الكذب على الله تعالى والكذب على رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل:١١٦].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

وعن المغيرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

«إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ

(١) «الصمت» لابن أبي الدنيا (رقم ٥٢٩).
(٢) «الصمت» (رقم ٤٨٣).
(٣) «الصمت» (رقم ٥٢٢).
(٤) «الإحياء» (٣/ ١٣٦).

مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[1].

حفظ اللسان

واحفظي لسانك على ذكر الله تعالى وما والاه، واحبسيه عن الغيبة والنميمة والفحش والسباب ونحوها، ولا تستقِلي أمره، ولا تستهيني بما يقع منه من طاعة أو معصية.

قال الله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار. قال:

«لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ».

ثم قال: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ». قال: ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة:١٦]، حتى بلغ: ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٦-١٧]».

ثم قال: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ، وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟» قلت: بلى يا رسول الله. قال: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ».

ثم قال: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه قال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ (أو: عَلَى

(١) متفق عليه.

مَنَاخِرِهِمْ) إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»[2].

وتقدم قبل قليل أن النبي ﷺ سئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «الفَمُ وَالفَرْجُ».

وعن عمر بن الخطاب أنه دخل على أبي بكر الصديق وهو يجبذ[3] لسانه، فقال له عمر: مَهْ[4]! غفر الله لك. فقال أبو بكر: إن هذا أوردني الموارد[5].

واعلمي يا نفس أن استقامة اللسان أساس استقامة القلب، كما في الحديث عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ». الحديث[6].

وقال ابن القيم[7]: «وفي اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص العبد من إحداهما لم يخلص من الأخرى: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد يكون كل منهما أعظم إثمًا من الأخرى في وقتها، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاص لله، مراء مداهن، إذا لم يخف على نفسه، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ البخاري (٦٤٧٨) وغيره.

(٣) أي: يجذب.

(٤) اسم فعل أمر، معناه: اكْفُفْ.

(٥) أخرجه مالك (٢/٩٨٨) وغيره. وهو في «صحيح الترغيب» (٢٨٧٣).

(٦) أخرجه أحمد (١٣٠٤٨) وغيره. وهو في «السلسلة الصحيحة» (٢٨٤١).

(٧) «الجواب الكافي» (ص ١٦١).

عاص لله، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين، وأهل الوسط ـ وهم أهل الصراط المستقيم ـ كَفُّوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة، فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلًا أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به».

سلامة القلب

واعلمي يا نفس، أن أفضل ما تأتين الله عز وجل به يوم القيامة، وأفضل ما تَقْدَمين به على الدار الآخرة، هو سلامة القلب ونظافته وطهره، سلامته من الكفر والشرك والمعصية والبدعة، وسلامته من الغش والغل والحسد والحقد على المسلمين، وأكثر الناس في غفلة عن هذه!

قال الله تعالى على لسان الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٨٧-٨٩].

وقال سبحانه: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات:٨٤].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال:

«كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ». قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مَخْمُومُ القلب؟ قال:

«هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ»(١).

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٦) وغيره، وصححه الألباني.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ يَأْخُذُ عَنِّي هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ، فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ؟». فقال أبو هريرة: فقلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي فعَدّ خمسًا، وقال:

«اتَّقِ المَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[(٢)].

قال ابن رجب[(٣)]: «أفضل الأعمال سلامة الصدر من أنواع الشحناء كلها، وأفضلها السلامة من شحناء أهل الأهواء والبدع، التي تقتضي الطعن على سلف الأمة، وبغضهم والحقد عليهم، واعتقاد تكفيرهم أو تبديعهم وتضليلهم، ثم يلي ذلك سلامة القلب من الشحناء لعموم المسلمين، وإرادة الخير لهم ونصيحتهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، وقد وصف الله تعالى المؤمنين عمومًا بأنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]».

وقال ابن العربي[(٤)]: لا يكون القلب سليمًا إذا كان حقودًا حسودًا معجبًا متكبرًا، وقد شرط النبي ﷺ في الإيمان: أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) متفق عليه.

(٣) «لطائف المعارف» (ص ١٣٩).

(٤) «أحكام القرآن» (٣/٤٥٩).

وقال قاسم الجُوعي: أصل الدين الورع، وأفضل العبادة مكابدة الليل، وأقصر طرق الجنة سلامة الصدر(١).

وعن سفيان بن دينار قال: قلت لأبي بشير ـ وكان من أصحاب علي ـ: أخبرني عن أعمال من كان قبلنا. قال: كانوا يعملون يسيرًا، ويؤجرون كثيرًا. قال: قلت: ولم ذاك؟ قال: لسلامة صدورهم(٢).

وقال السَّقَطي: من أجل أخلاق الأبرار: سلامة الصدر للإخوان، والنصيحة لهم(٣).

وقال المحاسبي(٤): «لا طريق أقرب من الصدق، ولا دليل أنجح من العلم، ولا زاد أبلغ من التقوى، وما رأيت أنفى للوسواس من ترك الفضول، ولا أنور للقلب من سلامة الصدر». اهـ.

قلت: وهي وصف أهل الجنة، كما قال ربنا جل وعلا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧].

ومن أسباب سلامة القلب من غله وغشه: إخلاص العمل لله تعالى، والنصيحة للمسلمين، عامتهم وخاصتهم، ولزوم جماعتهم، كما قال النبي ﷺ:

«ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»(٥).

قال الزمخشري في «الفائق»: «والمعنى أن هذه الخلال يُستصلح بها القلوب،

---

(١) «تاريخ دمشق» (١٢٣/٤٩).

(٢) «الزهد» لهناد (٦٠٠/٢).

(٣) «آداب العشرة» للغزّي (ص ٢١).

(٤) «رسالة المسترشدين» (ص ١٦١-١٦٢).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٣٠٥٦) وغيره، وصححه الألباني. وقد تقدم (صفحة ٧٤).

فمن تمسك بها طهر قلبه من الدَّغَل[1] والفساد. و(عليهن): في موضع الحال؛ أي: لا يغل كائنًا عليهن قلب مؤمن». اهـ.

ومن أسباب سلامة القلب: الرضا بعطاء الله لعباده، والقناعة بما قسم للعبد منها.

قال ابن القيم[2]: «الرضا يفتح له باب السلامة، فيجعل قلبه سليمًا نقيًّا من الغِش والدَّغَل والغِل، ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم، كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا، وكلما كان العبد أشد رضًا كان قلبه أسلم، فالخَبَث والدَّغَل والغِش قرين السخط، وسلامة القلب وبره ونصحه قرين الرضا، وكذلك الحسد هو من ثمرات السخط، وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا».

وعن عبد الله [بن مسعود] رضي الله عنه قال: لأن أَعَضَّ على جمرة حتى تبرد أحب إلي من أن أقول لشيء قد قضاه الله: ليته لم يكن[3].

هذا يا نفس، واعلمي أن صلاح الجسد والجوارح والأعمال تابع لصلاح القلب والنيات والعقائد، كما قال رسول الله ﷺ:

«أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[4].

فلا شيءَ قط مثلُ حسن الخلق وطهارة القلب وسلامة الصدر، ولا شيء أثقل في الميزان، ولا أحب إلى الرحمن سبحانه منها، فهي التي تبلغ بالعبد كل مبلغ، وترفع درجته في أعلى الجنة.

فيا نفس، يا من تنظفين جسدك وتزينين ظاهرك من جُمَّة وثياب ونعل،

---

(١) الدَّغَل: الخيانة والرِّيبة والفساد.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٢٠١).

(٣) «الزهد» لأبي داود (ص ١٣٧).

(٤) بعض حديث، متفق عليه. وقد تقدم.

هلّا طهرت قلبك، وزينت باطنك، وحسنت أخلاقك!

يا صاحب الجسد الحسن، والوجه الجميل، هلّا أشفقت عليه من النار! فحسنت باطنك بالإيمان، والأخلاق الحسنة، والصفات الطيبة.

يا نفس، كلما رأيتِ من حسن ظاهرك، وأعجبك جمال مظهرك، تذكري باطنك فاعملي على تحسينه، وتذكري قلبك فاحرصي على تطهيره، كما نبه إلى ذلك النبي ﷺ في عدة أحاديث، فمن ذلك:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقول:

«اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي، فَأَحْسِنْ خُلُقِي»[(١)].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ المُتَطَهِّرِينَ، فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»[(٢)].

والشاهد قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ المُتَطَهِّرِينَ»، فجمع بين الطهارة من الذنوب والعيوب والطهارة من الأنجاس والأحداث.

وهذا بعينه الذي دل عليه قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

فيا نفس، يا من تهتمين بزخرفة بيتك، وترتيب مكتبتك، وأناقة مظهرك، هلّا اهتممت بباطنك! فطهرت قصدك، وأخلصت نيتك، وجمعت شتات قلبك، وهلّا اهتممت بمسكنك وبيتك في الدار الآخرة! فاشتريت فيها القصور والدور، وهيأت الخيام للحور، هلّا فعلت ذلك! أم أنك نسيت أو تناسيت الآخرة!

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٣٩٢ و٢٥٢٢١) وغيره، وصححه الألباني في «الإرواء» (١/١١٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٥٥) وغيره، وصححه الألباني، وأخرجه مسلم (٢٣٤) دون جملة الدعاء.

يا نفس، يا من تحبين الجمال والأناقة والترتيب، وتدبرين وتجمعين في هذه الدنيا لمستقبلك ومستقبل أولادك فيها! وتخافين عليهم وتقلقين، وتخشَين وتشفقين، وقد جعلت ذلك همَّك الماثل، وشغلَك الشاغل، هلّا جمّلت قلبك، وأنّقت أخلاقك، ورتبت عباداتك لله تعالى!! وهلّا نظرت في أعمالك، ونظرت ماذا قدمت لمستقبلك ومستقبلهم في الآخرة!! مما يحفظك ويحفظهم في الدنيا قبل الآخرة، من التقوى وما والاها، وهلّا تدبرت قول مولاك عز وجل:

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء:٩]!!

يا نفس، ما فائدة صلاح الجسد والحرص على قوته وبنيته وسمعه وبصره والروح خاوية على عروشها، والقلب أعمى أصم أبكم؟! يا نفس أنت حية بالجسد والروح، فكما أن الجسد يحيا بالطعام والشراب وسائر مقومات حياته ويمرض أو يموت بنقصها أو عدمها، فكذلك الروح تحيا بعبادة الله تعالى وذكره وتمرض أو تموت دونها، فكم من مبصر أعمى القلب لا بصيرة له!! وكم من صحيح السمع أصم القلب لا يسمع الحق ولا يستجيب له!! كما قال الله تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٧١].

وقال سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»[1].

ولله در القائل:

يا خادمَ الجسم كم تشقى بخدمتـهِ أتطلـبُ الـربحَ ممـا فيـه خســرانُ

أقبلْ على النفس واستكمل فضائلَها فأنـت بـالنفس لا بالجسـم إنسـانُ

وهذا مثال ثان وأخير من كتاب «معاتبة النفس»:

الذكر والتلاوة

يا نفس، أين ذكرك لله عز وجل؟! أين وردك من القرآن والأذكار؟!

يا نفس، إياك أن تشابهي قومًا نسوا الله فنسيهم وأنساهم أنفسهم، فأهملوا مصالحها ومنافعها، جزاء وفاقًا، كما قال سبحانه:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر:١٩].

يا نفس، إياك أن تطول بك الغفلة، ويستمر بك البعد، وترضَي بهذه الحال، فيسيطر عليك الشيطان، فلا تجدي منه فِكاكًا، ولا عن شره مصرفًا، كما قال الله تعالى:

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المجادلة:١٩].

فالتزمي وردك من التلاوة، ولا تتركيه يومًا واحدًا، فإن ذلك يجلب لك الخير والبركة في وقتك وقولك وعملك، وإياك أن تنشتغلي عنه بأعمالك مهما كانت، ولو كانت في ظاهرها أعمالًا دينية، فضلًا عن الأعمال الدنيوية!

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر:٢٩].

---

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

فكيف تفوتك يا نفس هذه الأرباح وأنت أنت في حرصك على الدنيا ومتاعها الفاني، وحرصك على جمع المال، وحذقك في التجارة؟!

واحذري يا نفس أن تكوني في القوم الذين شكاهم النبي ﷺ إلى ربه، وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ [الفرقان:٣٠].

فلا تهجري يا نفس كتاب ربك، ولا تعرضي عنه، واختاري راحة قلبك وطُمَأنينته، وسعادتك في الدنيا والآخرة، وإلا فهو الهم والغم والضنك والظلمة والعمى والوحشة، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾ [طه:١٢٤].

فإياك إياك يا نفس والإعراض عن كتاب ربك وهجره، إياك والإعراض عن الاستشفاء به لأدوائك وأدواء أمتك، وإياك وهجر سماعه وتلاوته، وتدبره وتعلمه، وإياك وهجر العمل به وتحكيمه في جميع أمور دينك ودنياك.

وقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨].

فبالقرآن لا بسواه تطمئن القلوب وتسكن وترتاح، وتحضرها الأفراح، وتذهب عنها الأتراح، إذ فيه دون ما سواه الهدى واليقين دون الريب والاختلاف.

وإن كان المقصود بالذكر في الآية ذكر الله المعروف، فلن يختلف الأمر عما تقدم، لأن تلاوة القرآن وسماعه رأس الأذكار وأعظمها.

وبتلاوة القرآن العظيم يثبت الإيمان في القلب، فلا تزعزعه الفتن، ولا

تميله الشهوات، ولا تؤثر فيه المغريات، ولا تعمل فيه الشبهات.

قال الله سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان:٣٢].

وقال سبحانه: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود:١٢٠].

والأحاديث في فضل وثواب تلاوة القرآن كثيرة مشهورة، فمن ذلك:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أوصني. قال:

«أُوْصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ الْأَمْرِ كُلِّهِ».

قلت: يا رسول الله، زدني. قال:

«عَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وذِكْرِ اللهِ، فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الْأَرْضِ، وَذُخْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٦٤) وغيره، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) بعض حديث، أخرجه مسلم (٢٦٩٩) وغيره.

(٣) بعض حديث، أخرجه ابن حبان (٣٦١) وغيره، وصححه الألباني.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُحِبَّ اللهَ وَرَسُولَهُ فَلْيَقْرَأْ فِي الْمُصْحَفِ»[(١)].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّة[(٢)]، فقال:

«أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ، أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ، [زَهْرَاوَيْنِ][(٣)]، فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟»، فقلنا: يا رسول الله، نحب ذلك. قال:

«أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ»[(٤)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»[(٥)].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ

---

(١) أخرجه ابن شاهين في «الترغيب» (١٩١)، وابن المقرئ في «المعجم» (٤٩٨)، واللفظ له، وغيرهما. وهو في «الصحيحة» (٢٣٤٢).

(٢) (الصفة)؛ أي: في موضع مظلل من المسجد الشريف كان فقراء المهاجرين يأوون إليه، وهم المُسَمَّون بأصحاب الصفة، وكانوا أضياف الإسلام. (يغدو)؛ أي: يذهب في الغُدْوة، وهي أول النهار. (بطحان): اسم موضع بقرب المدينة. (العقيق): واد بالمدينة. (كوماوين): الكوماء من الإبل: العظيمة السنام. «عبد الباقي».

(٣) أي: ذواتي البياض الناصع الصافي المشرق.

(٤) أخرجه مسلم (٨٠٣)، وأبو داود (١٤٥٦)، والزيادة له، وغيرهما.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٩١٠) وغيره، وصححه الألباني.

الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِينَ»(١).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»(٢).

(الأترجة): قال في «الكوكب الوهاج»(٣): «هي ثمر جامع لطيب الطعم والرائحة وحُسن اللون، يشبه البِطِّيخ».

وقال في «فتح المنعم»(٤): «الأولى القول بأن اختيار الأترجة للتمثيل بها، لأنها كانت أحسن الفواكه عند المخاطبين لونًا وطعمًا وريحًا.

وهذا التشبيه يبرز المعنى المعقول الصِّرف في صورة المحسوس المشاهَد، فكلام الله تعالى له تأثير في نفس العبد وأعماقه، وفي ظاهره وسلوكه، والعباد في ذلك متفاوتون، فمنهم من لا نصيب له البتة، وهو المنافق الحقيقي الذي لا يقرأ، ومَثَله كالحنظلة، ومنهم من يتأثر ظاهره دون باطنه، وهو المرائي بالقراءة فهو لا يستفيد وقد يستفاد منه، ومَثَله كالريحانة، ومنهم من يتأثر بكلام الله باطنه دون ظاهره، فلا يفيد من بجواره، وهو المؤمن الذي لا يقرأ، ومَثَله مثل التمرة، ومنهم من يتأثر بالقرآن باطنه وظاهره، يستفيد ويفيد، وهو المؤمن الذي يقرأ، ومَثَله مثل الأترجة».

---

(١) أخرجه أبو داود (١٣٩٨) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) متفق عليه.

(٣) (١٣٤/١٠).

(٤) (٦٠٧/٣).

وقال ابن رجب[1]: «ومن أعظم ما يتقرب به إلى الله تعالى من النوافل كثرة تلاوة القرآن وسماعه بتفكر وتدبر وتفهم.

قال خباب بن الأَرَتِّ لرجل: تقرب إلى الله ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه.

لا شيء عند المحبين أحلى من كلام محبوبهم، فهو لذة قلوبهم، وغاية مطلوبهم.

قال عثمان: لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم». اهـ.

وقال يحيي بن معاذ: أشتهي من الدنيا شيئين: بيتًا خاليًا، ومصحفًا جيد الخط أقرأ فيه القرآن[2].

فهذه يا نفس أماني الكبار ورغباتهم! فأين أنت منهم؟! والمصاحف بين يديك، بطبعاتها الكثيرة، وأحجامها المنوعة، وخطوطها الجميلة المتقنة!

تدبر القرآن

هذا، واجعلي همك يا نفس في التلاوة فهم ما تقرئينه وتدبره، فإنه أنفع شيء لك في زكاتك وصلاحك وهدايتك.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

قال ابن سعدي: «﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾؛ فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجلَّ كتاب طرق العالم.

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته،

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص ٣٤٢)

(٢) «التذكار» للقرطبي (ص ١٣٤).

فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة تدرك بركته وخيره».

وقال الشنقيطي: «أي: يتفهموها ويتعقلوها ويُمْعِنوا النظر فيها، حتى يفهموا ما فيها من أنواع الهدى».

قال ابن كثير[1]: «قال الحسن البصري: والله ما تدبُّرُه بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، [فما أسقطت منه حرفًا. وقد والله أسقطه كله]، ما يُرى له القرآن في خُلُق ولا عمل. رواه ابن أبي حاتم».

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

استماع القرآن

وليكن لكِ ورد من الاستماع للقرآن أيضًا، وما أشد الحاجة إليه في هذا الزمان المزدحم بالأشغال! بحيث لا يتسنى للعبد أحيانًا التلاوة من حفظه، بل ولا يتهيأ له أحيانًا رؤية المصحف فضلًا عن التلاوة فيه! مع تيسر الاستماع أيَّما تيسر.

واستمعي القرآن يا نفس طلبًا للخشوع وإصلاح القلب وتزكية النفس، وحرصًا على التوبة والإنابة، لا للتبرك والتحصن فقط.

واحرصي على الاستماع لمن تحسبينه إذا سمعتيه يخشى الله تعالى.

وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ». قال: فقلت: يا رسول الله، أَقْرَأُ عليك، وعليك أُنزل؟! قال: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي».

فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا

(١) «تفسيره» (٧/٥٤). والزيادة من «الزهد» لابن المبارك (رقم ٧٩٣).

بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١]. رفعت رأسي، أو غَمَزَني رَجُلٌ إلى جنبي، فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل[١].

فهذا يا نفس هو السماع الحق، سماع القرآن، لا سماع الموسيقى والألحان، وسماع السور والآيات، لا سماع الأناشيد وما يسمى بالشيلات.

قال ابن القيم[٢]: «هذا السماع حاد يحدو القلوب، إلى جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح، إلى ديار الأفراح، ومحرك يثير ساكن العزمات، إلى أعلى المقامات، وأرفع الدرجات، ومناد ينادي للإيمان، ودليل يسير بالركب في طريق الجنان، وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح، من قِبل فالق الإصباح: حي على الفلاح، حي على الفلاح».

وقال[٣]: «اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة، فإن لم تجده في هذه المواطن فسل الله أن يمن عليك بقلب، فإنه لا قلب لك!». اهـ.

فإن أردت يا نفس الانتفاع بما تسمعين، والحصول على ثمرته التي ترجين، من الخشوع والإنابة والتوبة، فاسمعيه بحضور قلب، وعدم انشغال بشيء غير ما تسمعين، وتدبريه مستحضرة معانيه، ثم أعيدي بعد ذلك الاستماع له وكرريه، ولا تُطيلِنّ العهد به.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

التأثر بالذكر

واعتبري يا نفس بأحوال السالفين، من الأنبياء والصالحين، وكيف كان تأثرهم عند سماع كلام رب العالمين، كما قال الله تعالى في حق أنبيائه

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٢) «مدارج السالكين» (١/٤٨١-٤٨٢).

(٣) «الفوائد» (ص ١٤٨-١٤٩).

الكرام، عليهم الصلاة والسلام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩﴾ [مريم:٥٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗاۤ ۝ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩﴾ {الإسراء:١٠٧-١٠٩}.

وقال سبحانه في حق من هدى من القسيسين والرهبان: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٣].

وعن نافع: كان ابن عمر إذا قرأ هذه الآية: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:١٦] يبكي حتى يغلبه البكاء(١).

فيا نفس، دعيني أكرر عليك وأعيد: أقبلي على كتاب ربك، وألقي السمع بقلب حاضر غير لاه، وتفهمي كلامه عز وجل، وتدبري آياته، فإن هذا هو الذي يوجب التأثر والخشوع، فإن لم يحصل لك، فراجعي إيمانك، وعالجي قسوة قلبك،

(١) ذكره ابن حجر في «الإصابة» (١٦٠/٤)، وجود إسناده.

فالعلة فيك أنتِ، يقول الله تعالى:

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:٢١].

قال ابن القيم[(١)]: «فيا عجبا! من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال، تسمع آيات الله تتلى عليها، ويُذكر الرب تبارك وتعالى، فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب، فليس بمستنكر على الله عز وجل ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارًا تذيبها، إذْ لم تَلِنْ بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه، فمن لم يَلِنْ لله في هذه الدار قلبُه، ولم ينب إليه، ولم يُذِبْهُ بحبه والبكاء من خشيته، فليتمتع قليلًا، فإن أمامه المُلَيِّنَ الأعظم، وسيُرَدّ إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم». اهـ.

ويقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد:٣١].

وجواب لو في هذه الآية محذوف، أي: لو أن قرآنًا فُعِل به ذلك لكان هذا القرآن، أو لما آمنوا به، أو كلاهما، وما ذاك إلا لشدة عنادهم، ولقسوة قلوبهم، لما عليها من أقفال تمنع دخول الهدى ووصول الخير، وإلا فإن القرآن بذاته لا شيء أكثر تأثيرًا ولا أشد تذكيرًا منه، فإنه قد بلغ الغاية في التأثير، تخويفًا وإنذارًا وتذكيرًا وهديًا، كما قال سبحانه: ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ [ص:١].

عظمة القرآن

ويُسَهِّل هذا عليك يا نفس وييسره، أن تستحضري في قلبك عند التلاوة والسماع عظمة القرآن وجلالة الآيات، وتستشعري أن الله الرحمن

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢٢١/١).

الرحيم، العلي العظيم، هو المتكلم، وهو الذي يأمرك فيه وينهاك، ويعظك ويرشدك، ويعهد إليك ويوصيك، ويعاتبك ويتحبب إليك، ويبشرك وينذرك، فما أعظم خيره! وما أكثر بركته! وما أجل عطاياه! وما أكبر فضله على عباده! بإنزال هذا القرآن المبارك العظيم على عبده ونبيه وصفيه محمد ﷺ، يهديهم به ويعلمهم ويزكيهم ويرفعهم، ويُوصل لهم به الخيرات والبركات، ويدفع عنهم السيئات والبليات، ويتم عليهم النعمة والإيمان والنور، ويرفع عنهم المحنة والجهل والظلمة.

قال الله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١].

قال ابن سعدي: «﴿ تَبَارَكَ ﴾؛ أي: تعاظم وكملت أوصافه وكثرت خيراته، الذي من أعظم خيراته ونعمه أن نزل هذا القرآن الفارق بين الحلال والحرام والهدى والضلال وأهل السعادة من أهل الشقاوة، ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ محمد ﷺ الذي كمل مراتب العبودية، وفاق جميع المرسلين، ﴿ لِيَكُونَ ﴾ ذلك الإنزال للفرقان على عبده ﴿ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾، ينذرهم بأس الله ونقمه، ويبين لهم مواقع رضا الله من سخطه، حتى إن مَنْ قَبل نَذارته وعمل بها كان من الناجين في الدنيا والآخرة، الذين حصلت لهم السعادة الأبدية والملك السرمدي، فهل فوق هذه النعمة وهذا الفضل والإحسان شيء؟! فتبارك الذي هذا من بعض إحسانه وبركاته!».

قال ابن القيم[(١)]: «من قُرِئ عليه القرآن فليُقَدِّر نفسَه كأنما يسمعه من الله يخاطبه به، فإذا حصل له ـ مع ذلك ـ السماعُ به وله وفيه ازدحمت معاني المسموع ولطائفه وعجائبه على قلبه، وازدلفت إليه، بأيها يبدأ، فما شئت من علم وحكمة وبصيرة وهداية!».

---

(١) «مدارج السالكين» (٥٠٤/١)، بحذف يسير.

وقال سبحانه يمدح كتابه وكلامه: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق:١].

قال ابن سعدي: «المجيد أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الوجوه، كثير البركات، جزيل المبرات. والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يوصف بهذا هذا القرآن، الذي قد احتوى على علوم الأولين والآخرين، الذي حوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمها وأحسنها، وهذا موجب لكمال اتباعه، وسرعة الانقياد له، وشكر الله على المنة به». اهـ.

وقوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾، قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾؛ أي: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ونفع لهم في المعاش والمعاد.

قال الضحاك في قوله: ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾: كقوله: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ [الأنبياء:١٠]؛ أي: تذكيركم. وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير.

وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وإسماعيل بن أبي خالد، وابن عيينة وأبو حصين، وأبو صالح، والسُّدي: ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾: ذي الشرف؛ أي: ذي الشأن والمكانة.

ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف، مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار». اهـ.

وقال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى:٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

وقال تعالى: ﴿حمٓ ۝ وَٱلۡكِتَٰبِ ۝ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُۥ

﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:١-٤].

وقال سبحانه على لسان الجن: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ [الجن:١-٢].

الرشد: الحق والصواب والهدى، ويدخل فيه الإصابة في مصالح الدنيا والدين.

وهذا باب واسع يطول، فعظمة القرآن من عظمة الله تعالى، فإنه كلامه سبحانه، تكلم به صدقًا، وأنزله على نبيه ﷺ حقًّا.

قال شيخ الإسلام في آخر حياته وهو في السجن[1]: «قد فتح الله عليّ في هذا الحصن في هذه المرة من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنَّونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن».

يقول هذا وهو هو في معرفة معاني القرآن، والغوص في دقائقها، والبراعة المسلمة إليه في ذلك!!

فصل

ولا تفوتنك يا نفس، الأذكار المعيّنة في الصباح والمساء، وعند النوم والاستيقاظ، وفي سائر الأحوال، فإن فيها من الأجور العظيمة، والمنافع الجسيمة، ما لا يمكن حصره، فإن عجزت عن الإتيان بها جميعها، فأتي بما تيسر منها.

فصل

وإن خشيتِ الفَوْت فاستدركي بالأذكار المضاعفة، والأدعية الجامعة، خصوصًا في مواسم العبادة، وساعات الإجابة، كالعشر الأواخر من رمضان، وفيها ليلة القدر، وهي خير من ألف شهر، وكعشر ذي الحجة، وغيرها.

⦿⦿⦿⦿⦿

---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٥١٩/٤).

بيان معنى الدنيا ملعونة

قال ابن القيم[1]: «الدنيا في الحقيقة لا تذم، وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها، وهي قنطرة ومعبر إلى الجنة أو النار، ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة والإعراض عن الله والدار الاخرة، فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها، وهو الغالب على اسمها، صار لها اسم الذم عند الاطلاق، وإلا فهي مبنى الآخرة ومزرعتها، ومنها زاد الجنة، وفيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ومحبته وذكره ابتغاء مرضاته، وخير عيش ناله أهل الجنة في الجنة إنما كان بما زرعوه فيها.

وكفى بها مدحًا وفضلًا ما لأولياء الله فيها من قرة العيون، وسرور القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، بذكره ومعرفته ومحبته وعبادته، والتوكل عليه والإنابة إليه والأنس به، والفرح بقربه، والتذلل له، ولذة مناجاته والإقبال عليه، والاشتغال به عمن سواه، وفيها كلامه ووحيه وهداه وروحه الذي ألقاه من أمره فاجتبى به من شاء من عباده».

⦿⦿⦿⦿⦿

لا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين

قال ابن القيم[2]: «لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

نظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها، وألم

(١) «عدة الصابرين» (ص ٣٣١-٣٣٢ - طبعة بكر أبو زيد).

(٢) «الفوائد» (ص ٩٤-٩٥). ولكلامه بقية.

المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع، مع ما يعقب من الحسرة والأسف، فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها، وهم حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها، فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما هنا، فهي كما قال الله سبحانه: ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى:١٧]. فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.

فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه، فكل أحد مطبوع على أن لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة، إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل، وقويت رغبته في الأعلى الأفضل، فإذا آثر الفاني الناقص كان ذلك إما لعدم تبيُّن الفضل له، وإما لعدم رغبته في الأفضل.

وكل واحد من الأمرين يدل على ضعف الإيمان وضعف العقل والبصيرة، فإن الراغب في الدنيا الحريص عليه المؤثر لها إما أن يصدق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى، وإما أن لا يصدِّق، فإن لم يصدِّق بذلك كان عادمًا للإيمان رأسًا، وإن صدق بذلك ولم يؤثره كان فاسد العقل سيء الاختيار لنفسه، وهذا تقسيم حاضر ضروري، لا ينفك العبد من أحد القسمين منه، فإيثار الدنيا على الآخرة إما من فساد في الإيمان، وإما من فساد في العقل، وما أكثر ما يكون منهما!».

◉◉◉◉◉

شهوات الدنيا في القلب
كشهوات الأطعمة في المعدة

عن أُبي بن كعب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ ضُرِبَ لِلدُّنْيَا مَثَلًا بِمَا خَرَجَ مِنِ ابْنِ آدَمَ، وَإِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ، فَانْظُرْ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ»[(١)].

قوله ﷺ: (قزحه)، قال ابن الأثير: «أي: تَوْبَلَه، من القِزْح وهو التابِل الذي يُطرح فِي القِدْر، كالكمون والكزبرة ونحو ذلك. يقال: قَزَحْتُ القِدْر إذا تركت فيها الأبازير.

والمعنى: أن المطعم وإن تكلف الإنسان التَّنَوُّقَ في صنعته وتطييبه فإنه عائد إلى حال يُكره ويُستقذر، فكذلك الدنيا المحروص على عِمارتها ونَظم أسبابها راجعة إلى خراب وإدبار».

قال ابن القيم[(٢)]: «شهوات الدنيا في القلب كشهوات الأطعمة في المعدة، وسوف يجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا انتهت في المعدة غايتها، وكما أن الاطعمة كلما كانت ألذ طعمًا وأكثر دسمًا وأكثر حلاوة كان رجيعها أقذر، فكذلك كل شهوة[(٣)] كانت في النفس ألذ وأقوى فالتأذي بها عند الموت أشد».

⦿⦿⦿⦿⦿

(١) أخرجه ابن حبان (٤٣/٢ - إحسان) وغيره. وهو في «السلسلة الصحيحة» (٣٨٢).

(٢) «عدة الصابرين» (ص ٤٤٥ - طبعة بكر أبو زيد).

(٣) يعني: الشهوة المحرمة، والفضول المؤدي إليها.

العزلة وطريق السلامة فيها

قال ابن الجوزي[1]: «ينبغي أن تكون العزلة عن الشر لا عن الخير، والعزلة عن الشر واجبة على كل حال، وأما تعليم الطالبين، وهداية المريدين، فإنه عبادة العالم.

وإن من الخطأ الذي وقع فيه بعض العلماء إيثاره التنفل بالصلاة والصوم عن تصنيف كتاب، أو تعليم علم ينفع، لأن ذلك بذر يكثر ريعه، ويمتد زمان نفعه[2].

وإنما تميل النفس إلى ما يزخرفه الشيطان من ذلك لمعنيين:

أحدهما: حب البطالة، لأن الانقطاع عندها أسهل.

والثاني: لحب المدحة، فإنها إذا توسمت بالزهد، كان ميل العوام إليها أكثر.

فعليك بالنظر في السرب الأول، فكن مع السرب المتقدم، وهم الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، فهل نُقل عن أحد منهم ما ابتدعه جهلة المتزهدين والمتصوفة، من الانقطاع عن العلم، والانفراد عن الخلق؟! وهل كان شغل الأنبياء إلا معاناة الخلق، وحثهم على الخير، ونهيهم عن الشر؟!».

وقال[3]: «لا ريب أن القلب المؤمن بالإله سبحانه وبأوامره يحتاج إلى الانعكاف على ذكره وطاعته وامتثال أوامره، وهذا يفتقر إلى جمع الهم، وكفى بما وُضع في الطبع من المنازعة إلى الشهوات مشتتًا للهم المجتمع.

فينبغي للإنسان أن يجتهد في جمع همه لينفرد قلبه بذكر الله سبحانه

---

(١) «صيد الخاطر» (ص ٥٦).

(٢) وإن من الخطأ أيضًا الاقتصار على التعليم والتصنيف دون العمل بما يمليه العلم، مما كان عليه السلف الصالح، من صيام وقيام وكثرة ذكر لله عز وجل وجهاد في سبيله، وغير ذلك من ديدن عمال الآخرة.

(٣) «صيد الخاطر» (ص ٤٠٦-٤٠٧).

وتعالى، وإنفاذ أوامره، والتهيؤ للقائه، وذلك إنما يحصل بقطع القواطع، والامتناع عن الشواغل، وما يمكن قطع القواطع جملة، فينبغي أن يقطع ما يمكن منها.

وما رأيت مشتتًا للهم، مبددًا للقلب مثل شيئين:

أحدهما: أن تطاع النفس في طلب كل شيء تشتهيه، وذلك لا يوقف على حد فيه، فيذهب الدين والدنيا، ولا ينال كل المراد، مثل أن تكون الهمة في المستحسنات، أو في جمع المال، أو في طلب الرئاسة، وما يشبه هذه الأشياء، فيا له من شتات لا جامع له! يذهب العمر ولا ينال بعض المراد منه.

والثاني: مخالطة الناس، خصوصًا العوام، والمشي في الأسواق، فإن الطبع يتقاضى[1] الشهوات، وينسى الرحيل عن الدنيا، ويحب الكسل عن الطاعة والبطالة والغفلة والراحة، فيَثقل على من ألِف مخالطة الناس التشاغل بالعلم أو بالعبادة، ولا يزال يخالطهم حتى تهون عليه الغيبة، وتضيع الساعات في غير شيء.

فمن أراد اجتماع همه فعليه بالعزلة، بحيث لا يسمع صوت أحد، فحينئذ يخلو القلب بمعارفه، ولا تجد النفس رفيقًا مثل الهوى يذكرها ما تشتهي، فإذا اضطر إلى المخالطة، كان على وفاق، كما تتهوى الضفدع لحظة ثم تعود إلى الماء، فهذه طريق السلامة، فتأمل فوائدها تطب لك».

⦿⦿⦿⦿⦿

أقسام الاجتماع بالإخوان

قال ابن القيم[2]: «الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من

---

(١) أي: يطلب.

(٢) «الفوائد» (ص ٥١-٥٢).

منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب، ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه ثلاث آفات: إحداها: تزين بعضهم لبعض. الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة. الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود.

وبالجملة، فالاجتماع والخلطة لقاح، إما للنفس الأمارة، وإما للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللقاح، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته، وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من الملَك، والخبيثة لقاحها من الشيطان، وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين والطيبين للطيبات، وعَكْسَ ذلك».

⊙⊙⊙⊙⊙

المعاصي سبب العذاب

اعلم أن كل ما يظهر في العالم من شرور وفساد، ومصائب وأمراض[1]، يعجز المرء عن حصرها، وسائر عقوبات الدنيا وعقوبات الآخرة، فإنما هو من المعاصي وبما كسبت الأيدي.

قال الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢].

وقال سبحانه: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم:٤١].

---

(١) وقد يبتلى المؤمن أحيانًا وعلى قدر دينه رفعًا لمنزلته.

وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى:٣٠].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ [الرعد:١١].

وقال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ [الأنفال:٥٣].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ[١]، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»[٢].

قال ابن النحاس[٣]: «معنى الحديث: أن الناس إذا تركوا الجهاد وأقبلوا على الزرع ونحوه تسلط عليهم العدو، لعدم تأهبهم له واستعدادهم لنزوله ورضاهم بما هم فيه من الأسباب، فأولاهم ذلًّا وهوانًا لا يتخلصون منه حتى يرجعوا إلى ما هو واجب عليهم؛ من جهاد الكفار، والإغلاظ عليهم، وإقامة الدين، ونصرة الإسلام وأهله، وإعلاء كلمة الله، وإذلال الكفر وأهله».

قال: «ودَلّ قوله ﷺ: (حتى ترجعوا إلى دينكم)، على أن ترك الجهاد والإعراض عنه والسكون إلى الدنيا خروج عن الدين ومفارقة له، وكفى به ذنبًا وإثمًا مبينًا!».

⦿⦿⦿⦿⦿

---

(١) العِينة: هو أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مُسَمًّى، ثم يشتريها منه بالنقد بأقل من الثمن الذي باعها به. «نهاية». يعني: كأنه يقرض رجلًا ألف درهم على أن يعيدها ألفًا ومئة درهم، وإنما أقحمت السلعة بينهما للتحايل ـ إذ أن بيعها وشراءها حلال!!

(٢) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢) وغيره، وصححه الألباني بطرقه، ومنها: ما في «المسند» (٢/٢٨ و٤٢). انظر «السلسلة الصحيحة» (١/١٥-١٦).

(٣) «مشارع الأشواق» (١/١٠٦-١٠٧).

المعاصي تزيل النعم

اعلم أن سبب زوال النعم وحلول النِّقَم هو المعاصي والإعراض عن أمر الله تعالى، والكفر بأنعمه أو جحدها أو ترك شكرها، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ:١٥-١٧].

وقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

وقال سبحانه في فرعون وقومه: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان:٢٥-٢٩].

وفي «الفوائد» لابن القيم[١]: «يا مُكْرَمًا بحُلة الإيمان بعد حُلة العافية، وهو يُخْلِقهما[٢] في مخالفة الخالق، لا تُنْكِرِ السَلَب، يستحق من استعمل نعمة المنعِم فيما يَكره أن يُسْلَبَها».

وفي «بدائع الفوائد»[٣]: «من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب، كما قيل:

إذا كنتَ في نعمةٍ فارْعَها ... فإنّ المعاصي تُزيلُ النِّعَمْ

(١) (ص ٤٢-٤٣).

(٢) أي: يبليهما، أخلق فلانٌ ثوبَه: أبلاه، أي: لبسه حتى بَلِيَ.

(٣) (٢/٢٠٦)

فما حُفِظَتْ نعمةُ الله بشيء قَطُّ مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس».

وفي «الفوائد»(١): «قاعدة جليلة. قد فكرت في هذا الأمر، فإذا أصله أن تعلم أن النعم كلها من الله وحده، نعم الطاعات ونعم اللذات، فترغب إليه أن يلهمك ويوزعك شكرها، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل:٥٣]. وقال: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩]. وقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل:١١٤]. وكما أن تلك النعم منه، ومن مجرد فضله، فذكرها وشكرها لا يُنال إلا بتوفيقه، والذنوب من خِذلانه وتَخَلِّيه عن عبده، وتَخْلِيته بينه وبين نفسه، وإن لم يَكشف ذلك عن عبده فلا سبيل له إلى كشفه عن نفسه، فإذًا هو مضطر إلى التضرع والابتهال إليه أن تُدفع عنه أسبابُها حتى لا تصدر منه، وإذا وقعت بحكم المقادير ومقتضى البشرية فهو مضطر إلى التضرع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها، فلا ينفك العبد عن ضرورته إلى هذه الأصول الثلاثة، ولا فلاح له إلا بها: الشكر، وطلب العافية، والتوبة النصوح».

⦿⦿⦿⦿⦿

كيفية الشكر

والشكر يا نفس يكون باللسان: بأن تحمدي الله سبحانه وتعالى على ما أولاك من النعم الظاهرة والباطنة، وتتحدثي بما أنعم به عليك، من باب الشكر والمدح لا من باب الفخر والخيلاء، كما قال الله تعالى:

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى:١١].

---

(١) (ص ١٩٨)، ولكلامه بقية.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»(١).

وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ أَكَلَ طَعَامًا ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ وَرَزَقَنِيهِ، مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

قال: «وَمَنْ لَبِسَ ثَوْبًا فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا الثَّوْبَ وَرَزَقَنِيهِ، مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(٢).

ويكون بالجوارح: ببذل الجهد في طاعة الله تعالى من صلاة وصيام وصدقة وغيرها، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۞ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:١-٢].

وقال سبحانه: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تَفَطَّر رجلاه، قالت عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غُفِر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال:

«يَا عَائِشَةُ، أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»(٣).

وعن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال:

«يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٤) وغيره.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٠٢٣) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»[1].

قوله: (على كل سلامى)، قال النووي[2]: «أصله عظام الأصابع وسائر الكف، ثم استُعْمِل في جميع عظام البدن ومفاصله».

وقال ابن رجب[3]: «معنى الحديث: أن تركيب هذه العظام وسلامتها من أعظم نعم الله على عبده، فيحتاج كل عظم منها إلى صدقة يتصدق ابن آدم عنه، ليكون ذلك شكرًا لهذه النعمة». اهـ.

ويكون مع قول اللسان وعمل الأركان متواطِئًا عليه بالجَنان، خضوعًا واستكانة ومحبة لمن أنعم عليكِ ورزقك من أصناف النعم، وصرف عنك من أنواع البلايا والمحن، سبحانه ما أعظم نعمه! وما أكثر مننه! وما أجزل عطاياه!

قال ابن القيم[4]: «عبودية النعم: معرفتها والاعتراف بها أولًا، ثم العياذ به أن يقع في قلبه نسبتُها وإضافتها إلى سواه، وإن كان سببًا من الأسباب فهو مسببه ومقيمه، فالنعمة منه وحده بكل وجه واعتبار، ثم الثناء بها عليه، ومحبته عليها، وشكره، بأن يستعملها في طاعته.

ومن لطائف التعبد بالنعم أن يستكثر قليلها عليه، ويستقل كثير شكره عليها، وبعلم أنها وصلت إليه من سيده من غير ثمن بذله فيها، ولا وسيلة منه توسل بها إليه، ولا استحقاق منه لها، وأنها لله في الحقيقة لا للعبد، فلا تزيده النعم إلا انكسارًا وذلًّا وتواضعًا ومحبة للمنعم، وكلما جدد له نعمة أحدث لها عبودية ومحبة وخضوعًا وذلًّا».

⦿⦿⦿⦿⦿

(١) أخرجه مسلم (٧٢٠).

(٢) «شرح مسلم» (٥/٢٣٣).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/٧٠٨).

(٤) «الفوائد» (ص ١١٣-١١٤).

أسرار اقتران

الفرج بالكرب واليسر بالعسر

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦].

قال ابن رجب[١]: «ومن لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب واليسر بالعسر: أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى وحصل للعبد الإياس من كشفه من جهة المخلوقين تعلق قلبه بالله وحده، وهذا هو حقيقة التوكل على الله، وهو من أعظم الأسباب التي تُطلب بها الحوائج، فإن الله يكفي من توكل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

وأيضًا، فإن المؤمن إذا استبطأ الفرج، وأيس منه بعد كثرة دعائه وتضرعه، ولم يظهر عليه أثر الإجابة، رجع إلى نفسه باللائمة وقال لها: إنما أُتيتُ من قِبلكِ، ولو كان فيكِ خير لأُجبتُ! وهذا اللوم أحب إلى الله من كثير من الطاعات، فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه، واعترافه له بأنه أهل لما نزل به من البلاء، وأنه ليس بأهل لإجابة الدعاء، فلذلك تسرع إليه حينئذ إجابة الدعاء وتفريج الكرب». اهـ.

وقال ابن القيم[٢]: «إذا قام العبد بالصبر كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوبًا، فإن الله سبحانه وتعالى لم يبتله ليهلكه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته، فإن لله تعالى على العبد عبودية في الضراء، وله عبودية عليه فيما يكره، كما له عبودية فيما يحب، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره، ففيه تفاوت مراتب العباد، وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى».

◎◎◎◎◎

---

(١) انظر «جامع العلوم والحكم» (ص ١٨٧).

(٢) انظر «الوابل الصيب» (ص ٦).

مجالسة الصالحين

عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ[١]، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»[٢].

قال النووي[٣]: «فيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يغتاب الناس أو يكثر فجره وبطالته، ونحو ذلك من الأنواع المذمومة».

وقال المناوي[٤]: «قال الراغب: نبه بهذا الحديث على أن حق الإنسان أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الأخيار ومجالستهم، فهي قد تجعل الشرير خيرًا، كما أن صحبة الأشرار قد تجعل الخير شريرًا.

ومن المشاهد أن الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة، فما الظن بالنفوس البشرية التي موضعها لقبول صور الأشياء خيرها وشرها؟!».

وقال المباركفوري[٥]: «قال الغزالي: مجالسة الحريص ومخالطته تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد ومخاللته تزهد في الدنيا، لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع من حيث لا يدري».

⊙⊙⊙⊙⊙

---

(١) أي: يهبك ويعطيك.

(٢) متفق عليه.

(٣) «شرح مسلم» (١٦/١٧٨).

(٤) انظر «فيض القدير» (٥/٥٠٧).

(٥) «تحفة الأحوذي» (٧/٤٩).

معنى التبتل

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ [المزمل:٨].

قال ابن القيم[١]: «التبتل يجمع أمرين: اتصالًا وانفصالًا، لا يصح إلا بهما.

فالانفصال: انقطاع قلبه عن حظوظ النفس المزاحمة لمراد الرب منه، وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله، خوفًا منه، أو رغبة فيه، أو مبالاة به، أو فكرًا فيه، بحيث يشغل قلبه عن الله.

والاتصال: لا يصح إلا بعد هذا الانفصال، وهو اتصال القلب بالله، وإقباله عليه، وإقامة وجهه له، حبًّا وخوفًا ورجاءً، وإنابة وتوكلًا».

⦿⦿⦿⦿⦿

ضرورة انفراد العبد بنفسه أحيانًا

قال شيخ الإسلام[٢]: «ولا بد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه، في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يَشرَكه فيها غيره، فهذه يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه، إما في بيته، كما قال طاوس: نعم صومعة الرجل بيته يَكُفّ فيها بصرَه ولسانَه. وإما في غير بيته».

⦿⦿⦿⦿⦿

جهتا مرض القلب

قال ابن الجوزي[٣]: «اعلم يا بن آدم أنك مريض القلب من جهتين:

إحداهما: مخالفتك أمر الله. والأخرى: غفلتك عن ذكر الله

---

(١) «مدارج السالكين» (٣٠/٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤٢٦/١٠).

(٣) «التذكرة في الوعظ» (ص ٨٥).

ولن تجد طعم العافية حتى تكون على طاعة الله مقيمًا، ولذكر الله مديمًا، فعالج مرض المخالفة بالتوبة، ومرض الغفلة بالإنابة، وإلا فاعلم عما قليل أنك هالك، ومنتقل من أهلك ومالك إلى قبضة ملك مالك».

وقال[1]: «كل العافية في الذكر والطاعة، وكل البلاء في الغفلة والمخالفة، وكل الشفاء في الإنابة والتوبة».

⦿⦿⦿⦿⦿

كيفية التخلص من بلوى المعصية

قال ابن الجوزي[2]: «لا تقدر على التخلص من بلوى المعصية إلا بالتخلص من سجن الغفلة، ولا تتخلص من الغفلة إلا بتضمير البطن، وتفريغ القلب، ومواصلة الذكر، فجوع بطنك، وارفض شغلك، واذكر ربك، يعتزلك شيطانك».

قلت: «قوله: (تضمير البطن)؛ يعني: تجويعه حتى يضمر؛ أي: ينضم ويخف لحمه. واعلم أن الجوع غير محمود إلا ما كان منه شرعيًّا، ونتج عن الاكتفاء بلقيمات يقمن الصلب، أو عن الاكتفاء بثلث البطن، أو عن الصوم، أو نتج عن الإيثار ونحوه.

وقوله: (وتفريغ القلب)؛ يعني: من الاعتقادات الفاسدة، والشبهات الزائفة، وسائر الأفكار الشيطانية، والأمراض النفسانية.

ولا يصلح هذا التفريغ إلا بضده، من مَلء القلب بالاعتقالات السلفية الإيمانية، والعلوم الشرعية المحمدية، والأفكار الدينية، المُورِثة لرفيع المقامات والأحوال، الهادية لأحسن الأخلاق والأعمال.

⦿⦿⦿⦿⦿

---

(١) «التذكرة في الوعظ» (ص ٥٣).

(٢) «التذكرة في الوعظ» (ص ٥٤).

أعظم مفسدات القلب

قال ابن القيم[1]: «وهذا (يعني: التعلق بغير الله تعالى) أعظم مفسدات [القلب] على الإطلاق، فليس عليه أضر من ذلك، ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وَكَله الله إلى ما تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل بتعلقه بغيره والتفاته إلى سواه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمَّله ممن تعلق به وصل، قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم:٨١-٨٢].

وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس:٧٤-٧٥].

فأعظم الناس خِذلانًا من تعلق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات، ومَثَل المتعلق بغير الله كمَثَل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت أوهنِ البيوت.

وبالجملة، فأساس الشرك وقاعدته التي بُنِي عليها: التعلق بغير الله، ولصاحبه الذم والخِذلان، كما قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ [الإسراء:٢٢]. مذمومًا لا حامد لك، مخذولًا لا ناصر لك».

وقال[2]: «وهل النعيم إلا نعيم القلب؟! وهل العذاب إلا عذاب القلب؟! وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة؟! وكل

(١) انظر «مدارج السالكين» (٤٥٥/١). ولمعرفة مفسدات باقي مفسدات القلب انظر (ص ٤٥١-٤٥٧).

(٢) «الجواب الكافي» (ص ٧٦-٧٧).

شيء تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب.

فكل من أحب شيئًا غير الله عُذِّب به ثلاث مرات في هذه الدار: فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عُذِّب به حال حصوله بالخوف من سَلْبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع من العذاب في هذه المعارضات، فإذا سُلِبه اشتد عليه عذابه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ: فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجو عودة، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد، فالهم والغم والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما يعمل الهوام والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائم مستمر، حتى يردها الله إلى أجسادها، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر!!».

وقال[1]: «متى رأيت القلب قد ترحل عنه حب الله والاستعداد للقائه، وحل فيه حب المخلوق والرضا بالحياة الدنيا والطُّمَأنينة بها، فاعلم أنه قد خُسِف به».

وقال في أصحاب الشهوات الذين آثروا الدنيا ولذاتها الزائلة على الآخرة ولذاتها الباقية:

هربوا من الرِّقّ الذي خُلِقوا لهُ ... فبُلُوا برِقِّ النفسِ والشيطانِ

⊙⊙⊙⊙⊙

هل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؟

قال ابن القيم[2]: «الذي عندي في هذه المسألة: أن التوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار على آخر من نوعه، وأما التوبة من ذنب مع مباشرة

(١) «بدائع الفوائد» (٣/٢٢٤).

(٢) «مدارج السالكين» (١/٢٧٥).

آخر لا تعلُّق له به ولا هو من نوعه فتصح، كما إذا تاب من الربا ولم يتب من شرب الخمر مثلًا، فإن توبته من الربا صحيحة، وأما إذا تاب من ربا الفضل ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليه، أو بالعكس، أو تاب من تناول الحشيشة وأصر على شرب الخمر، أو بالعكس، فهذا لا تصح توبته، وهو كمن يتوب عن الزنا بامرأة، وهو مصر على الزنا بغيرها غير تائب منها، أو تاب من شرب عصير العنب المسكر، وهو مصر على شرب غيره من الأشربة المسكرة، فهذا في الحقيقة لم يتب من الذنب، وإنما عدل عن نوع منه إلى نوع آخر، بخلاف من عدل عن معصية إلى معصية أخرى غيرها في الجنس، إما لأن وزرها أخف، وإما لغلبة دواعي الطبع إليها، وقهر سلطان شهوتها له، وإما لأن أسبابها حاضرة لديه عتيدة، لا يحتاج إلى استدعائها، بخلاف معصية يحتاج إلى استدعاء أسبابها، وإما لاستحواذ قرنائه وخلطائه عليه، فلا يدَعونه يتوب منها، وله بينهم حظوة بها وجاه، فلا تطاوعه نفسه على إفساد جاهه بالتوبة، كما قال أبو نواس لأبي العتاهية وقد لامه على تهتكه في المعاصي:

أتـــراني يـــا عتـــاهي تـــاركًا تلـــك المـــلاهي

أتراني مفســدًا بالنـــ ـــسك عند القوم جـاهي

فمثل هذا إذا تاب من قتل النفس، وسرقة أموال المعصومين، وأكل أموال اليتامى، ولم يتب من شرب الخمر والفاحشة، صحت توبته مما تاب منه، ولم يؤاخَذ به، وبقي مؤاخَذًا بما هو مصر عليه، والله أعلم».

⦿⦿⦿⦿⦿

السير إلى الله تعالى

قال ابن القيم[1]: «قاعدة: السائر إلى الله تعالى والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد، لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين: قوة علمية، وقوة عملية.

فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق، ومواضع السلوك فيقصدها سائرًا فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب، وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل، فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشي به في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره، ويبصر بذلك النور أيضًا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق، ومعاطبها.

وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية، فإن السير هو عمل المسافر.

وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها، وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح، وبقي عليه الشطر الآخر، وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر مسافرًا في الطريق قاطعًا منازلها منزلة بعد منزلة، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرى، واستشعر القرب من المنزل فهانت عليه مشقة السفر.

وكلما سكنت نفسه من كَلال السير ومواصلة الشد والرحيل وعدها قرب التلاقي وبرد العيش عند الوصول، فيحدث لها ذلك نشاطًا وفرحًا وهمة، فهو يقول: يا نفس أَبشري فقد قرب المنزل ودنا التلاقي، فلا تنقطعي في الطريق دون

---

(١) «طريق الهجرتين» (ص ٣٣٢-٣٣٤ - طبعة قطر).

الوصول، فيحال بينك وبين منازل الأحبة، فإن صبرت وواصلت السير وصلت حميدة مسرورة جَذِلة، وتلقتك الأحبة بأَنواع التحف والكرامات، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة، فإن الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة، وعمرك درجة من دَرج تلك الساعة، فاللهَ اللهَ لا تنقطعي في المفازة! فهو والله الهلاك والعطَب لو كنت تعلمين!

فإِن استصعبت عليه فليذكرها ما أَمامها من أحبابها، وما لديهم من الإِكرام والإنعام، وما خلفها من أعدائها وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء، فإن رجعت فإلى أعدائها رجوعها، وإن تقدمت فإلى أحبابها مصيرها، وإن وقفت في طريقها أدركها أعداؤها، فإنهم وراءها في الطلب، ولا بد لها من قسم من هذه الأقسام الثلاثة فلتختر أَيها شاءت.

وليجعل حديث الأحبة حاديها وسائقها، ونور معرفتهم وإرشادهم هاديها ودليلها، وصدق ودادهم وحبهم غذاءها وشرابها ودواءها، ولا يوحشه انفراده في طريق سفره، ولا يغتر بكثرة المنقطعين فألم انقطاعه وبعاده واصل إليه دونهم، وحظه من القرب والكرامة مختص به دونهم، فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم؟!

وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم، بل هي من عوارض الطريق، فسوف تبدو له الخيام، وسوف يخرج إليه الملتقون يهنئونه بالسلامة والوصول إليهم، فيا قرة عينه إذ ذاك! ويا فرحته إذ يقول: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦- ٢٧]!».

⊙⊙⊙⊙⊙

شواهد السائر إلى الله تعالى

قال ابن القيم لله دره[1]: «أول شواهد السائر إلى الله والدار الآخرة أن يقوم به شاهد من الدنيا وحقارتها، وقلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها، وسرعة انقضائها، ويرى أهلها وعشاقَها صرعى حولها، قد بدّعت بهم، وعذبتهم بأنواع العذاب، وأذاقتهم أمر الشراب، أضحكتهم قليلًا، وأبكتهم طويلًا، سقتهم كؤوس سمها، بعد كؤوس خمرها، فسكروا بحبها، وماتوا بهَجرها.

فإذا قام بالعبد هذا الشاهد منها ترحل قلبه عنها، وسافر في طلب الدار الآخرة، وحينئذ يقوم بقلبه شاهد من الآخرة ودوامها، وأنها هي الحيوان حقًّا، فأهلها لا يرتحلون منها، ولا يظعنون عنها، بل هي دار القرار، ومحط الرحال، ومنتهى السير، وأن الدنيا بالنسبة إليها كما قال النبي ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟»[2].

ثم يقوم بقلبه شاهد من النار، وتوقدها واضطرامها، وبعد قعرها، وشدة حرها، وعظيم عذاب أهلها، فيشاهدهم وقد سيقوا إليها سود الوجوه، زرق العيون، والسلاسل والأغلال في أعناقهم، فلما انتهَوا إليها فتحت في وجوههم أبوابها، فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع، وقد تقطعت قلوبهم حسرة وأسفًا، ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف:٥٣].

فأراهم شاهد الإيمان وهم إليها يدفعون، وأتى النداء من قبل رب العالمين: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات:٢٤]. ثم قيل لهم: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾

(١) «مدارج السالكين» (٣/٢٣٥-٢٤٠) مختصرًا. قلت: وهو كلام كثير الفائدة، عظيم العائدة، من الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى، إذ قد تضمن أقرب الوسائل في إيقاظ النفس، وحثها على العزوف عن الدنيا، والجِد في سلوك طريق الآخرة، والعمل من أجل حياتها الباقية، فلْيُعَضّ عليه بالنواجذ.

(٢) أخرجه بنحوه مسلم (٢٨٥٨) وغيره.

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٤-١٦]. فأراهم شاهد الإيمان وهم في الحميم على وجوههم يسحبون، وفي النار كالحطب يسجرون، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١]، فبئس اللحاف! وبئس الفراش! وإن استغاثوا من شدة العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩]، فإذا شربوه قطّع أمعاءهم في أجوافهم، وصهر ما في بطونهم، شرابهم الحميم، وطعامهم الزقوم، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٦-٣٧].

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد انخلع من الذنوب والمعاصي واتباع الشهوات، ولبس ثياب الخوف والحذر، وأخصب قلبه من مطر أجفانه، وهان عليه كل مصيبة تصيبه في غير دينه وقلبه، وعلى حسب قوة هذا الشاهد يكون بعده من المعاصي والمخالفات، فيذيب هذا الشاهد من قلبه الفضلات والمواد المهلكة، وينضجها ثم يخرجها، فيجد القلب لذة العافية وسرورها.

فيقوم به بعد ذلك شاهد من الجنة، وما أعد الله لأهلها فيها، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فضلًا عما وصفه الله لعباده على لسان رسوله من النعيم المفصل، الكفيل بأعلى أنواع اللذة، من المطاعم والمشارب، والملابس والصور، والبهجة والسرور، فيقوم بقلبه شاهد دار قد جعل الله النعيم المقيم الدائم بحذافيره فيها، تربتها المسك، وحصباؤها الدر، وبناؤها لبن الذهب والفضة، وقصب اللؤلؤ، وشرابها أحلى

من العسل، وأطيب رائحة من المسك، وأبرد من الكافور، وألذ من الزنجبيل، ونساؤها لو برز وجه إحداهن في هذه الدنيا لغلب على ضوء الشمس، ولباسهم الحرير من السندس والإستبرق، وخدمهم ولدان كاللؤلؤ المنثور، وفاكهتهم دائمة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة، وغذاؤهم لحم طير مما يشتهون، وشرابهم عليه خمرة لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، وخضرتهم فاكهة مما يتخيرون، ومشاهدهم حور عين، كأمثال اللؤلؤ المكنون، فهم على الأرائك متكئون، وفي تلك الرياض يحبرون، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

فإذا انضم إلى هذا الشاهد شاهدُ يوم المزيد والنظر إلى وجه الرب جل جلاله وسماع كلامه منه بلا واسطة، وانضم هذا الشاهد إلى الشواهد التي قبله، فهناك يسير القلب إلى ربه أسرع من سير الرياح في مهابها، فلا يلتفت في طريقه يمينًا ولا شمالًا.

هذا، وفوق ذلك شاهد آخر تضمحل فيه هذه الشواهد، ويغيب به العبد عنها كلها، وهو شاهد جلال الرب تعالى، وجماله وكماله، وعزه وسلطانه، وقيوميته وعلوه فوق عرشه، وتكلمه بكتبه وكلمات تكوينه، وخطابه لملائكته وأنبيائه.

فإذا شاهده شاهد بقلبه قيومًا قاهرًا فوق عباده، مستويًا على عرشه، منفردًا بتدبير مملكته، آمرًا ناهيًا، مرسلًا رسله، ومنزلًا كتبه، يرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويحب ويبغض، ويرحم إذا استُرحم، ويغفر إذا استُغفر، ويعطي إذا سئل، ويجيب إذا دُعي، ويُقيل إذا استُقيل، أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأعز من كل شيء، وأقدر

من كل شيء، وأعلم من كل شيء، وأحكم من كل شيء، فلو كانت قوى الخلائق كلهم على واحد منهم، ثم كانوا كلهم على تلك القوة، ثم نسبت تلك القوى إلى قوة البعوضة بالنسبة إلى قوة الأسد، ولو قدر جمال الخلق كلهم على واحد منهم، ثم كانوا كلهم بذلك الجمال، ثم نسب إلى جمال الرب تعالى، لكان دون سراج ضعيف بالنسبة إلى عين الشمس، ولو كان علم الأولين والآخرين على رجل منهم، ثم كان كل الخلق على تلك الصفة، ثم نسب إلى علم الرب تعالى، لكان ذلك بالنسبة إلى علم الرب كنقرة عصفور في بحر، وهكذا سائر صفاته، كسمعه وبصره، وسائر نعوت كماله، فإنه يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، سواء عنده من أسر القول ومن جهر به، فالسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة، يرى دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، ويرى نياط عروقها، ومجاري القوت في أعضائها، يضع السماوات على إصبع من أصابع يده، والأرض على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، ويقبض سماواته بإحدى يديه، والأرضين باليد الأخرى، فالسماوات السبع في كفه كخردلة في كف العبد، ولو أن الخلق كلهم من أولهم إلى آخرهم قاموا صفًّا واحدًا ما أحاطوا بالله عز وجل، لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه.

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد اضمحلت فيه الشواهد المتقدمة من غير أن تعدم، بل تصير الغلبة والقهر لهذا الشاهد، وتندرج فيه الشواهد كلها، ومَنْ هذا شاهده فله سلوك وسير خاص، ليس لغيره ممن هو عن هذا في غفلة، أو معرفة مجملة.

فصاحب هذا الشاهد سائر إلى الله في يقظته ومنامه، وحركته وسكونه،

وفطره وصيامه، له شأن وللناس شأن، هو في واد والناس في واد.

خلــيليَّ لا والله مــا أنــا منكمــا إذا عَلَــمٌ مــن آل ليــلى بــدا لِيــا

فلا تزال شواهد الصفات قائمة بقلبه، توقظه إذا رقد، وتذكره إذا غفل، وتحدو به إذا سار، وتقيمه إذا قعد:

إن قام بقلبه شاهد من الربوبية والقيومية رأى أن الأمر كله لله، ليس لأحد معه من الأمر شيء.

وإن قام بقلبه شاهد من الإلهية رأى في ذلك الشاهد الأمر والنهي، والنبوات، والكتب والشرائع، والمحبة والرضا، والكراهة والبغض، والثواب والعقاب، وشاهد الأمر نازلًا ممن هو مستو على عرشه، وأعمال العباد صاعدة إليه ومعروضة عليه، يجزي بالإحسان منها في هذه الدار، وفي العقبى نضرة وسرورًا، ويَقدِم إلى ما لم يكن على أمره وشرعه منها فيجعله هباء منثورًا.

وإن قام بقلبه شاهد من الرحمة رأى الوجود كله قائمًا بهذه الصفة، قد وسع مَنْ هي صفته كل شيء رحمة وعلمًا، وانتهت رحمته إلى حيث انتهى علمه، فاستوى على عرشه برحمته لتسع كل شيء، كما وسع عرشه كل شيء.

وإن قام بقلبه شاهد العزة والكبرياء والعظمة والجبروت فله شأن آخر.

وهكذا جميع شواهد الصفات، فما ذكرناه إنما هو أدنى تنبيه عليها».

⦿⦿⦿⦿⦿

حياة الفرح والسرور

قال ابن القيم[(١)]: أول طريقها أن تعرف الله وتهتدي إليه طريقًا يوصلك إليه، ويحرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة، فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة،

(١) «مدارج السالكين» (٣/٢٥١-٢٥٢)، وهو مقتطع من كلام نفيس، فلينظره من شاء.

فينجذب إليها بكليته، ويزهد في التعلقات الفانية، ويدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات الظاهرة والباطنة، ثم يقوم حارسًا على قلبه، فلا يسامحه بخطرة يكرهها الله، ولا بخطرة فضول لا تنفعه، فيصفو بذلك قلبه عن حديث النفس ووسواسها، فيُفْدَى من أسرها ويصير طليقًا، فحينئذ يخلو قلبه بذكر ربه ومحبته والإنابة إليه، ويخرج من بين بيوت طبعه ونفسه إلى فضاء الخلوة بربه وذكره، كما قيل:

وأخــرج مــن بــين البيــوت لعلــني   أحدث عنك النفس في الســر خاليـا

فحينئذ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه وطلبه والشوق إليه.

فإذا صدق في ذلك رُزِق محبة الرسول ﷺ، واستولت روحانيته على قلبه، فجعله إمامه ومعلمه وأستاذه وشيخه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهاديًا إليه، فيطالع سيرته ومبادئ أمره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه.

فإذا رسخ قلبه في ذلك فُتِح عليه بفهم الوحي المنزل عليه من ربه، بحيث لو قرأ السورة شاهد قلبه ما أنزلت فيه، وما أريد بها، وحظه المختص به منها، من الصفات والأخلاق والأفعال المذمومة، فيجتهد في التخلص منها كما يجتهد في الشفاء من المرض المخوِّف، وشاهد حظه من الصفات والأفعال الممدوحة، فيجتهد في تكميلها وإتمامها.

فإذا تمكن من ذلك انفتح في قلبه عين أخرى، يشاهد بها صفات الرب جل جلاله، حتى تصير لقلبه بمنزلة المرئي لعينه، فيشهد علو الرب سبحانه فوق خلقه، واستواءه على عرشه، ونزول الأمر من عنده بتدبير مملكته، وتكليمه

بالوحي، وتكليمه لعبده جبريل به، وإرساله إلى من يشاء بما يشاء، وصعود الأمور إليه، وعرضها عليه.

فيشاهد قلبه ربًّا قاهرًا فوق عباده، آمرًا ناهيًا، باعثًا لرسله، منزلًا لكتبه، معبودا مطاعًا، لا شريك له ولا مثيل ولا عِدل له، ليس لأحد معه من الأمر شيء، بل الأمر كله له، فيشهد ربه سبحانه قائمًا بالملك والتدبير، فلا حركة ولا سكون ولا نفع ولا ضر ولا عطاء ولا منع ولا قبض ولا بسط إلا بقدرته وتدبيره، فيشهد قيام الكون كله به وقيامه سبحانه بنفسه، فهو القائم بنفسه المقيم لكل ما سواه.

فإذا رسخ قلبه في ذلك شهد الصفة المصححة لجميع صفات الكمال، وهي الحياة، التي كمالها يستلزم كمال السمع والبصر والقدرة والإرادة والكلام وسائر صفات الكمال، وصفة القيومية المصححة لجميع الأفعال، فالحي القيوم: من له كل صفة كمال، وهو الفعال لما يريد.

فإذا رسخ قلبه في ذلك فُتِح له مشهد القرب والمعية، فيشهده سبحانه معه غير غائب عنه، قريبًا غير بعيد، مع كونه فوق سماواته على عرشه، بائنًا من خلقه، قائمًا بالصنع والتدبير والخلق والأمر، فيحصل له مع التعظيم والإجلال الأنس بهذه الصفة، فيأنس به بعد أن كان مستوحشًا، ويقوى به بعد أن كان ضعيفًا، ويفرح به بعد أن كان حزينًا، ويجد بعد أن كان فاقدًا، فحينئذ يجد طعم قوله: «وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»[١].

⦿⦿⦿⦿⦿

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) وغيره، وانظر لفظه (صفحة ٤٤٣).

سعادة الإنسان

متوقفة على قوتيه العلمية والعملية

قال ابن القيم[1]: «للإنسان قوتان: قوة علمية نظرية، وقوة عملية إرادية، وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيه: العلمية والإرادية.

واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه، ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه، ومعرفة عيوبها؟ فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية، وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها.

واستكمال القوة العملية الإرادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد، والقيام بها إخلاصًا وصدقًا ونصحًا وإحسانًا ومتابعة وشهودًا لمنته عليه وتقصيره هو في أداء حقه، فهو مستحي من مواجهته بتلك الخدمة[2] لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه، ودون دون ذلك، وأنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته، فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم الذي هدى إليه أولياءه وخاصته، وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط، إما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال، وإما في قوته العملية فيوجب له الغضب، فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور.

وقد تضمنتها «سورة الفاتحة» وانتظمتها أكمل انتظام، فإن قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢-٤]، يتضمن الأصل الأول، وهو معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، والأسماء المذكورة في هذه

---

(١) «الفوائد» (ص ٢٩-٣١). وتقدم قبل قليل نحو هذا الكلام.

(٢) ينبغي أن يقال: الطاعة أو العبادة، أو نحو ذلك، لا الخدمة!

السورة هي أصول الأسماء الحسنى، وهي اسم الله والرب والرحمن، فاسم الله متضمن لصفات الألوهية، واسم الرب متضمن لصفات الربوبية، واسم الرحمن متضمن لصفات الإحسان والجود والبر، ومعاني أسمائه تدور على هذا.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه، واستعانته على عبادته.

وقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له، كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعونته، فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهدايته.

وقوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧]، يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل.

فأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظه منها على قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته، والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته، فلا يكون إلا رحيمًا منعمًا، وذلك من موجبات إلهيته، فهو الإله الحق وإن جحده الجاحدون وعدل به المشركون.

فمن تحقق بمعاني الفاتحة علمًا ومعرفة، وعملًا وحالًا، فقد فاز من كماله بأوفر نصيب، وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبدين، والله المستعان».

⊙⊙⊙⊙⊙

النفس جبل عظيم شاق
في طريق السير إلى الله عز وجل

قال ابن القيم[(١)]: «النفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله عز وجل، وكل سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل، فلا بد أن ينتهي إليه، ولكن منهم من هو شاق عليه، ومنهم من هو سهل عليه، وإنه ليسير على من يسره الله عليه.

وفي ذلك الجبل أودية وشعوب، وعقبات ووهود، وشوك وعوسج، وعُلَّيق وشَبْرق، ولصوص يقتطعون الطريق على السائرين، ولا سيما أهل الليل المدلجين، فإذا لم يكن معهم عُدد الإيمان، ومصابيح اليقين تتقد بزيت الإخبات، وإلا تعلقت بهم تلك الموانع، وتشبثت بهم تلك القواطع، وحالت بينهم وبين السير، فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته.

والشيطان على قُلة ذلك الجبل يحذر الناس من صعوده وارتفاعه، ويخوفهم منه، فيتفق مشقة الصعود وقعود ذلك المخوِّف على قُلته، وضعف عزيمة السائر ونيته، فيتولد من ذلك الانقطاع والرجوع، والمعصوم من عصمه الله.

وكلما رقى السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع، وتحذيره وتخويفه، فإذا قطعه وبلغ قلته انقلبت تلك المخاوف كلهن أمانًا، وحينئذ يسهل السير، وتزول عنه عوارض الطريق ومشقة عقباتها، ويرى طريقًا واسعًا آمنًا، يفضي به إلى المنازل والمناهل، وعليه الأعلام، وفيه الإقامات، قد أُعدتْ لركب الرحمن.

فبين العبد وبين السعادة والفلاح قوة عزيمة، وصبر ساعة، وشجاعة نفس، وثبات قلب، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

⦿⦿⦿⦿⦿

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٧-٨).

طريقا معرفة الله عز وجل

قال ابن القيم[(١)]: «الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين:

أحدهما: النظر في مفعولاته. والثاني: التفكر في آياته وتدبرها. فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة.

فالنوع الأول كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة:١٦٤]. إلى آخرها. وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠]. وهو كثير في القرآن.

والثاني كقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء:٨٢، ومحمد:٢٤]. وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]. وقوله ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]. وهو كثير أيضًا.

فأما المفعولات: فإنها دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات، فإن المفعول يدل على فاعل فعله، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه، لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة، ثم ما في المفعولات من التخصيصات المتنوعة دال على إرادة الفاعل، وأن فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحدًا غير متكرر، وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالى، وما فيها من النفع والإحسان والخير دال على رحمته، وما فيها من البطش والانتقام والعقوبة دال على غضبه، وما

---

(١) «الفوائد» (ص ٣١-٣٣).

فيها من الإكرام والتقريب والعناية دال على محبته، وما فيها من الإهانة والإبعاد والخِذلان دال على بغضه ومقته، وما فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف ثم سوقه إلى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد، وما فيها من أحوال النبات والحيوان وتصرف المياه دليل على إمكان المعاد، وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليل على صحة النبوات، وما فيها من الكمالات التي لو عدمتها كانت ناقصة دليل على أن معطي تلك الكمالات أحق بها.

فمفعولاته من أدل شيء على صفاته، وصدق ما أخبرت به رسله عنه، فالمصنوعات شاهدة تصدق الآيات المسموعات، منبهة على الاستدلال بالآيات المصنوعات، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣][١].

أي: أن القرآن حق، فأخبر أنه لا بد من أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق، ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله، فآياته شاهدة بصدقه وهو شاهد بصدق رسوله بآياته، وهو الشاهد والمشهود له، وهو الدليل والمدلول عليه، فهو الدليل بنفسه على نفسه، كما قال بعض العارفين: كيف أطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟! فأي دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه، ولهذا قال الرسل لقومهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ [إبراهيم:١٠]. فهو أعرف من كل معروف، وأبين من كل دليل، فالأشياء عُرفت به في الحقيقة، وإن كان عرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه».

وقال[٢]: «معرفة الله سبحانه نوعان: معرفة إقرار، وهي التي اشترك فيها

(١) وتمامها: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣].

(٢) «الفوائد» (ص ٢٢١).

الناس، البَّر والفاجر، والمطيع والعاصي. والثاني: معرفة توجب الحياء منه والمحبة له وتعلق القلب به والشوق إلى لقائه وخشيته والإنابة إليه والأنس به والفرار من الخلق إليه، وهذه هي المعرفة الخالصة الجارية على لسان القوم، وتفاوتهم فيها لا يحصيه إلا الذي عرفهم بنفسه، وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم، وكل أشار إلى هذه المعرفة بحسب مقامه وما كشف له منها، وقد قال أعرف الخلق به: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[١]. وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يحسنه الآن[٢].

ولهذه المعرفة بابان واسعان: باب التفكر والتأمل في آيات القرآن كلها، والفهم الخاص عن الله ورسوله. والباب الثاني: التفكر في آياته المشهودة، وتأمل حكمته فيها، وقدرته ولطفه وإحسانه وعدله وقيامه بالقسط على خلقه.

وجماع ذلك: الفقه في معاني أسمائه الحسنى وجلالها وكمالها، وتفرده بذلك، وتعلقها بالخلق والأمر، فيكون فقيها في أوامره ونواهيه، فقيهًا في قضائه وقدره، فقيهًا في أسمائه وصفاته، فقيهًا في الحكم الديني الشرعي والحكم الكوني القدري، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

⦿⦿⦿⦿⦿

---

(١) وهو من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: فَقَدْتُ رسول الله ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته، فوقعتْ يَدِي على بطن قدميه، وهو في المسجد، وهما منصوبتان، وهو يقول:

«اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ». أخرجه مسلم (٤٨٦) وغيره.

وحديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن رسول ﷺ كان يقول في آخر وتره:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَ[أَعُوذُ] بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ». أخرجه أبو داود (١٤٢٧)، والترمذي (٣٥٦٦)، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٢) يشير إلى ما في «الصحيحين»، في حديث الشفاعة، وقوله ﷺ فيه: «وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لاَ تَحْضُرُنِي الآنَ». هذا أحد ألفاظ البخاري. وأحد ألفاظ مسلم: «فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الْآنَ، يُلْهِمُنِيهِ اللهُ».

قبول المحل لما يوضع فيه
مشروط بتفريغه من ضده

قال ابن القيم[١]: «قَبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده، وهذا كما أنه في الذوات والأعيان فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات، فإذا كان القلب ممتلئًا بالباطل اعتقادًا ومحبة لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع، كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لا ينفع لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه، إلا إذا فرّغ لسانه من النطق بالباطل، وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة لم يمكن شغلها بالطاعة إلا إذا فرّغها من ضدها، فكذلك القلب المشغول بمحبة غير الله وإرادته والشوق إليه والأنس به لا يمكن شغله بمحبة الله وارادته وحبه والشوق إلى لقائه إلا بتفريغه من تعلقه بغيره، ولا حركة اللسان بذكره والجوارح بخدمته[٢] إلا إذا فرغها من ذكر غيره وخدمته، فإذا امتلأ القلب بالشغل بالمخلوق والعلوم التي لا تنفع لم يبق فيها موضع للشغل بالله ومعرفة أسمائه وصفاته وأحكامه.

وسر ذلك أن إصغاء القلب كإصغاء الأذن، فإذا أصغى إلى غير حديث الله لم يبق فيه إصغاء ولا فهم لحديثه، كما إذا مال إلى غير محبة الله لم يبق فيه ميل إلى محبته، فإذا نطق القلب بغير ذكره لم يبق فيه محل للنطق بذكره، كاللسان.

ولهذا في «الصحيح»: عن النبي ﷺ أنه قال: «لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ

---

(١) «الفوائد» (ص ٣١-٣٣).

(٢) تتكرر هذه اللفظة في كلام ابن القيم رحمه الله! وهي أشبه بألفاظ المتصوفة! فينبغي أن يقال: طاعته وعبادته سبحانه.

قَيْحًا حَتَّى يَرِيَهُ[١] خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا»[٢].

فبين أن الجوف يمتلئ بالشعر، فكذلك يمتلئ بالشُبَه والشكوك، والخيالات والتقديرات التي لا وجود لها، والعلوم التي لا تنفع، والمفاكهات والمضاحكات والحكايات، ونحوها، وإذا امتلأ القلب بذلك جاءته حقائق القرآن والعلم الذي به كماله وسعادته فلم تجد فيه فراغًا لها ولا قبولًا، فتَعَدَّتْه وجاوزته إلى محل سواه، كما إذا بُذلت النصيحة لقلب ملآن من ضدها، لا منفذ لها فيه، فإنه لا يقبلها ولا تَلِج فيه، لكن تمر مجتازة لا مستوطنة».

⊙⊙⊙⊙⊙

اللذة تابعة للمحبة والمحبة تابعة للمعرفة

قال ابن القيم[٣]: «اللذة تابعة للمحبة، تقوى بقوتها وتضعف بضعفها، فكلما كانت الرغبة في المحبوب والشوق إليه أقوى كانت اللذة بالوصول إليه أتم، والمحبة والشوق تابع لمعرفته والعلم به، فكلما كان العلم به أتم كانت محبته أكمل، فإذًا رجع كمال النعيم في الآخرة وكمال اللذة إلى العلم والحب، فمن كان يؤمن بالله وأسمائه وصفاته وبه أعرف كان له أحب، وكانت لذته بالوصول إليه ومجاورته والنظر إلى وجهه وسماع كلامه أتم، وكل لذة ونعيم وسرور وبهجة بالإضافة إلى ذلك كقطرة في بحر، فكيف يؤثر من له عقل لذة ضعيفة قصيرة مشوبة بالآلام على لذة عظيمة دائمة أبد الآباد؟!! وكمال العبد بحسب هاتين القوتين: العلم والحب، وأفضل العلم العلم بالله، وأعلى الحب الحب له، وأكمل اللذة بحسبهما، والله المستعان».

⊙⊙⊙⊙⊙

---

(١) قال النووي: «قال أهل اللغة والغريب: (يَرِيهِ)، بفتح الياء وكسر الراء، من الوَرْيِ، وهو داء يفسد الجوف. ومعناه: قيحًا يأكل جوفه ويفسده».

(٢) أخرجه بهذا اللفظ تمامًا ابن ماجه (٣٧٦٠) وغيره، وهو في «الصحيحين» بألفاظ مشابهة.

(٣) «الفوائد» (ص ٧٠).

لا يستقيم السير
إلى الله تعالى والدار الآخرة إلا بحبسين

قال ابن القيم[1]: «طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الالتفات إلى غيره، وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته، وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها على الواجبات والمندوبات، فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه، فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه، ومتى لم يصبر على هذين الحبسين، وفر منهما إلى فضاء الشهوات، أعقبه ذلك الحبسَ الفظيع عند خروجه من الدنيا، فكل خارج من الدنيا إما متخلص من الحبس، وإما ذاهب إلى الحبس، وبالله التوفيق».

⦿⦿⦿⦿⦿

الهمة العلية
تحوم حول ثلاثة أشياء

قال ابن القيم[2]: «الهمة العلية لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء: تعرف لصفة من الصفات العليا تزداد بمعرفتها محبة وإرادة، وملاحظة لمنة تزداد بملاحظتها شكر أو طاعة، وتذكر لذنب تزداد بتذكره توبة وخشية، فإذا تعلقت الهمة بسوى هذه الثلاثة جالت في أودية الوساوس والخطرات».

⦿⦿⦿⦿⦿

(١) «الفوائد» (ص ٧٠-٧١).

(٢) «الفوائد» (ص ١٣٠).

عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها

قال ابن القيم[1]: «عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها:

علم لا يعمل به، وعمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء، ومال لا ينفق منه، فلا يستمتع به جامعه في الدنيا ولا يقدمه أمامه إلى الآخرة ،وقلب فارغ من محبة الله والشوق إليه والأنس به، وبدن معطل من طاعته وخدمته، ومحبة لا تتقيد برضاء المحبوب وامتثال أوامره، ووقت معطل عن استدراك فارط أو اغتنام بر وقربة، وفكر يجول فيما لا ينفع، وخدمة مَنْ لا تقربك خدمته إلى الله، ولا تعود عليك بصلاح دنياك، وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله، وهو أسير في قبضته، ولا يملك لنفسه حذرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

وأعظم هذه الإضاعات إضاعتان، هما أصل كل إضاعة: إضاعة القلب، وإضاعة الوقت، فإضاعة القلب من إيثار الدنيا على الآخرة، وإضاعة الوقت من طول الأمل، فاجتمع الفساد كله في إتباع الهوى وطول الأمل، والصلاح كله في اتباع الهدى والاستعداد للِّقاء، والله المستعان».

⦿⦿⦿⦿⦿

حفظ الوقت

وأقرب الطرق إلى دخول الجنة

قال ابن القيم[2]: «نصيحة: هَلُمَّ إلى الدخول على الله ومجاورته في دار السلام، بلا نصب ولا تعب ولا عناء، بل من أقرب الطرق وأسهلها، وذلك أنك في وقت بين وقتين، وهو في الحقيقة عمرك، وهو وقتك الحاضر بين ما مضى

---

(١) «الفوائد» (ص ١٤٦).

(٢) «الفوائد» (ص ١٥١-١٥٢).

وما يستقبل، فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب ولا معاناة عمل شاق، إنما هو عمل قلب، وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب، وامتناعك ترك وراحة ليس هو عملًا بالجوارح يشق عليك معاناته، وإنما هو عزم ونية جازمة تريح بدنك وقلبك وسرك، فما مضى تصلحه بالتوبة، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية، وليس للجوارح في هذين نصب ولا تعب.

ولكن الشأن في عمرك وهو وقتك الذي بين الوقتين، فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكرت نجوت وفزت بالراحة واللذة والنعيم، وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده، فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها وأعظم تحصيلًا لسعادتها، وفي هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت، فهي والله أيامك الخالية التي تجمع فيها الزاد لمعادك، إما إلى الجنة إما إلى النار، فإن اتخذت إليها سبيلًا إلى ربك بلغت السعادة العظمى والفوز الأكبر، في هذه المدة اليسيرة التي لا نسبة لها إلى الأبد، وإن آثرت الشهوات والراحات واللهو واللعب انقضت عنك بسرعة، وأعقبتك الألم العظيم الدائم، الذي مقاساته ومعاناته أشق وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله والصبر على طاعته ومخالفة الهوى لأجله»

⊙⊙⊙⊙⊙

مبنى الدين على قاعدتين

قال ابن القيم[1]: «مبنى الدين على قاعدتين: الذكر والشكر.

قال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ [البقرة:١٥٢].

---

(١) «الفوائد» (ص ١٦٦).

وقال النبي لمعاذ: والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللـهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك[1].

وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان، بل الذكر القلبي واللساني، وذكره يتضمن ذكر أسمائه وصفاته، وذكر أمره ونهيه، وذكره بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله، والثناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتم إلا بتوحيده، فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه.

وأما الشكر فهو القيام بطاعته والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهرًا وباطنًا.

وهذان الأمران هما جماع الدين، فذكره مستلزم لمعرفته، وشكره متضمن لطاعته، وهذان هما الغاية التي خلق لأجلها الجن والإنس والسموات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكتب وأرسل الرسل، وهي الحق الذي به خلقت السماوات والأرض وما بينهما.

وضدها هو الباطل والعبث الذي يتعالى ويتقدس عنه، وهو ظن أعدائه به، قال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ [البقرة:١٥٢].

وقال: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۞ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ [الدخان:٣٩-٣٩].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ ﴾ [الحجر:٨٥].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٢) وغيره، من حديث أبي عبد الرحمن الحُبُلِيُّ، عن الصُّنَابِحِيّ، عن معاذ بن جبل، أن رسول ﷺ أخذ بيده وقال: «يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ». فقال: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ: لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ». وأوصى بذلك معاذٌ الصُّنَابِحِيَّ، وأوصى به الصُّنَابِحِيُّ أبا عبد الرحمن. وصححه الألباني.

وقال بعد ذكر آياته في أول «سورة يونس»: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [يونس:٥].

وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦].

وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

[وقال]: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

وقال: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٩٧].

فثبت بما ذكر أن غاية الخلق والأمر أن يذكر وأن يشكر، يذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر، وهو سبحانه ذاكر لمن ذكره شاكر لمن شكره، فذكره سبب لذكره وشكره سبب لزيادته من فضله، فالذكر للقلب واللسان والشكر للقلب محبة وإنابة، وللسان ثناء وحمد وللجوارح طاعة وخدمة».

⦿⦿⦿⦿⦿

شكر النعم

قال ابن القيم(١): «قاعدة جليلة. قد فكرت في هذا الأمر، فإذا أصله أن تعلم أن النعم كلها من الله وحده، نعم الطاعات ونعم اللذات، فترغب إليه أن يلهمك ويوزعك شكرها، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣]، وقال: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩].

(١) «الفوائد» (ص ١٩٨)، ولكلامه بقية.

وقال: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [النحل:١١٤]. وكما أن تلك النعم منه، ومن مجرد فضله، فذكرها وشكرها لا يُنال إلا بتوفيقه، والذنوب من خِذلانه وتَخَلِّيه عن عبده، وتَخْلِيته بينه وبين نفسه، وإن لم يَكشف ذلك عن عبده فلا سبيل له إلى كشفه عن نفسه، فإذًا هو مضطر إلى التضرع والابتهال إليه أن تُدفع عنه أسبابُها حتى لا تصدر منه، وإذا وقعت بحكم المقادير ومقتضى البشرية فهو مضطر إلى التضرع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها، فلا ينفك العبد عن ضرورته إلى هذه الأصول الثلاثة، ولا فلاح له إلا بها: الشكر، وطلب العافية، والتوبة النصوح».

⊙⊙⊙⊙⊙

الإنابة شرط في التذكر

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣].

وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ * وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ * تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾.[ق:٦-٨].

وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ [سبأ:٩].

⊙⊙⊙⊙⊙

عقوبة المعصية وثواب الطاعة

قال ابن القيم[(١)]: «قلة التوفيق، وفساد الرأي، وخفاء الحق، وفساد القلب،

---

(١) «الفوائد» (ص ٤٧).

وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونفرة الخلق، والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم، ولباس الذل، وإهانة العدو، وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضنك المعيشة، وكسف البال، تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله، كما يتولد الزرع عن الماء والإحراق عن النار، وأضداد هذه تتولد عن الطاعة».

وقال(١): «الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة، فإنها إما أن توجب ألمًا وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضيع وقتًا إضاعته حسرة وندامة، وإما أن تثلم عرضًا توفيره أنفع للعبد من ثلمه، وإما أن تذهب مالًا بقاؤه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدْرًا وجاهًا قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب همًّا وغمًّا وحزنًا وخوفًا لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسي علمًا ذِكره ألذ من نيل الشهوة، وإما أن تشمت عدوًّا وتحزن وليًّا، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تحدث عيبًا يبقى صفة لا تزول، فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق».

وقال(٢): «سبحان الله رب العالمين! لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلا إقامة المروءة، وصون العرض، وحفظ الجاه، وصيانة المال الذي جعله الله قَوَامًا لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق، وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفساق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن

---

(١) «الفوائد» (ص ١٨٢-١٨٣).

(٢) «الفوائد» (ص ١٩٨-١٩٩).

احتمال الذل، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسر الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم، والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء له، والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تلقى له في قلوب الناس، وانتصارهم وحميتهم له إذا أوذي وظُلم، وذبهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقرب الملائكة منه، وبعد شياطين الإنس والجن منه، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به لقدومه على ربه ولقائه له ومصيره إليه، وصِغَر الدنيا في قلبه، وكبر الآخرة عنده وحرصه على الملك الكبير والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووَجْد حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبين به ودعائهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه وفرحه بتوبته، وهكذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبة له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه، فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا.

فإذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة ينعم فيها إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحر والعرق وهو في ظل العرش، فإذا انصرفوا من بين يدي الله أُخِّذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

⊙⊙⊙⊙⊙

حدود الأخلاق

قال ابن القيم(١): «للأخلاق حد متى جاوزته صارت عدوانًا، ومتى قصرت عنه كان نقصًا ومهانة.

فللغضب حد وهو الشجاعة المحمودة والأنفة من الرذائل والنقائص، وهذا كماله فإذا جاوز حده تعدى صاحبه وجار، وإن نقص عنه جبن ولم يأنف من الرذائل.

وللحرص حد وهو الكفاية في أمور الدنيا وحصول البلاغ منها، فمتى نقص من ذلك كان مهانة وإضاعة، ومتى زاد عليه كان شَرَهًا ورغبة فيما لا تحمد الرغبة فيه.

وللحسد حد وهو المنافسة في طلب الكمال والأنفة أن يتقدم عليه نظيره، فمتى تعدى ذلك صار بغيًا وظلمًا يتمنى معه زوال النعمة عن المحسود ويحرص على إيذائه، ومتى نقص عن ذلك كان دناءة وضعف همة وصِغَر نفس. قال النبي ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ»(٢).

فهذا حسد منافسة، يطالب الحاسد به نفسه أن يكون مثل المحسود، لا حسد مهانة يتمنى به زوال النعمة عن المحسود.

وللشهوة حد وهو راحة القلب والعقل من كد الطاعة واكتساب الفضائل، والاستعانة بقضائها على ذلك، فمتى زادت على ذلك صارت نَهْمة، وشَبَقًا والتحق صاحبها بدرجة الحيوانات، ومتى نقصت عنه ولم يكن فراغًا في

---

(١) «الفوائد» (ص ١٨٣-١٨٥).

(٢) متفق عليه، دون الكلمة الأخيرة: «النَّاسَ». وهي عند أحمد في «المسند» (٣٦٥١).

طلب الكمال والفضل كانت ضعفًا وعجزًا ومهانة.

وللراحة حد وهو إجمام النفس والقوى المدركة والفعالة للاستعداد للطاعة واكتساب الفضائل وتوفرها على ذلك، بحيث لا يضعفها الكد والتعب ويضعف أثرها، فمتى زاد على ذلك صار توانيًا وكسلًا وإضاعة، وفات به أكثر مصالح العبد، ومتى نقص عنه صار مضرًا بالقوى موهنًا لها، وربما انقطع به، كالمُنْبَتِّ الذي لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى.

والجود له حد بين طرفين فمتى جاوز حده صار إسرافًا وتبذيرًا، ومتى نقص عنه كان بخلًا وتقتيرًا؟

وللشجاعة حد متى جاوزته صارت تهورًا، ومتى نقصت عنه صارت جبنًا وخَوَرًا، وحدها الإقدام في مواضع الإقدام والإحجام في مواضع الإحجام ،كما قال معاوية لعمرو بن العاص: أعياني أن أعرف أشجاعًا أنت أم جبانًا[1]؟! تُقْدم حتى أقول: من أشجع الناس! وتجبن حتى أقول من أجبن الناس! فقال:

شجاع إذا ما أمكنتْني فرصةٌ　　　فإن لم تكن لي فرصة فجبانُ

والغيرة لها حد إذا جاوزته صارت تهمة وظنًّا سيئًا بالبريء، وإن قصرت عنه كانت تغافلًا ومبادئ دياثة.

وللتواضع حد إذا جاوزه كان ذلًّا ومهانة، ومن قصر عنه انحرف إلى الكبر والفخر.

وللعز حد إذا جاوزه كان كبرًا وخُلُقًا مذمومًا، وإن قصر عنه انحرف إلى الذل والمهانة.

(١) كذا هي في الأصول المطبوعة! وحقها أن تكون بالرفع. والقصة مقلوبة، إنما قيل هذا القول لمعاوية رضي الله عنه. نبه عليه محقق «الفوائد - طبعة بكر أبو زيد».

وضابط هذا كله العدل، وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة، بل لا تقوم مصلحة البدن إلا به، فإنه متى خرج بعض أخلاطه عن العدل وجاوزه أو نقص عنه ذهب من صحته وقوته بحسب ذلك.

وكذلك الأفعال الطبيعية كالنوم والسهر والأكل والشرب والجماع والحركة والرياضة والخلوة والمخالطة وغير ذلك، إذا كانت وسطًا بين الطرفين المذمومين كانت عدلًا، وإن انحرفت إلى أحدهما كانت نقصًا وأثمرت نقصًا.

فمن أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود، ولا سيما حدود المشروع المأمور والمنهي، فأعلم الناس أعلمهم بتلك الحدود، حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج منها ما هو داخل فيها، قال تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة:٩٧]. فأعدل الناس من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات، معرفة وفعلًا، وبالله التوفيق».

⦿⦿⦿⦿⦿

أصل الأخلاق الممدوحة والمذمومة

قال ابن القيم[1]: «أصل الأخلاق المذمومة كلها الكبر والمهانة والدناءة، وأصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوع وعلو الهمة، فالفخر والبطر والأَشَر والعُجب والحسد والبغي والخيلاء والظلم والقسوة والتجبر والإعراض وإباء قبول النصيحة والاستئثار وطلب العلو وحب الجاه والرئاسة وأن يحمد بما لم يفعل وأمثال ذلك كلها ناشئة من الكبر.

---

(١) «الفوائد» (ص ١٨٨-١٨٩).

وأما الكذب والخسة والخيانة والرياء والمكر والخديعة والطمع والفزع والجبن والبخل والعجز والكسل، والذل لغير الله، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، ونحو ذلك، فإنها من المهانة والدناءة وصِغَر النفس.

وأما الأخلاق الفاضلة كالصبر والشجاعة والعدل والمروءة والعفة والصيانة والجود والحلم والعفو والصفح والاحتمال والإيثار، وعزة النفس عن الدناءات، والتواضع والقناعة والصدق والأخلاق، والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضل، والتغافل عن زلات الناس، وترك الانشغال بما لا يعنيه، وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة، ونحو ذلك، فكلها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة.

والله سبحانه أخبر عن الأرض بأنها تكون خاشعة، ثم ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتأخذ زينتها وبهجتها، فكذلك المخلوق منها إذا أصابه حظه من التوفيق.

وأما النار فطبعها العلو والإفساد، ثم تخمد فتصير أحقر شيء وأذله، وكذلك المخلوق منها، فهي دائمًا بين العلو إذا هاجت واضطربت وبين الخسة والدناءة إذا خمدت وسكنت.

والأخلاق المذمومة تابعة للنار والمخلوق منها، والأخلاق الفاضلة تابعة للأرض والمخلوق منها، فمن علت همته وخشعت نفسه اتصف بكل خلق جميل، ومن دنت همته وطغت نفسه اتصف بكل خلق رذيل».

⦿⦿⦿⦿⦿

الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد وقطع العوائق والعلائق

قال ابن القيم[١]: «الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد وقطع

(١) «الفوائد» (ص ٢٠١-٢٠٢).

العوائق، فالعوائد: السكون إلى الدَّعة والراحة، وما ألفه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المتَّبَع، بل هي عندهم أعظم من الشرع، فإنهم ينكرون على من خرج عنها وخالفها ما لا ينكرون على من خالف صريح الشرع، وربما كفروه أو بدعوه وضللوه أو هجروه وعاقبوه لمخالفة تلك الرسوم، وأماتوا لها السنن ونصبوها أندادًا للرسول، يوالون عليها ويعادون، فالمعروف عندهم ما وافقها والمنكر ما خالفها.

وهذه الأوضاع والرسوم قد استولت على طوائف بني آدم من الملوك والولاة والفقهاء والصوفية والفقراء والمطوعين والعامة، فربِّي فيها الصغير ونشأ عليها الكبير، واتُّخذت سننًا، بل هي أعظم عند أصحابها من السنن، الواقف معها محبوس والمتقيد بها منقطع، عم بها المصاب وهُجر لأجلها السنة والكتاب، من استنصر بها فهو عند الله مخذول، ومن اقتدى بها دون كتاب الله وسنة رسوله فهو عند الله غير مقبول، وهذه أعظم الحجب والموانع بين العبد وبين النفوذ إلى الله ورسوله.

وأما العوائق: فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها، فإنها تعوق القلب عن سيره إلى الله وتقطع عليه طريقه، وهي ثلاثة أمور: شرك وبدعة ومعصية، فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد، وعائق البدعة بتحقيق السنة، وعائق المعصية بتصحيح التوبة، وهذه العوائق لا تتبين للعبد حتى يأخذ في أهبة السفر، ويتحقق بالسير إلى الله والدار والآخرة، فحينئذ تظهر له هذه العوائق ويحس بتعويقها له، بحسب قوة سيره وتجرده للسفر، وإلا فما دام قاعدًا لا يظهر له كوامنها وقواطعها.

وأما العلائق: فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله، من ملاذ الدنيا

وشهواتها، ورياستها، وصحبة الناس والتعلق بهم، ولا سبيل له إلى قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلى، وإلا فقطعها عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع، فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحب إليها منه وآثر عندها منه، وكلما قوي تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره، وكذا بالعكس، والتعلق بالمطلوب هو شدة الرغبة فيه، وذلك على قدر معرفته به وشرفه وفضله على ما سواه».

وقال[1]: «إذا عزم العبد على السفر إلى الله تعالى وإرادته عرضت له الخوادع والقواطع، فينخدع أولًا بالشهوات والرياسات والملاذ والمناكح والملابس، فإن وقف معها انقطع، وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه ابتُلي بوطء عَقِبه وتقبيل يده، والتوسعة له في المجلس، والإشارة إليه بالدعاء ورجاء بركته، ونحو ذلك، فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان حظَّه منه، وإن قطعه ولم يقف معه ابتُلي بالكرامات والكشوفات، فإن وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظَّه، وإن لم يقف معها ابتُلي بالتجريد والتخلي ولذة الجمعية وعزة الوحدة والفراغ من الدنيا، فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود، وإن لم يقف معه وسار ناظرًا إلى مراد الله منه وما يحبه منه، بحيث يكون عبده الموقوف على محابه ومراضيه أين كانت وكيف كانت، تعب بها أو استراح، تنعم أو تألم، أخرجته إلى الناس أو عزلته عنهم، لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليه وسيده، واقف مع أمره ينفذه بحسب الإمكان، ونفسه عنده أهون عليه أن يقدم راحتها ولذتها على مرضاة سيده وأمره، فهذا هو العبد الذي قد وصل ونفذ ولم يقطعه عن سيده شيء، وبالله التوفيق».

⊙⊙⊙⊙⊙

---

(١) «الفوائد» (ص ٢٢٣-٢٢٤).

علامات السعادة وعلامات الشقاوة

قال ابن القيم[(١)]: «من علامات السعادة والفلاح: أن العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره نقص من حرصه، وكلما زيد في ماله زيد في سخائه وبذله، وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم.

وعلامات الشقاوة: أنه كلما زيد في علمه زيد في كبره وتيهه، وكلما زيد في عمله زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه، وكلما زيد في عمره زيد في حرصه، وكلما زيد في ماله زيد في بخله وإمساكه، وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في كبره وتيهه.

وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان، يبتلي بها عباده، فيَسعد بها أقوام ويشقى بها أقوام، وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء، كالمِلك والسلطان والمال، قال تعالى عن نبيه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النمل: ٤٠].

فالنعم ابتلاء من الله وامتحان يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور، كما أن المحن بلوى منه سبحانه، فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب، قال تعالى: فأما الأنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن كلا ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۞ كَلَّاۖ﴾ [الفجر: ١٥-١٧]؛ أي: ليس كل من وسعت عليه وأكرمته ونعمته يكون ذلك إكرامًا مني له، ولا كل من ضيقت عليه رزقه وابتليته يكون ذلك إهانة مني له».

⦿⦿⦿⦿⦿

---

(١) «الفوائد» (ص ٢٠٣).

علو البنيان على قدر توثيق الأساس
ويكون بالإخلاص والمتابعة

قال ابن القيم[1]: «من أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدة الاعتناء به، فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه، فالأعمال والدرجات بنيان وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقًا حمل البنيان واعتلى عليه، وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد.

فالعارف همته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس، فلا يلبث بنيانه أن يسقط، قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة:١٠٩]، فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية حملت البدن ودفعت عنه كثيرًا من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة ضعف حملها للبدن، وكانت الآفات إليه أسرع شيء.

فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان، فإذا تشعث شيء من أعالي البناء وسطحه كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس، وهذا الأساس أمران: صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته. والثاني: تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه. فهذا أوثق أساس أسس العبد عليه بنيانه، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء، فأحكمْ الأساس، واحفظ القوة، ودم على الحمية، واستفرغ إذا زاد بك الخلط، والقصد القصد، وقد بلغت المراد، وإلا فما دامت القوة ضعيفة والمادة الفاسدة موجودة والاستفراغ معدومًا:

---

(١) «الفوائد» (ص ٢٠٤-٢٠٦).

فاقْرَ السـلام على الحيـاة فإنهـا قـد آذنتْـك بســرعة التوديـعِ

فإذا كمل البناء فبيِّضه بحسن الخلق والإحسان إلى الناس، ثم حُطْه بسور من الحذر لا يقتحمه عدو ولا تبدو منه العورة، ثم أرخ الستور على أبوابه ثم، أقفل الباب الأعظم بالسكوت عما تخشى عاقبته، ثم ركب له مفتاحًا من ذكر الله به تفتحه وتغلقه، فإن فتحت فتحت بالمفتاح، وإن أغلقت الباب أغلقته به، فتكون حينئذ قد بنيت حصنًا تحصنت فيه من أعدائك، إذا طاف به العدو لم يجد منه مدخلًا، فييأس منك.

ثم تعاهد بناء الحصن كل وقت، فإن العدو إذا لم يطمع في الدخول من الباب نَقَب عليك النقوب من بعيد بمعاول الذنوب، فإن أهملت أمره وصل إليك النَّقْب، فإذا العدو معك في داخل الحصن، فيصعب عليك إخراجه، وتكون معه على ثلاث خلال: إما أن يغلبك على الحصن ويستولي عليه، وإما أن يساكنك فيه، وإما أن يشغلك بمقابلته عن تمام مصلحتك، وتعود إلى سد النقب ولم شَعَث الحصن، وإذا دخل نقبه إليك نالك منه ثلاث آفات: إفساد الحصن، والإغارة على حواصله وذخائره، ودلالة السراق من بني جنسه على عورته، فلا يزال يُبلى منه بغارة حتى يُضْعِفوا قواه ويوهنوا عزمه، فيتخلى عن الحصن ويخلِّي بينهم وبينه.

وهذه حال أكثر النفوس مع هذا العدو، ولهذا تراهم يسخطون ربهم برضا أنفسهم، بل برضا مخلوق مثلهم لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، ويضيعون كسب الدين بكسب الأموال، ويهلكون أنفسهم بما لا يبقى لهم، ويحرصون على الدنيا وقد أدبرت عنهم، ويزهدون في الآخرة وقد هجمت عليهم، ويخالفون ربهم باتباع أهوائهم، ويتكلون على الحياة ولا يذكرون الموت، ويذكرون شهواتهم

وحظوظهم وينسون ما عهد الله إليهم، ويهتمون بما ضمنه الله ولا يهتمون بما أمرهم به، ويفرحون بالدنيا ويحزنون على فوات حظهم منها، ولا يحزنون على فوات الجنة وما فيها، ولا يفرحون بالإيمان فرحهم بالدرهم والدينار، ويفسدون حقهم وهداهم بضلالهم ومعروفَهم بمنكرهم، ويَلْبسون إيمانهم بظنونهم ويخلطون حلالهم بحرامهم، ويترددون في حيرة آرائهم وأفكارهم، ويتركون هدى الله الذي أهداه إليهم، ومن العجب أن هذا العدو يستعمل صاحب الحصن في هدم حصنه بيديه!».

وقال[1]: «السنة شجرة، والشهور فروعها، والأيام أغصانها، والساعات أوراقها، والأنفاس ثمرها، فمن كانت أنفاسه في طاعة فثمرة شجرته طيبة، ومن كانت في معصية فثمرته حنظل، وإنما يكون الجِداد يوم المعاد، فعند الجداد يتبين حلو الثمار من مرها.

والإخلاص والتوحيد شجرة في القلب فروعها الأعمال، وثمرها طيب الحياة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة، وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة فثمرة التوحيد والإخلاص في الدنيا كذلك.

والشرك والكذب والرياء شجرة في القلب ثمرها في الدنيا الخوف والهم والغم وضيق الصدر وظلمة القلب، وثمرها في الآخرة الزقوم والعذاب المقيم.

وقد ذكر الله هاتين الشجرتين في سورة إبراهيم[2]».

⦿⦿⦿⦿⦿

---

(١) «الفوائد» (ص ٢١٤-٢١٥).

(٢) وهي قول الله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

أركان الكفر

قال ابن القيم[1]: «أركان الكفر أربعة: الكبر، والحسد، والغضب، والشهوة، فالكبر يمنعه الانقياد، والحسد يمنعه قبول النصيحة وبذلها، والغضب يمنعه العدل، والشهوة تمنعه التفرغ للعبادة.

فإذا انهدم ركن الكبر سهل عليه الانقياد، وإذا انهدم ركن الحسد سهل عليه قبول النصح وبذله، وإذا انهدم ركن الغضب سهل عليه العدل والتواضع، وإذا انهدم ركن الشهوة سهل عليه الصبر والعفاف والعبادة.

وزوال الجبال عن أماكنها أيسر من زوال هذه الأربعة عمن بُلِي بها، ولا سيما إذا صارت هيئات راسخة وملَكات وصفات ثابتة، فإنه لا يستقيم له معها عمل البتة، ولا تزكو نفسه مع قيامها بها، وكلما اجتهد في العمل أفسدته عليه هذه الأربعة، وكل الآفات متولدة منها، وإذا استحكمت في القلب أرته الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل، والمعروف في صورة المنكر والمنكر في صورة المعروف، وقربت منه الدنيا وبعدت منه الآخرة.

وإذا تأملت كفر الأمم رأيته ناشئًا منها، وعليها يقع العذاب وتكون خفته وشدته بحسب خفتها وشدتها، فمن فتحها على نفسه فتح عليه أبواب الشرور كلها عاجلًا وآجلًا، ومن أغلقها على نفسه أغلق عنه أبواب الشرور، فإنها تمنع الانقياد والإخلاص والتوبة والإنابة وقبول الحق ونصيحة المسلمين والتواضع لله ولخلقه.

ومنشأ هذه الأربعة من جهله بربه وجهله بنفسه، فإنه لو عرف ربه بصفات الكمال ونعوت الجلال، وعرف نفسه بالنقائص والآفات، لم يتكبر ولم

---

(١) «الفوائد» (ص ٢٠٦-٢٠٧).

يغضب لها ولم يحسد أحدًا على ما أتاه الله، فإن الحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله، فإنه يكره نعمة الله على عبده وقد أحبها الله، وأحب زوالها عنه والله يكره ذلك، فهو مضاد لله في قضائه وقدره ومحبته وكراهته، ولذلك كان إبليس عدوه حقيقة، لأن ذنبه كان عن كبر وحسد.

فقلع هاتين الصفتين بمعرفة الله وتوحيده والرضا به وعنه والإنابة إليه.

وقلع الغضب بمعرفة النفس وأنها لا تستحق أن يغضب لها وينتقم لها، فإن ذلك إيثار لها بالرضا والغضب على خالقها وفاطرها، وأعظم ما تدفع به هذه الآفة أن يعودها أن تغضب له سبحانه وترضى له، فكلما دخلها شيء من الغضب والرضا له خرج منها مقابله من الغضب والرضا لها، وكذا بالعكس.

وأما الشهوة فدواؤها صحة العلم والمعرفة بأن إعطاءها شهواتها أعظم أسباب حرمانها إياها، ومنعها منها وحميتها أعظم أسباب اتصالها إليها، فكلما فتحتَ عليها باب الشهوات كنت ساعيًا في حرمانها إياها، وكلما أغلقت عنها ذلك الباب كنت ساعيًا في إيصالها إليها على أكمل الوجوه.

فالغضب مثل السبع إذا أفلته صاحبه بدأ بأكله، والشهوة مثل النار إذا أضرمها صاحبها بدأت بإحراقه، والكبر بمنزلة منازعة المِلِك ملكَه، فإن لم يهلكك طردك عنه، والحسد بمنزلة معاداة من هو أقدر منك، والذي يغلب شهوته وغضبه يَفرَق الشيطان من ظله، ومن تغلبه شهوته وغضبه يَفرَق من خياله».

⦿⦿⦿⦿⦿

الأفكار مبدأ
كل علم نظري وعمل اختياري

قال ابن القيم(١): «قاعدة جليلة: مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو

(١) «الفوائد» (ص ٢٢٤-٢٢٩).

الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة.

فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها، فصلاح الخواطر بأن تكون مراقِبة لوليها وإلهها، صاعدة إليه، دائرة على مرضاته ومحابه، فإنه سبحانه به كل صلاح، ومن عنده كل هدى، ومن توفيقه كل رشد، ومن توليه لعبده كل حفظ، ومن توليه وإعراضه عنه كل ضلال وشقاء.

فيظفر العبد بكل خير وهدى ورشد بقدر إثبات عين فكرته في آلائه ونعمه وتوحيده وطرق معرفته وطرق عبوديته، وإنزاله إياه حاضرًا معه مشاهدًا له ناظرًا إليه رقيبًا عليه مطلعًا على خواطره وإراداته وهمه، فحينئذ يستحي منه ويجله أن يُطْلعه منه على عورة يكره أن يطلع عليها مخلوق مثله، أو يرى في نفسه خاطرًا يمقته عليه.

فمتى أنزل ربه هذه المنزلة منه رفعه وقربه منه وأكرمه واجتباه ووالاه، وبقدر ذلك يَبعُد عن الأوساخ والدناءات والخواطر الرديئة والأفكار الدنيئة كما أنه كلما بَعُد منه وأعرض عنه قرُب من الأوساخ والدناءات والأقذار، ويُقطع عن جميع الكمالات ويتصل بجميع النقائص؟

فالإنسان خير المخلوقات إذا تقرب من بارئه والتزم أوامره ونواهيه وعمل بمرضاته وآثره على هواه، وشر المخلوقات إذا تباعد عنه ولم يتحرك قلبه لقربه وطاعته وابتغاء مرضاته، فمتى اختار التقرب إليه وآثره على نفسه وهواه فقد حكَّم قلبه عقله وإيمانه على نفسه وشيطانه، وحكَّم رشده على غَيِّه وهداه على هواه، ومتى اختار التباعد منه فقد حكَّم نفسه وهواه وشيطانه على عقله وقلبه ورشده.

واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدي متعلقاتها إلى الفكر، فيأخذها الفكر

فيؤديها إلى التذكر، فيأخذها الذكر فيؤديها إلى الإرادة، فتأخذها الإرادة فتؤديها إلى الجوارح والعمل، فتستحكم فتصير عادة، فرَدُّها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوتها وتمامها.

ومعلوم أنه لم يعط الإنسان إماتة الخواطر ولا القوة على قطعها، فإنها تهجم عليه هجوم النفَس، إلا أن قوة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له، وعلى رفع أقبحها وكراهته له ونفرته منه، كما قال الصحابة: يا رسول الله، إن أحدنا يجد في نفسه ما لَأَن يحترق حتى يصير حُمَمَة أحب إليه من أن يتكلم به! فقال: أَوَ قَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟! قالوا: نعم. قال: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ». وفي لفظ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ»[١].

وفيه قولان: أحدهما: أن رده وكراهيته صريح الإيمان. والثاني: أن وجوده وإلقاء الشيطان له في النفس صريح الإيمان، فإنه إنما ألقاه في النفس طلبًا لمعارضة الإيمان وإزالته به.

وقد خلق الله سبحانه النفس شبيهة بالرحا الدائرة التي لا تسكن ولا بد لها من شيء تطحنه، فإن وُضِع فيها حب طحنته، وإن وُضِع فيها تراب أو حصا طحنته، فلأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحب الذي يوضع في الرحا، ولا تبقى تلك الرحا معطلة قط، بل لا بد لها من شيء يوضع فيها، فمن الناس من تطحن رحاه حَبًّا يخرج دقيقًا ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحن رملًا وحصًى وتبنًا، ونحو ذلك، فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحينه»[٢].

---

(١) انظر ألفاظه في «صحيح مسلم» (١٣٢)، و«سنن أبي داود» (٥١١٢).

(٢) ولكلامه بقية.

وقال[1]: «قاعدة جليلة: أصل الخير والشر من قِبَل التفكر، فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك والحب والبغض، وأنفع الفكر الفكر في مصالح المعاد وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد وفي طرق اجتنابها.

فهذه أربعة أفكار هي أجل الأفكار، ويليها أربعة: فكر في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، وفكر في مفاسد الدنيا وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء.

ورأس القسم الأول الفكر في آلاء الله ونعمه، وأمره ونهيه، وطرق العلم به وبأسمائه وصفاته من كتابه وسنة نبيه وما والاهما، وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبة والمعرفة.

فإذا فكر في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا وخستها وفنائها، أثمر له ذلك الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا، وكلما فكر في قِصَر الأمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجد والاجتهاد وبذل الوسع في اغتنام الوقت، وهذه الأفكار تُعلي همته وتحييها بعد موتها وسفولها، وتجعله في واد والناس في واد.

وبإزاء هذه الأفكار الأفكار الرديئة التي تجول في قلوب أكثر هذا الخلق، كالفكر فيما لم يكلَّف الفكر فيه ولا أُعطيَ الإحاطة به، من فضول العلم الذي لا ينفع، كالفكر في كيفية ذات الرب وصفاته مما لا سبيل للعقول إلى إدراكه، ومنها الفكر في الصناعات الدقيقة التي لا تنفع بل تضر، كالفكر في الشطرنج والموسيقى وأنواع الأشكال والتصاوير، ومنها الفكر في العلوم التي لو كانت صحيحة لم يُعْطِ الفكر فيها النفسَ كمالًا ولا شرفًا، كالفكر في دقائق المنطق والعلم الرياضي والطبيعي وأكثر علوم الفلاسفة، التي لو بلغ الإنسان غايتها لم يَكْمُل بذلك ولم تُزْكُ نفسه، ومنها الفكر في الشهوات واللذات وطرق

---

(١) «الفوائد» (ص ٢٥٥-٢٥٦).

تحصيلها، وهذا وإن كان للنفس فيه لذة لكن لا عاقبة له، ومضرته في عاقبة الدنيا قبل الآخرة أضعاف مسرته، ومنها الفكر فيما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كالفكر فيما إذا صار ملكًا أو وَجد كنزًا أو مَلَكَ ضيعة ماذا يصنع، وكيف يتصرف ويأخذ ويعطي وينتقم، ونحو ذلك من أفكار السُّفَّل، ومنها الفكر في جزيئات أحوال الناس وماجَرَيَاتهم ومداخلهم ومخارجهم، وتوابع ذلك من فكر النفوس المُبْطِلة، الفارغة من الله ورسوله والدار الآخرة، ومنها الفكر في دقائق الحِيَل والمكر التي يتوصل بها إلى أغراضه وهواه، مباحة كانت أو محرمة، ومنها الفكر في أنواع الشعر وصروفه وأفانينه في المدح والهجاء والغزل والمراثي ونحوها، فإنه يُشغل الإنسان عن الفكر فيما فيه سعادته وحياته الدائمة، ومنها الفكر في المُقَدَّرات الذهنية التي لا وجود لها في الخارج ولا بالناس حاجة إليها البتة، وذلك موجود في كل علم حتى في علم الفقه والأصول والطب، فكل هذه الأفكار مضرتها أرجح من منفعتها، ويكفي في مضرتها شغلها عن الفكر فيما هو أولى به وأعود عليه بالنفع عاجلًا وآجلًا».

⦿⦿⦿⦿⦿

صدق العزيمة وصدق الفعل

قال ابن القيم[1]: «ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه في جميع أموره مع صدق العزيمة، فيصدقه في عزمه وفي فعله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد:٢١]. فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل، فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوُّم، فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل، وهو استفراغ الوسع وبذل

(١) «الفوائد» (ص ٢٤٠-٢١١).

الجهد فيه، وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه، فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور، ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره، وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الإخلاص وصدق التوكل، فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله».

⊙⊙⊙⊙⊙

مداخل الشيطان

قال ابن القيم[(١)]: «كل ذي لب يعلم أنه لا طريق للشيطان عليه إلا من ثلاث جهات:

أحدها: التزيد والإسراف، فيزيد على قدر الحاجة فتصير فضلة، وهي حظ الشيطان ومدخله إلى القلب، وطريق [الاحتراز منه][(٢)] الاحتراز من إعطاء النفس تمام مطلوبها من غذاء أو نوم أو لذة أو راحة، فمتى أغلقت هذا الباب حصل الأمان من دخول العدو منه.

الثانية: الغفلة، فإن الذاكر في حصن الذكر، فمتى غفل فتح باب الحصن فولجه العدو، فيعسر عليه أو يصعب إخراجه؟

الثالثة: تكلف ما لا يعنيه من جميع الأشياء».

⊙⊙⊙⊙⊙

التوحيد ألطف شيء وأنزهه

قال ابن القيم[(٣)]: «التوحيد ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه، فأدنى شيء

---

(١) «الفوائد» (ص ٢٤٦).

(٢) زيادة ليستقيم الكلام.

(٣) «الفوائد» (ص ٢٨٢-٢٨٣ - طبعة بكر أبو زيد).

يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه، فهو كأبيض ثوب يكون يؤثر فيه أدنى أثر، وكالمرآة الصافية جدًّا أدنى شيء يؤثر فيها، ولهذا تشوشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفية، فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده وإلا استحكم وصار طبعًا يتعسر عليه قلعه.

وهذه الآثار والطبوع التي تحصل فيه منها ما يكون سريع الحصول سريع الزوال، ومنها ما يكون سريع الحصول بطيء الزوال، ومنها ما يكون بطيء الحصول سريع الزوال، ومنها ما يكون بطيء الحصول بطيء الزوال، ولكن من الناس من يكون توحيده كبيرًا عظيمًا ينغمر فيه كثير من تلك الآثار، ويستحيل فيه بمنزلة الماء الكثير الذي يخالطه أدنى نجاسة أو وسخ، فيغتر به صاحب التوحيد الذي هو دونه فيخلط توحيده الضعيف بما خلط به صاحب التوحيد العظيم الكثير توحيده، فيظهر تأثيره فيه ما لم يظهر في التوحيد الكثير.

وأيضًا فان المحل الصافي جدًّا يظهر لصاحبه مما يدنسه ما لا يظهر في المحل الذي لم يبلغ في الصفاء مبلغه، فيتداركه بالإزالة دون هذا، فإنه لا يشعر به.

وأيضًا فإن قوة الإيمان والتوحيد إذا كانت قوية جدًّا أحالت المواد الرديئة وقهرتها، بخلاف القوة الضعيفة.

وأيضًا فإن صاحب المحاسن الكثيرة والغامرة للسيئات ليسامَح بما لا يسامَح به من أتى مثل تلك السيئات وليست له مثل تلك المحاسن، كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحدٍ جاءت محاسنه بألف شفيعِ

وأيضًا فإن صدق الطلب وقوة الإرادة وكمال الانقياد يحيل تلك العوارض والغواشي الغريبة إلى مقتضاه وموجبه، كما أن الكذب وفساد القصد وضعف الانقياد يحيل الأقوال والأفعال الممدوحة إلى مقتضاه وموجبه، كما يشاهَد ذلك في الأخلاط الغالبة وإحالتها لصالح الأغذية إلى طبعها».

◎◎◎◎◎

هل الزهد ممكن في هذه الأزمنة أم لا؟

قال ابن القيم[1]: «اختلف الناس في الزهد: هل هو ممكن في هذه الأزمنة أم لا؟

فقال أبو حفص: الزهد لا يكون إلا في الحلال، ولا حلال في الدنيا، فلا زهد.

وخالفه الناس في هذا، وقالوا: بل الحلال موجود فيها، وفيها الحرام كثيرًا. وعلى تقدير: أن لا يكون فيها الحلال، فهذا أدعى إلى الزهد فيها، وتناول ما يتناوله المضطر منها، كتناوله للميتة والدم ولحم الخنزير.

وقال يوسف بن أسباط: لو بلغني أن رجلًا بلغ في الزهد منزلة أبي ذر وأبي الدرداء وسلمان والمقداد وأشباههم من الصحابة رضي الله عنهم ما قلت له: زاهد، لأن الزهد لا يكون إلا في الحلال المحض، والحلال المحض لا يوجد في زماننا هذا، وأما الحرام فإن ارتكبته عذبك الله عز وجل.

ثم اختلف هؤلاء في متعلق الزهد، فقالت طائفة: الزهد إنما هو في الحلال، لأن ترك الحرام فريضة.

وقالت فرقة: بل الزهد لا يكون إلا في الحرام، وأما الحلال فنعمة من الله تعالى على عبده، والله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، فشكره على نعمه، والاستعانة بها على طاعته، واتخاذها طريقًا إلى جنته أفضل من الزهد فيها والتخلي عنها ومجانبة أسبابها.

والتحقيق أنها إن شغلته عن الله فالزهد فيها أفضل، وإن لم تشغله عن الله بل كان شاكرًا لله فيها فحاله أفضل، والزهد فيها تجريد القلب عن التعلق بها والطُّمَأنينة إليها، والله أعلم».

⦿⦿⦿⦿⦿

(١) «مدارج السالكين» (٢/١٣-١٤).

قواعد عظيمة في السلوك

وذكر أقرب الطرق الموصلة إلى الله تعالى

قال ابن القيم(١): «الخوف يثمر الورع والاستعانة وقصر الأمل. وقوة الإيمان باللقاء تثمر الزهد. والمعرفة تثمر المحبة والخوف والرجاء. والقناعة تثمر الرضاء. والذكر يثمر حياة القلب. والإيمان بالقدر يثمر التوكل. ودوام تأمل الأسماء والصفات يثمر المعرفة. والورع يثمر الزهد أيضًا. والتوبة تثمر المحبة أيضا. ودوام الذكر يثمرها. والرضا يثمر الشكر. والعزيمة والصبر يثمران جميع الأحوال والمقامات. والإخلاص والصدق كل منهما يثمر الآخر ويقتضيه. والمعرفة تثمر الخُلُق. والفكر يثمر العزيمة. والمراقبة تثمر عمارة الوقت وحفظ الأيام، والحياء والخشية والإنابة. وإماتة النفس وإذلالها وكسرها يوجب حياة القلب وعزه وجبره. ومعرفة النفس ومقتها يوجب الحياء من الله عز وجل، واستكثار ما منه، واستقلال ما منك من الطاعات. ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان وصحة البصيرة تثمر اليقين. وحسن التأمل لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يثمر صحة البصيرة.

ومِلاك ذلك كله أمران: أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه في وطن الآخرة، ثم تقبل به كله على معاني القرآن واستجلائها وتدبرها، وفهم ما يراد منه وما نزل لأجله، وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته، وتنزلها على داء قلبك.

فهذه طريق مختصرة قريبة سهلة موصلة إلى الرفيق الأعلى، آمنة لا يلحق سالكها خوف ولا عَطَب، ولا جوع ولا عطش، ولا فيها آفة من آفات سائر

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢٨).

الطرق البتة. وعليها من الله حارس وحافظ يكلأ السالكين فيها ويحميهم، ويدفع عنهم، ولا يعرف قدر هذه الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفاتها وقطاعها. والله المستعان».

⦿⦿⦿⦿⦿

التسليم لله عز وجل يقطع مادة الخوف عن العبد

قال ابن القيم[(١)]: «الذي يحسم مادة الخوف هو التسليم لله، فإن من سلم لله واستسلم له، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضع، فإن نفسه التي يخاف عليها قد سلمها إلى وليها ومولاها، وعلم أنه لا يصيبها إلا ما كتب لها، وأن ما كتب لها لا بد أن يصيبها، فلا معنى للخوف من غير الله بوجه.

وفي التسليم أيضًا فائدة لطيفة، وهي أنه إذا سلمها لله فقد أودعها عنده، وأحرزها في حرزه، وجعلها تحت كنفه، حيث لا تنالها يدُ عدوٍّ عادٍ ولا بَغْيُ باغٍ عاتٍ».

⦿⦿⦿⦿⦿

حقيقة مسمَّى الجنة

قال ابن القيم[(٢)]: «التحقيق أن يقال: الجنة ليست اسمًا لمجرد الأشجار والفواكه والطعام والشراب والحور العين والأنهار والقصور، وأكثر الناس

---

(١) انظر «مدارج السالكين» (٣١/٢).

(٢) انظر «مدارج السالكين» (٨٠/٢).

يغلطون في مسمى الجنة، فإن الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل، ومن أعظم نعيم الجنة التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، وقرة العين بالقرب منه وبرضوانه، فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبدًا\، فأيسر يسير من رضوانه أكبر من الجنان وما فيها من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢]. وأتى به مُنَكَّرًا في سياق الإثبات؛ أي: أي شيء كان من رضاه عن عبده فهو أكبر من الجنة.

قليل منك يقنعني ولكن قليلك لا يقال له قليل

وفي الحديث الصحيح (حديث الرؤية): «فَوَاللَّهِ مَا أَعَطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إلى وجهه»(١).

وفي حديث آخر: أنه سبحانه إذا تجلى لهم ورأَوْا وجهه عيانًا نسوا ما هم فيه من النعيم وذهلوا عنه ولم يلتفتوا إليه(٢).

ولا ريب أن الأمر هكذا، وهو أجل مما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعية المحب، فإن المرء مع من أحب، ولا تخصيص في هذا الحكم، بل هو ثابت شاهدًا وغائبًا.

فأي نعيم وأي لذة وأي قرة عين وأي فوز يداني نعيم تلك المعية ولذتها وقرة العين بها؟!

---

(١) وهو من حديث صهيب رضي الله عنه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وقال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلِ اللَّهُ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟». قال: «فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا أَعَطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ ـ يعني إليه ـ وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ». أخرجه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، وابن ماجه (١٨٧) بلفظه، وغيرهم.

(٢) لم أجده!!

وهل فوق نعيم قرة العين بمعية المحبوب الذي لا شيء أجل منه ولا أكمل ولا أجمل قرة عين البتة؟!

وهذا والله هو العَلَم الذي شمر إليه المحبون، واللواء الذي أمه العارفون، وهو روح مسمى الجنة وحياتها، وبه طابت الجنة، وعليه قامت».

⊙⊙⊙⊙⊙

الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في خلافها

عن عبد الله [ابن مسعود] رضي الله عنه قال: الاقْتِصَادُ فِي السُّنَّةِ أَحْسَنُ مِنَ الاجْتِهَادِ فِي الْبِدْعَة(1).

قال ابن القيم(2): «والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيرًا، وهما الاقتصاد في الأعمال، والاعتصام بالسنة، فإن الشيطان يشم قلب العبد ويختبره، فإن رأى فيه داعية للبدعة، وإعراضًا عن كمال الانقياد للسنة، أخرجه عن الاعتصام بها، وإن رأى فيه حرصًا على السنة، وشدةَ طلبٍ لها، لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها، فأمره بالاجتهاد والجَور على النفس ومجاوزة حد الاقتصاد فيها، قائلا له: إن هذا خير وطاعة، والزيادة والاجتهاد فيها أكمل، فلا تفتر مع أهل الفتور، ولا تنم مع أهل النوم، فلا يزال يحثه ويحرضه حتى يخرجه عن الاقتصاد فيها، فيخرج عن حدها، كما أن الأول خارج هذا الحد فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر.

وهذا حال الخوارج الذين يحقر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم، وصيامهم مع صيامهم، وقراءتهم مع قراءتهم، وكلا الأمرين خروج عن السنة إلى البدعة،

---

(1) أخرجه الحاكم (352) وغيره، وصححه على شرط الشيخين. وهو في «صحيح الترغيب» (41).

(2) انظر «مدارج السالكين» (2/107-208).

لكن هذا إلى بدعة التفريط والإضاعة، والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف.

وقال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان، إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة، وهي الإفراط، ولا يبالي بأيهما ظفر، زيادة أو نقصان.

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «يا عبد الله بن عمرو، إن لكل عامل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنة أفلح، ومن كانت فترته إلى بدعة خاب وخسر»[1]. قال له ذلك حين أمره بالاقتصاد في العمل.

فكل الخير في اجتهاد باقتصاد، وإخلاص مقرون بالاتباع، كما قال بعض الصحابة: اقتصاد في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج الأنبياء عليهم السلام وسنتهم».

⦿⦿⦿⦿⦿

لا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات

قال ابن القيم بعد ذكر ما قيل في معنى التوكل[2]: «وحقيقة الأمر: أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور، لا تتم حقيقة التوكل إلا بها، وكل أشار إلى واحد من هذه الأمور أو اثنين أو أكثر.

فأول ذلك: معرفة بالرب وصفاته، من قدرته وكفايته وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته، وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

قال شيخنا رضي الله عنه: ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٥٣ - موارد) وغيره، وصححه الألباني. ولفظه: عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَإِنَّ لِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَمَنْ كَانَتْ شِرَّتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ شِرَّتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ».

(٢) «مدارج السالكين» (٢/١١٧-١١٨).

فيلسوف، ولا من القدرية النفاة القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يستقيم أيضا من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات.

فأي توكل لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزيئات العالم سفليه وعلويه، ولا هو فاعل باختياره، ولا له إرادة ومشيئة، ولا يقوم به صفة؟!! فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف كان توكله أصح وأقوى».

⊙⊙⊙⊙⊙

رفع الاشتباه في مراتب الصبر

قال ابن القيم[1]: «المراتب أربعة:

إحداها: مرتبة الكمال، وهي مرتبة أولي العزائم، وهي الصبر لله وبالله، فيكون في صبره مبتغيًا وجه الله صابرًا به متبرئًا من حوله وقوته، فهذا أقوى المراتب وأرفعها وأفضلها.

الثانية: أن لا يكون فيه لا هذا ولا هذا، فهو أخس المراتب وأردأ الخلق، وهو جدير بكل خِذلان وبكل حرمان.

الثالثة: مرتبة من فيه صبر بالله، وهو مستعين متوكل على حوله وقوته، متبرئ من حوله هو وقوته، ولكن صبره ليس لله، إذ ليس صبره فيما هو مراد الله الديني منه، فهذا ينال مطلوبه ويظفر به، ولكن لا عاقبة له، وربما كانت عاقبته شر العواقب.

وفي هذا المقام خفراء الكفار وأرباب الأحوال الشيطانية، فإن صبرهم بالله

---

(١) «مدارج السالكين» (١٦٩/٢-١٧٠).

لا لله ولا في الله، ولهم من الكشف والتأثير بحسب قوة أحوالهم، وهم من جنس الملوك الظلمة، فإن الحال كالمُلك يُعطاه البَرّ والفاجر، والمؤمن والكافر.

الرابع: من فيه صبر لله، لكنه ضعيف النصيب من الصبر به والتوكل عليه والثقة به والاعتماد عليه، فهذا له عاقبة حميدة ولكنه ضعيف عاجز مخذول في كثير من مطالبه، لضعف نصيبه من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، فنصيبه من الله أقوى من نصيبه بالله، فهذا حال المؤمن الضعيف.

وصابر بالله لا لله حال الفاجر القوي، وصابر لله وبالله حال المؤمن القوي، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

فصابر لله وبالله عزيز حميد، ومن ليس لله ولا بالله مذموم مخذول، ومن هو بالله لا لله قادر مذموم، ومن هو لله لا بالله عاجز محمود.

فبهذا التفصيل يزول الاشتباه في هذا الباب، ويتبين فيه الخطأ من الصواب. والله سبحانه وتعالى أعلم».

⦿⦿⦿⦿⦿

القواعد التي ينبني عليها الشكر

قال ابن القيم[1]: «الشكر مبنيٌّ على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره.

فهذه الخمس: هي أساس الشكر وبناؤه عليها، فمتى عُدِم منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة.

وكل من تكلم في الشكر وحَدِّه فكلامه إليها يرجع وعليها يدور».

⦿⦿⦿⦿⦿

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢٤٤).

مراتب الجود

قال ابن القيم[1]: « الجود عشر مراتب:

إحداها: الجود بالنفس، وهو أعلى مراتبه، كما قال الشاعر:

يجود بالنفس إذ ضَنَّ البخيل بها … والجود بالنفس أقصى غاية الجودِ

الثانية: الجود بالرياسة، وهو ثاني مراتب الجود، فيحمل الجواد جوده على امتهان رياسته والجود بها والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

الثالثة: الجود براحته ورفاهيته وإجمام نفسه، فيجود بها تعبًا وكدًّا في مصلحة غيره، ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامِره، كما قيل:

متيَّمٌ بالندى لو قال سائلهُ … هب لي جميع كَرى عينيك لم يَنَمِ

الرابعة: الجود بالعلم وبذله، وهو من أعلى مراتب الجود، والجود به أفضل من الجود بالمال، لأن العلم أشرف من المال.

والناس في الجود به على مراتب متفاوتة، وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ أن لا ينفع به بخيلًا أبدًا.

ومن الجود به: أن تبذله لمن يسألك عنه بل تطرحه عليه طرحًا.

ومن الجود بالعلم: أن السائل إذا سألك عن مسألة استقصيت له جوابها جوابا شافيًا، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا: نعم. أو: لا. مقتصرًا عليها.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في ذلك أمرًا عجيبًا: كان إذا سئل عن مسألة حكمية ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة،

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢٩٣-٢٩٦).

إذا قدر، ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح\، وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته، فيكون فرحه بتلك المتعلقات واللوازم أعظم من فرحه بمسألته.

وهذه فتاويه رحمه الله بين الناس، فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك.

فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر على مسألة السائل، بل يذكر له نظائرها ومتعلقها ومأخذها، بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد سأل الصحابة رضي الله عنهم النبي ﷺ عن المتوضئ بماء البحر؟ فقال: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ»(١). فأجابهم عن سؤالهم وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبههم على علته وحكمته، كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر؟ فقال: «أَيَنْقُصُ الرُّطَبُ إِذَا جَفَّ؟» قالوا: نعم. قال: «فَلَا إِذَنْ»(٢). ولم يكن يخفى عليه ﷺ نقصان الرطب بجفافه، ولكن نبههم على علة الحكم، وهذا كثير جدًّا في أجوبته ﷺ.

مثل قوله: «إن بعت من أخيك ثمرة فأصابتها جائحة فلا يحل لك أن تأخذ من مال أخيك شيئًا، بم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق؟»(٣).

وفي لفظ: «أَرَأَيْتَ إِذَا مَنَعَ اللَّهُ الثَّمَرَةَ! بِمَ يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ بِغَيْرِ حَقٍّ؟!»(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٣) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) حديث: «أَيَنْقُصُ الرُّطَبُ إِذَا يَبِسَ؟»، أخرجه أبو داود (٣٣٥٩)، والترمذي (١٢٢٥)، وغيرهما، وقال الترمذي: «حسن صحيح». وصححه الألباني. ولفظ «جَفَّ» عند الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٥٤٨٨ و٦١٦١ و٦١٦٥).

(٣) أخرجه مسلم (١٥٥٤) وغيره، عن أبي الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ بِعْتَ مِنْ أَخِيكَ ثَمَرًا، فَأَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ، فَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا، بِمَ تَأْخُذُ مَالَ أَخِيكَ بِغَيْرِ حَقٍّ؟!».

(٤) متفق عليه بنحوه، من حديث أنس رضي الله عنه، دون قوله: «بغير حق».

فصرح بالعلة التي يحرم لأجلها إلزامه بالثمن. وهي منع الله الثمرة التي ليس للمشتري فيها صنع.

وكان خصومه ـ يعني شيخ الإسلام ابن تيمية ـ يعيبونه بذلك، ويقولون: سأله السائل عن طريق مصر - مثلًا - فيذكر له معها طريق مكة والمدينة وخراسان والعراق والهند! وأي حاجة بالسائل إلى ذلك؟

ولعمر الله، ليس ذلك بعيب، وإنما العيب الجهل والكبر، وهذا موضع المثل المشهور:

لقبوه بحامضٍ وهو حُلْوٌ ... مَثَلَ مَنْ لم يَصِلْ إلى العُنقودِ

الخامسة: الجود بالنفع بالجاه، كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه، وذلك زكاة الجاه المطالَب بها العبد، كما أن التعليم وبذل العلم زكاته.

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه، كما قال ﷺ: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ يَمْشِيهَا الرَّجُل إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ». متفق عليه(١).

السابعة: الجود بالعرض، كجود أبي ضمضم من الصحابة رضي الله عنهم، كان إذا أصبح قال: اللهم إنه لا مال لي أتصدق به على الناس، وقد تصدقت عليهم بعرضي، فمن شتمني أو قذفني فهو في حِلّ، فقال النبي ﷺ: «من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم؟!»(٢).

---

(١) هو كذلك، بنحوه.

(٢) لا يصح مرفوعًا، ولم أجده بهذا اللفظ، وفي «سنن أبي داود» (٤٨٨٦): «عن قتادة قال: أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضيغم أو ضمضم، كان إذا أصبح قال: اللهم إني قد تصدقت بعرضي على عبادك. قال الألباني: صحيح مقطوع.

وفي هذا الجود من سلامة الصدر وراحة القلب والتخلص من معاداة الخلق ما فيه.

الثامنة: الجود بالصبر والاحتمال والإغضاء، وهذه مرتبة شريفة من مراتبه، وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال وأعز له وأنصر، وأملك لنفسه وأشرف لها، ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار.

فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود، فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة، وهذا جود الفتوة، قال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة:٤٥].

وفي هذا الجود قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى:٤٠].

فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية: مقام العدل وأذن فيه، ومقام الفضل وندب إليه، ومقام الظلم وحرمه.

التاسعة: الجود بالخُلُق والبِشر والبسطة، وهو فوق الجود بالصبر والاحتمال والعفو، وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وهو أثقل ما يوضع في الميزان، قال النبي ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ»(١).

وفي هذا الجود من المنافع والمسار وأنواع المصالح ما فيه، والعبد لا يمكنه أن [يسع الناس بماله ولكن يمكنه أن] يسعهم بخلقه واحتماله.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٦) وغيره، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ». ولفظ: «ووجهك منبسط إليه» عند «أبي داود» (٤٠٨٤) بنحوه، من حديث آخر طويل، وصححه الألباني.

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم، فلا يلتفت إليه ولا يستشرف له بقلبه ولا يتعرض له بحاله ولا لسانه، وهذا الذي قال عبد الله بن المبارك: إنه أفضل من سخاء النفس بالبذل.

فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أعطك ما تجود به على الناس فجُدْ عليهم بزهدك في أموالهم وما في أيديهم تَفْضُل عليهم وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة.

ولكل مرتبة من مراتب الجود مزيّة(١) وتأثير خاص في القلب والحال، والله سبحانه قد ضمن المزيد للجواد، والإتلاف للممسك. والله المستعان».

⊙⊙⊙⊙⊙

الهجرتان المفروضتان على كل قلب

قال ابن القيم(٢): «لله على كل قلب هجرتان، وهما فرض لازم له على الأنفاس:

هجرة إلى الله سبحانه بالتوحيد والإخلاص والإنابة والحب والخوف والرجاء والعبودية.

وهجرة إلى رسوله ﷺ بالتحكيم له والتسليم والتفويض والانقياد لحكمه، وتلقي أحكام الظاهر والباطن من مشكاته، فيكون تعبده به أعظم من تعبد الرَّكب بالدليل الماهر في ظُلَم الليل ومتاهات الطريق.

فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحث على رأسه الرماد، وليراجع الإيمان من أصله، فيرجع وراءه ليقتبس نورًا قبل أن يحال بينه وبينه، ويقال له ذلك على الصراط من وراء السور. والله المستعان».

⊙⊙⊙⊙⊙

---

(١) في الأصل المطبوع (ط. فقي، وط. الجليل): «مزيد»، ولعل ما أثبته هو الصواب.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٤٦٣).

شرف العلم

قال ابن القيم[1]: «هو تركة الأنبياء وتراثهم، وأهله عصبتهم وورّاثهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال.

وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال.

به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحد، ويحمد ويمجد، وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون.

به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه توصل الأرحام، وبه تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

وهو إمام والعمل مأموم، وهو قائد والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة، والغِنى الذي لا فقر على من ظفر بكنزه، والكنف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه.

مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربة، وبذله صدقة، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب، لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه.

ورُوِّينا عن الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٤٦٩-٤٧١).

ونص على ذلك أبو حنيفة رضي الله عنه.

وقال ابن وهب: كنت بين يدي مالك رضي الله عنه فوضعت ألواحي وقمت أصلي. فقال: ما الذي قمت إليه بأفضل مما قمت عنه.

ذكره ابن عبد البر وغيره.

واستشهد الله عز وجل بأهل العلم على أجل مشهود به وهو التوحيد، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وفي ضمن ذلك تعديلهم فإنه سبحانه وتعالى لا يستشهد بمجروح.

ومن هاهنا والله أعلم يؤخذ الحديث المعروف: «يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عُدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل المبطلين»(١).

وهو حجة الله في أرضه، ونوره بين عباده، وقائدهم ودليلهم إلى جنته، ومُدْنيهم من كرامته.

ويكفي في شرفه أن فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وأن الملائكة لتضع لهم أجنحتها، وتظلهم بها، وأن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر، وحتى النمل في جحرها، وأن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير.

ولقد رحل كليم الرحمن موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام في طلب العلم هو وفتاه، حتى مسهما النصب في سفرهما في طلب العلم، حتى ظفر

---

(١) حديث ضعيف، متداول بكثرة على ألسنة طلبة العلم، أخرجه البيهقي (٣٥٣/١٠) وغيره، ولفظ البيهقي: عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري قال: قال رسول الله ﷺ: «يرث هذا العلم من كل خَلَفٍ عُدوله ، يَنفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين»، وإبراهيم تابعي، فهو مرسل، وله عدة طرق مرفوعة في «الكامل في الضعفاء»، وفي «شرف أصحاب الحديث»، وغيرهما، وكلها ضعيفة، وصححه الإمام أحمد، والأكثرون على تضعيفه.

بثلاث مسائل، وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به.

وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

وحرم الله صيد الجوارح الجاهلة، وإنما أباح للأمة صيد الجوارح العالمة.

فهكذا جوارح الإنسان الجاهل لا يجدي عليه صيدها من الأعمال شيئًا. والله سبحانه وتعالى أعلم».

⊙⊙⊙⊙⊙

شأن محبة الله عز وجل

قال شيخ الإسلام(١): «محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله، وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين».

وقال ابن القيم في «منزلة المحبة» من «مدارج السالكين»(٢): «وهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شَخَص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروّح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حُرِمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عُدِمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام.

وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال، التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا رُوح فيه.

تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها،

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٤٨).

(٢) (٣/٦-٩).

وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها، وتبوؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب.

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب، فيا لها من نعمة على المحبين سابغة!

تالله لقد سبق القوم السعاة وهم على ظهور الفرش نائمون، وقد تقدموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون.

مـــن لي بمثـــل ســـيرك المُـــدَلَّل ... تمشـــي رويـــدًا وتـــجي في الأول

أجابوا منادي الشوق إذ نادى بهم: حي على الفلاح، وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم وكان بذلهم بالرضا والسماح، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح، تالله لقد حمدوا عند الوصول سراهم، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح.

فحَــيَّهَلَا إن كنــت ذا همــة فقــد ... حدا بك حادي الشوق فاطْوِ المراحلا

وقــل لمنــادي حــبهم ورضــاهمُ ... إذا مــا دعا لبيــك ألفًــا كــواملا

ولا تنظر الأطلال مـن دونهـم فـإنْ ... نظرت إلى الأطـلال عُـدْنَ حـوائلا

ولا تنتظــر بالســير رِفقــة قاعــدٍ ... ودعه فإن الشوق يكفيك حـاملا

وخــذ مــنهم زادًا إليهــم وسر على ... طريق الهدى والحب تصبح واصـلا

وأحيِ بــذكراهم سُراك إذا وَنَـــتْ ... ركابُــك فــالذكرى تعيــدك عامــلا

وإمــا تخــافنَّ الــكلال فقــل لهــا ... أمامك وِرد الوصـل فـابغي المنـاهلا

وخذ قبسًا من نورهم ثم سر بهِ فنورهم يهديك ليس المشاعلا
وحَيَّ على واد الأراك فقِلْ بهِ عساك تراهم فيه إن كنت قائلا
وإلا ففي جمع بليلته فإنْ تفت فمتى يا ويح من كان غافلا
وحي على جنات عدن بقربهم منازلك الأولى بها كنت نازلا
ولكن سباك الكاشحون لأجل ذا وقفت على الأطلال تبكي المنازلا
فدعها رسومًا دارساتٍ فما به مقيلٌ وجاوزها فليست منازلا
رسوم عفت يفنى بها الخلق كم بها قتيلٍ وكم فيها لذا الخلق قاتلا
وخذ يمنةً عنها على المنهج الذي عليه سرى وفد المحبة آهلا
وقل ساعدي يا نفس بالصبر ساعةً فعند اللِّقا ذا الكدُ يصبح زائلا
فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويصبح ذو الأحزان فرحانَ جاذلا

أول نقدة من أثمان المحبة بذل الروح، فما للمفلس الجبان البخيل وسَوْمها؟

بِدَمِ المحبِّ يباع وصلُهم فمن الذي يبتاع بالثمنِ

تالله ما هزلت فيَستامها المفلسون، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المُعسرون، لقد أُقيمت للعرض في سوق من يزيد، فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون وقام المحبون ينظرون: أيهم يصلح أن يكون ثمنًا؟! فدارت السلعة بينهم، ووقعت في يد: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

لما كثر المُدَّعون للمحبة طُولِبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادّعى الخَلِيُّ حُرقةَ الشَّجِيِّ، فتنوع المُدَّعون في الشهود، فقيل: لا

تُقبل هذه الدعوى إلا ببينة: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١].

فتأخر الخلق كلهم وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه، فطُولِبوا بعدالة البينة بتزكية: ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ ﴾ [المائدة:٥٤].

فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم فهلموا إلى بيعة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ [التوبة:١١١].

فلما عرفوا عظمة المشتري، وفضل الثمن، وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع، عرفوا قدر السلعة، وأن لها شأنًا، فرأَوْا من أعظم الغبن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي، من غير ثبوت خِيار، وقالوا: والله لا نقيلك ولا نستقيلك (!).

فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم: مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعافها معها، ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠].

إذا غُرست شجرة المحبة في القلب وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار، وآتت أُكُلَها كل حين بإذن ربها، أصلها ثابت في قرار القلب، وفرعها متصل بسدرة المنتهى.

لا يزال سعي المحب صاعدًا إلى حبيبه لا يحجبه دونه شيء، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾ [فاطر:١٠]».

⊙⊙⊙⊙⊙

الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها

قال ابن القيم[1]: «الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها، وهي عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض. فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال: باللسان والقلب، والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابِّه على محابِّك عند غلَبات الهوى، والتسنم إلى محابِّه وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة، ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاعَ الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلى محبته.

السابع، وهو من أعجبها: انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/١٨- ١٩).

بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما يُنتقى أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب.

ومِلاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة. وبالله التوفيق».

⊙⊙⊙⊙⊙

التقرب بالنوافل بعد الفرائض

قال ابن القيم[1]: «إن المحب يشرع أولًا في التقربات بالأعمال الظاهرة، وهي ظاهر التقرب، ثم يترقى من ذلك إلى حال التقرب، وهو الانجذاب إلى حبيبه بكليته بروحه وقلبه، وعقله وبدنه، ثم يترقى من ذلك إلى حال الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه، فيتقرب إليه حينئذ من باطنه بأعمال القلوب، من المحبة والإنابة والتعظيم والإجلال والخشية، فينبعث حينئذ من باطنه الجود ببذل الروح، والجود في محبة حبيبه بلا تكلف، فيجود بروحه ونفسه، وأنفاسه وإرادته، وأعماله لحبيبه حالًا لا تكلفًا، فإذا وجد المحب ذلك فقد ظفر بحال التقرب وسره وباطنه، وإن لم يجده فهو يتقرب بلسانه

(١) «مدارج السالكين» (٣/٢٥٣-٢٥٤).

وبدنه وظاهره فقط، فليدم على ذلك، وليتكلف التقرب بالأذكار والأعمال على الدوام، فعساه أن يحظى بحال القرب.

ووراء هذا القرب الباطن أمر آخر أيضًا، وهو شيء لا يعبر عنه بأحسن من عبارة أقرب الخلق إلى الله ﷺ عن هذا المعنى، حيث يقول حاكيًا عن ربه تبارك وتعالى: «مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»(١). فيجد هذا المحب في باطنه ذوق معنى هذا الحديث ذوقًا حقيقيًّا.

فذكر من مراتب القرب ثلاثة، ونبه بها على ما دونها وما فوقها، فذكر تقرب العبد إليه بالشبر، وتقربه سبحانه إلى العبد ذراعًا، فإذا ذاق العبد حقيقة هذا التقرب انتقل منه إلى تقرب الذراع، فيجد ذوق تقرب الرب إليه باعًا.

فإذا ذاق حلاوة هذا القرب الثاني أسرع المشي حينئذ إلى ربه، فيذوق حلاوة إتيانه إليه هرولة، وهاهنا منتهى الحديث، منبها على أنه إذا هرول عبده إليه كان قرب حبيبه منه فوق هرولة العبد إليه، فإما أن يكون قد أمسك عن ذلك لعظيم شاهد الجزاء، أو لأنه يدخل في الجزاء الذي لم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر، أو إحالة له على المراتب المتقدمة، فكأنه قيل له: وقس على هذا، فعلى قدر ما تبذل منك متقربًا إلى ربك يتقرب إليك بأكثر منه، وعلى هذا فلازم هذا التقرب المذكور في مراتبه أن من تقرب إلى حبيبه بروحه وجميع قواه، وإرادته وأقواله وأعماله، تقرب الرب منه سبحانه بنفسه في مقابلة تقرب عبده إليه». اهـ.

---

(١) متفق عليه، وهذا لفظ مسلم.

قلت: ولله در من قال:

وإذا كانـــت النفـــوسُ كبـــارًا   تعـــبت في مرادهـــا الأجســـامُ

⊙⊙⊙⊙⊙

الدعاء وعلاقته بالقدر السابق

قال ابن القيم[1]: «وفي هذا المقام غلط طائفتان من الناس:

طائفة ظنت أن القدر السابق يجعل الدعاء عديم الفائدة.

قالوا: فإن المطلوب إن كان قد قُدِّر فلا بد من وصوله دعا العبد أو لم يدع، وإن لم يكن قد قُدِّر فلا سبيل إلى حصوله دعا أو لم يدع.

ولما رأوا الكتاب والسنة والآثار قد تظاهرت بالدعاء وفضله والحث عليه وطلبه قالوا: هو عبودية محضة لا تأثير له في المطلوب البتة، وإنما تعبدنا به الله وله أن يتعبد عباده بما شاء كيف شاء.

والطائفة الثانية: ظنت أن بنفس الدعاء والطلب ينال المطلوب، وأنه موجب لحصوله، حتى كأنه سبب مستقل، وربما انضاف إلى ذلك شهودهم أن هذا السبب منهم وبهم، وأنهم هم الذين فعلوه، وأن نفوسهم هي التي فعلته وأحدثته.

وإن علموا أن الله خالق أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم وإراداتهم، فربما غاب عنهم شهود كون ذلك بالله ومن الله، لا بهم ولا منهم، وأنه هو الذي حركهم للدعاء، وقذفه في قلب العبد وأجراه على لسانه.

فهاتان الطائفتان غالطتان أقبح غلط، وهما محجوبتان عن الله.

---

(١) «مدارج السالكين» (١٠٤/٣-١٠٥).

فالأولى: محجوبة عن رؤية حكمته في الأسباب ونصبها لإقامة العبودية، وتعلق الشرع والقدر بها، فحجابها كثيف عن معرفة حكمة الله سبحانه وتعالى في شرعه وأمره وقدره.

والثانية: محجوبة عن رؤية مننه وفضله، وتفرده بالربوبية والتدبير، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حول للعبد ولا قوة له ـ بل ولا للعالم أجمع ـ إلا به سبحانه، وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ومشيئته.

وقول الطائفة الأولى: إن المطلوب إن قُدِّر لا بد من حصوله، وإنه إن لم يُقَدَّر فلا مطمع في حصوله، جوابه أن يقال: بقي قسم ثالث لم تذكروه، وهو أنه قُدِّر بسببه، فإن وُجد سببه وُجد ما رُتِّب عليه، وإن لم يوجد سببه لم يوجد.

ومن أسباب المطلوب الدعاء والطلب اللذين إذا وُجدا وُجد ما رُتِّب عليهما، كما أن من أسباب الولد الجماع، ومن أسباب الزرع البذر، ونحو ذلك.

وهذا القسم الثالث هو الحق.

ويقال للطائفة الثانية: لا موجب إلا مشيئة الله تعالى، وليس هاهنا سبب مستقل غيرها، فهو الذي جعل السبب سببًا، وهو الذي رتب على السبب حصول المسبَّب، ولو شاء لأوجده بغير ذلك السبب، وإذا شاء منع سببية السبب وقطع عنه اقتضاء أثره، وإذا شاء أقام له مانعًا يمنعه عن اقتضاء أثره مع بقاء قوته فيه، وإذا شاء رتب عليه ضد مقتضاه وموجبه.

فالأسباب طوع مشيئته سبحانه وقدرته، وتحت تصرفه وتدبيره، يقلبها كيف شاء».

وقال في موضع آخر(١): «وهاهنا سؤال مشهور وهو: أن المدعو به إن كان قد

---

(١) «الداء والدواء» (ص ٢٦-٢٨ - طبعة بكر أبو زيد).

قُدِّر لم يكن بُدٌّ من وقوعه، دعا به العبد أو لم يدع، وإن لم يكن قد قُدِّر لم يقع، سواء سأله العبد أو لم يسأله.

فظنت طائفة صحة هذا السؤال، فتركت الدعاء وقالت: لا فائدة فيه، وهؤلاء مع فرط جهلهم وضلالهم متناقضون، فإن طَرْد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب، فيقال لأحدهم:

إن كان الشبع والري قد قُدِّرا لك فلابد من وقوعهما، أكلت أو لم تأكل، وإن لم يُقَدَّرا لم يقعا أكلت أو لم تأكل.

وإن كان الولد قُدِّر لك فلابد منه، وطئت الزوجة أو الأمة أو لم تطأ، وإن لم يُقَدَّر لم يكن، فلا حاجة إلى التزويج والتسري، وهَلُمَّ جَرًّا.

فهل يقول هذا عاقل أو آدمي؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته، فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضل سبيلًا.

وتكايس بعضهم وقال: الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يثيب الله عليه الداعي، من غير أن يكون له تأثير في المطلوب بوجه ما، ولا فرق عند هذا المُتَكَيِّس بين الدعاء والإمساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب، وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ولا فرق.

وقالت طائفة أخرى أكيس من هؤلاء: بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله سبحانه أَمَارة على قضاء الحاجة، فمتى وُفِّق العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأَمَارة على أن حاجته قد انقضت، وهذا كما إذا رأيت غيمًا أسود باردًا في زمن الشتاء، فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر».

⊙⊙⊙⊙⊙

حُجُب القلب

قال ابن القيم[(١)]: «الحجب عشرة:

الأول: حجاب التعطيل ونفي حقائق الأسماء والصفات، وهو أغلظها، فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله، ولا يصل إليه البتة إلا كما يتهيأ للحجر أن يصعد إلى فوق.

الثاني: حجاب الشرك، وهو أن يتعبد قلبه لغير الله.

الثالث: حجاب البدعة القولية، كحجاب أهل الأهواء والمقالات الفاسدة على اختلافها.

الرابع: حجاب البدعة العملية، كحجاب أهل السلوك المبتدعين في طريقهم وسلوكهم.

الخامس: حجاب أهل الكبائر الباطنة، كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد والفخر والخيلاء ونحوها.

السادس: حجاب أهل الكبائر الظاهرة، وحجابهم أرق من حجاب إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة مع كثرة عباداتهم وزهاداتهم واجتهاداتهم، فكبائر هؤلاء أقرب إلى التوبة من كبائر أولئك، فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشَون من إظهارها وإخراجها في قوالب عبادة ومعرفة، فأهل الكبائر الظاهرة أدنى إلى السلامة منهم، وقلوبهم خير من قلوبهم.

السابع: حجاب أهل الصغائر.

الثامن: حجاب أهل الفضلات والتوسع في المباحات.

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/٢٢٣-٢٢٤).

التاسع: حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خُلقوا له وأُريد منهم، وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته.

العاشر: حجاب المجتهدين السالكين المشمرين في السير عن المقصود.

فهذه عشر حُجُب بين القلب وبين الله سبحانه وتعالى، تحول بينه وبين هذا الشأن، وهذه الحُجُب تنشأ من أربعة عناصر: عنصر النفس، وعنصر الشيطان، وعنصر الدنيا، وعنصر الهوى، فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها في القلب البتة.

وهذه الأربعة العناصر تفسد القول والعمل والقصد والطريق بحسب غلبتها وقلتها، فتقطع طريق القول والعمل والقصد أن يصل إلى القلب، وما وصل منه إلى القلب قطعت عليه الطريق أن يصل إلى الرب، فبين القول والعمل وبين القلب مسافة يسافر فيها العبد إلى قلبه ليرى عجائب ما هنالك، وفي هذه المسافة قطاع الطريق المذكورون، فإن حاربهم وخلص العمل إلى قلبه دار فيه، وطلب النفوذ من هناك إلى الله، فإنه لا يستقر دون الوصول إليه ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم:٤٢].

فإذا وصل إلى الله سبحانه أثابه عليه مزيدًا في إيمانه ويقينه، ومعرفته وعقله، وجَمَّل به ظاهره وباطنه، فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال، وصرف عنه به سيئ الأخلاق والأعمال، وأقام الله سبحانه من ذلك العمل للقلب جندًا يحارب به قطاع الطريق للوصول إليه.

فيحارب الدنيا بالزهد فيها وإخراجها من قلبه، ولا يضره أن تكون في يده وبيته، ولا يمنع ذلك من قوة يقينه بالآخرة، ويحارب الشيطان بترك الاستجابة لداعي الهوى، فإن الشيطان مع الهوى لا يفارقه، ويحارب الهوى

بتحكيم الأمر المطلق والوقوف معه، بحيث لا يبقى له هوى فيما يفعله ويتركه، ويحارب النفس بقوة الإخلاص».

⊙⊙⊙⊙⊙

شأن الدعاء في تزكية النفس

اعلم أنه لا يُتخلص من شر النفس إلا باستمداد التوفيق من الله تعالى في ذلك، بدعائه عز وجل في صلاحها وزكاتها، والاستعاذة به من شرها، فإنه هو الموفق للخير، ودون توفيقه لا يمكن العبد أن يتخلص من شرها، كما قال تبارك وتعالى:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:٢١].

قال ابن كثير[١]: «أي: لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه، ويزكي النفوس من شركها وفجورها ودسها، وما فيها من أخلاق رديئة، كل بحسبه، لما حصّل أحد لنفسه زكاة ولا خيرًا».

وقال الله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ * فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات:٧-٨].

قال ابن القيم[٢]: «فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها، ولكن هو الله الذي مَنّ بهما، فجعل العبدَ بسببهما من الراشدين، ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، عليم بمن يصلح لهذا الفضل ويزكو عليه وبه، ويثمر

---

(١) «تفسيره» (٢٧٥/٣).

(٢) «مدارج السالكين» (٢٣٦/١).

عنده، حكيم فلا يضعه عند غير أهله، فيضيعه بوضعه في غير موضعه».اهـ.

قلت: فعلى العبد أن يدعو ربه تبارك وتعالى أن يزكي له نفسه، وأن لا يكله إليها طرفة عين أبدًا، ويتوسل إليه، وينطرح بين يديه، ويتذلل له، ويستغيث برحمته ألا يُحَكِّم فيه نفسه، فتهلكه هلاكًا لا يستطيع الخلاص منه.

ويدعو ويقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا»(١).

ويدعو بما أوصى به رسول الله ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها، وذلك من حديث أنسٍ بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لفاطمة:

«مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ؟! أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ [أَبَدًا]»(٢).

وقال النبي ﷺ: «دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، [وَ]أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»(٣).

قال ابن القيم(٤): «أجمع العارفون بالله على أن الخِذلان: أن يكلك الله إلى نفسك، ويخلي بينك وبينها، والتوفيق: أن لا يكلك الله إلى نفسك».

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢) وغيره، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول: كان يقول: « اللَّهُمَّ...» إلخ.

(٢) أخرجه النسائي (رقم ٥٧٠)، وابن السني (رقم ٤٨)، والزيادة له، كلاهما في «عمل اليوم والليلة»، وغيرُهما. وهو في «الصحيحة» (٢٢٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، وأحمد (٢٠٤٣٠ - ط الرسالة)، وغيرهما، وحسنه الألباني.

(٤) «إغاثة اللهفان» (١/١٨٠).

وقال[1]: «فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخِذلانه، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا، فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه له، ثم يعصيه ويخالفه ويُسخطه ويغفل عنه بخِذلانه له، فهو دائر بين توفيقه وخِذلانه، فإن وفقه فبفضله ورحمته، وإن خذله فبعدله وحكمته، وهو المحمود على هذا وهذا، له أتم حمد وأكمله، ولم يمنع العبد شيئًا هو له، وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه، وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله؟

فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه علم شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق في كل نَفَس وكل لحظة وطرفة عين، وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى، لو تخلى عنه طرفة عين لَثُلّ عرش توحيده، ولخرت سماء إيمانه على الأرض، وأن الممسك له هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه».

ووصف رحمه الله النفس بالظلم والجهل، وذكر أن هذين الوصفين يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح، ثم قال[2]: «ومَنْ وَصْفه الجهل والظلم لا مطمع في استقامته واعتداله البتة، فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها به عن وصف الجهل، والعمل الصالح الذي يخرجها به عن وصف الظلم، ومع هذا فجهلها أكثر من علمها، وظلمها أعظم من عدلها».

قال: «فحقيق بمن هذا شأنه: أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يَقِيَه شرها، وأن يؤتيها تقواها ويزكيها، فهو خير من زكاها، فإنه ربها ومولاها، وأن لا يكله إليها طرفة عين، فإنه إن وَكَله إليها هلك، فما هلك من هلك إلا حيث وُكِل إلى نفسه».

قلت: وحقيق بمَنْ مَنَّ الله عليه بالهداية، فحبب إليه الإيمان، وزينه في

---

(١) «مدارج السالكين» (٤١٣/١).

(٢) «مدارج السالكين» (٢٢٠/١).

قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين، وهذا أعظم النعم على الإطلاق، حقيق به أن يلهج بحمد الله تعالى والثناء عليه وشكره، وأن لا يني أبدًا في ذكره عز وجل، فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا، مباركًا فيه، مباركًا عليه، كما يحب ربنا ويرضى، ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شاء ربنا من شيء بعد.

وليحذر العبد كل الحذر من أن يمدح نفسه أو يزكيها، وينسى منة الله تعالى عليه، وأنه لولا فضله عليه ورحمته ما وصل إلى شيء من الخير، ولا قوي على اجتناب شيء من الشر، قال سبحانه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٩].

قال شيخ الإسلام(١): «﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ أي: تخبروا بزكاتها. وهذا غير قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩]. ولهذا قال: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

وكان اسم زينب بَرّة، فقيل: تزكي نفسها. فسماها رسول الله ﷺ زينب(٢).

وأما قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يجعله زاكيًا ويخبر بزكاته، كما يزكِّي المزكِّي الشهود».

الاستعاذة من شر النفس

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله، مُرْنِي بكلمات أقولهُنَّ إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ قال:

«قُلِ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَ[مِنْ] شَرِّ الشَّيْطَانِ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٩٨).

(٢) متفق عليه.

وَشِرْكِهِ، [وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ]».

قال: «قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ»[1].

وفي خُطبة الحاجة: «الْحَمْدُ للهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا» الحديث[2].

الدعاء للنفس بالحفظ

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه أمر رجلًا إذا أخذ مضجعه قال:

«اللَّهُمَّ [أَنْتَ] خَلَقْتَ نَفْسِي وَأَنْتَ تَوَفَّاهَا، لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا، إِنْ أَحْيَيْتَهَا فَاحْفَظْهَا، وَإِنْ أَمَتَّهَا فَاغْفِرْ لَهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ».

فقال له رجل: أسمعت هذا من عمر؟ فقال: مِنْ خَيرٍ من عمر، من رسول الله ﷺ[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ عَنْ فِرَاشِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِصَنِفَةِ[4] إِزَارِهِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ بَعْدُ، فَإِذَا اضْطَجَعَ فَلْيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، فَإِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ.

فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَلْيَقُلِ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ»[5].

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٦٧)، واللفظ له، والترمذي (٣٣٩٢)، وله الزيادة الأولى، وغيرهما، والزيادة الثانية للترمذي (٣٥٢٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. وصحح الألباني الحديثين.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (١٨٩٢) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧١٢) وغيره.

(٤) هي حاشية الإزار التي تلي جسده. «طِيبي».

(٥) أخرجه الترمذي (٣٤٠١) بهذا اللفظ، وحسنه الألباني. وأصله في «الصحيحين».

الدعاء لها بالنور

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، [أن النبي ﷺ] كان يقول في دعائه:

«اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي لِسَانِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَمِنْ فَوْقِي نُورًا، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ شِمَالِي نُورًا، وَمِنْ بَيْنِ يَدَيَّ نُورًا، وَمِنْ خَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي نَفْسِي نُورًا، وَأَعْظِمْ لِي نُورًا»[(١)].

المعوذات

ومن أهم ما يحصن العبد به نفسه: المُعَوِّذات، فيقولها في الصباح والمساء وعند النوم ثلاث مرات، ويقولها مرة في دبر كل صلاة مكتوبة، ولا يخلي منها يومًا ولا ليلة.

عن معاذ بن عبد الله بن خُبَيْبٍ، عن أبيه، أنه قال: خرجنا في ليلةِ مَطَرٍ وظُلْمَةٍ شديدةٍ نطلب رسول الله ﷺ ليُصَلِّيَ لنا، فأدركناه فقال: «أَصَلَّيْتُمْ؟» فلم أقل شيئًا. فقال: «قُلْ». فلم أقل شيئًا. ثم قال: «قُلْ». فلم أقل شيئًا. ثم قال: «قُلْ». فقلتُ: يا رسول الله، ما أقول؟ قال:

«قُلْ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ، حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»[(٢)].

وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ: «كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ[(٣)] فِيهِمَا، فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ

---

(١) بعض حديث، متفق عليه، وهذا أحد ألفاظ مسلم (٧٦٣). وهذا الدعاء مما يقال في السجود، كما في رواية النسائي (١١٢١).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٨٢) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) النَّفْث: نفخ لطيف بلا ريق. «نووي».

بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ»(١).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقِيت رسول الله ﷺ فقال لي: «يَا عُقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ، أَلَا أُعَلِّمُكَ سُوَرًا مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهُنَّ، لَا يَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ لَيْلَةٌ إِلَّا قَرَأْتَهُنَّ فِيهَا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»(٢).

وعنه رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمُعَوِّذات دُبُرَ كل صلاة(٣).

قال ابن القيم في شأن المعوذتين(٤): «حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النَفَس والطعام والشراب واللباس».

سؤال الهداية

ومن أنفع الأدعية في الخلاص من شر النفس، ومن كل شر، بل ولجلب كل خير: دعاء العبد في صلاته بقول الله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

وعلى العبد أن يتنبه لمعنى هذا الدعاء العظيم، ويستحضر في قلبه ما اشتمل عليه، وهو أوجب دعاء على المكلفين، ومع وجوبه عليهم في كل يوم مرات عديدة، ففيه غاية صلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، مثله مثل سائر أوامر الحق تبارك وتعالى، التي ألزمهم بها لا لحاجة إليهم، إنما ليزكيهم ويسعدهم بها، فسبحانه هو الغني الحميد!

---

(١) أخرجه البخاري وغيره.

(٢) بعض حديث، أخرجه أحمد (١٧٤٥٢) وغيره. وهو في «الصحيحة» (٢٨٦١).

(٣) أخرجه أبو داود (١٥٢٣) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) «بدائع الفوائد» (٢/١٩٩).

قال ابن القيم بعد كلام[1]: «ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم، فليس شيء أحوج منه إلى هذه الدعوة، وليس شيء أنفع له منها».

وله:

فسَـلِ الهدايـةَ مَـنْ أَزِمَّـةُ أمرنـا	بيديـه مسـألةَ الذليـل العـاني
وسَلِ العياذَ مـن اثنتـين همـا اللتـا	ن بهَلْـكِ هـذا الخلـق كافلتـانِ
شرُّ النفـوس وسـيِّئُ الأعمـال مـا	واللهِ أعظـمُ منهمـا شرانِ
ولقـد أتى هـذا التعـوذُ منهمـا	في خُطبـة المبعـوث بـالقرآنِ
لـو كان يـدري العبـد أن مُصـابهُ	في هـذه الدنيـا هـو الشـرانِ
جعـل التعـوذ منهمـا دَيْدانَـهُ	حـتى تـراه داخـل الأكفـانِ
وسَـلِ العيـاذ مـن التكـبر والهـوى	فهمـا لـكل الشـر جامعتـانِ
وهما يَصُـدانِ الفـتى عـن كل طُـرْ	ق الخـير إذ في قلبـه يَلجـانِ

سؤال التثبيت

ومن أهم الأدعية في ذلك: أن يسأل العبد ربه عز وجل أن يثبت قلبه على دينه، ويُصَرِّفه على طاعته، وأن لا يزيغه بعد إذ هداه، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول:

«يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ».

فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال:

«نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»[2].

(١) «الجواب الكافي» (ص ١٢٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٤٠) وغيره، وصححه الألباني.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ». ثم قال رسول الله ﷺ:

«اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»[1].

وأخبر جل وعز عن الراسخين في العلم أنهم يدعونه سبحانه قائلين:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:٨].

⊙⊙⊙⊙⊙

مراتب أهل العلم

قال الإمام ابن حزم[2]: «فقد جمع رسول الله ﷺ في هذا الحديث مراتب أهل العلم دون أن يشذ منها شيء، فالأرض الطيبة النقية هي مثل الفقيه الضابط لما روى، الفَهِم للمعاني التي يقتضيها لفظ النص، المتنبه على رد ما اختلف فيه الناس إلى نص حكم القرآن وسنة رسول الله ﷺ، وأما الأجادب الممسكة للماء التي يستقي منها الناس فهي مثل الطائفة التي حفظت ما سمعت، أو ضبطته بالكتاب وأمسكته حتى أدته إلى غيرها غير مغير، ولم يكن لها تنبه على معاني ألفاظ ما روت، ولا معرفة بكيفية رد ما اختلف الناس فيه إلى نص القرآن والسنن التي روت، لكن نفع الله تعالى بهم في التبليغ، فبلغوه إلى من هو أفهم بذلك، فقد أنذر رسول الله ﷺ بهذا إذ يقول: «فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»[3]. وكما روي عنه عليه السلام أنه قال: «فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ»[4]».

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) وغيره.

(٢) «الإحكام في أصول الأحكام» (١/١٣٩ - ١٤٠).

(٣) بعض حديث، متفق عليه، وهذه اللفظة عند البخاري وحده.

(٤) بعض حديث، أخرجه أبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وابن ماجه (٢٣٠)، وغيرهم، وصححه الألباني.

قال أبو محمد: «فمن لم يحفظ ما سمع ولا ضبطه فليس مثل الأرض الطيبة ولا مثل الأجادب الممسكة للماء، بل هو محروم معذور، أو مسخوط بمنزلة القيعان التي لا تنبت الكلأ ولا تمسك الماء، وفي هذا كفاية بيان، وبالله تعالى التوفيق».

⦿⦿⦿⦿⦿

شروط صحة العمل

واعلمي يا نفس أنه لا يصح لك عبادة، ولا يقبل منك عمل، إلا بشروط ثلاثة(١):

الأول: الإيمان. وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر؛ خيره وشره، حلوه ومره، وبأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر:٤٠].

وقال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء:١٢٤].

وقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

قال الشنقيطي(٢): «فقَيَّد ذلك بالإيمان، ومفهومُ مخالفتِه أنه لو كان غير

---

(١) تقدم ذكر هذا والتنبيه عليه مرارًا، وهذا عَوْد لجمع متفرقاته، وتلخيص مفرداته.

(٢) «أضواء البيان» (٣/٣٥٣).

مؤمن لما قُبِل منه ذلك العمل الصالح».

وقال ابن سعدي[1]: «﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة، ولا تقبل، ولا يترتب عليها الثواب، ولا يندفع بها العقاب، إلا بالإيمان.

فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قُطِع أصلها، وكبناء بُنِي على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يُبْنَى عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أُطْلِق، فإنه مقيد به».

وقال في موضع آخر[2]: «الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تُسَمَّى أعمالًا صالحة إلا بالإيمان، والإيمان مُقْتَضٍ لها، فإنه التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات». اهـ.

وقال الله تعالى في عمل غير المؤمن: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣].

وقال سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم:١٨].

الشرط الثاني: الإخلاص.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤١٥/١).

(٢) «التيسير» (٨٣/٣).

يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[1].

وعن أبي أُمامةَ الباهلي رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: أَرأيتَ رجلًا غَزَا يَلتمِسُ الأجرَ والذِّكْرَ، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ». فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ». ثم قال:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ»[2].

والإخلاص ـ كما قال ابن القيم[3] ـ: «تصفية العمل من كل شَوْبٍ؛ أي: لا يُمَازِجُ عمله ما يَشُوبُهُ من شوائب إرادات النفس، إما طلب التَّزَيُّنِ في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم ومحبتهم وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب، التي عَقْدُ مُتَفَرِّقاتها هو: إرادة ما سوى الله بعمله، كائنًا ما كان».

الشرط الثالث: المتابعة للنبي ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧].

وقال سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

وقال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠].

وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[4].

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه النسائي (٦/٢٥) وغيره، وجود إسناده الحافظ في «الفتح» (٦/٢٨)، والمنذري في «الترغيب» (١/٥٥)، وأقره الألباني.

(٣) «مدارج السالكين» (٢/٩٢).

(٤) متفق عليه. وقد تقدم (صفحة ٦٣)، فلتُنظر ألفاظه.

قال النووي[1]: «قال أهل العربية: الرد هنا بمعنى المردود، ومعناه: فهو باطل غير مُعْتَدٍّ به، وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كَلِمه ﷺ، فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات».

قال: «وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات، وإشاعة الاستدلال به».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الاقتصاد في السنة أحسن من الاجتهاد في البدعة[2].

وقال شيخ الإسلام[3]: «فالحذر الحذر أيها الرجل من أن تكره شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ، أو ترده، لأجل هواك، أو انتصارًا لمذهبك أو لشيخك، أو لأجل اشتغالك بالشهوات أو بالدنيا، فإن الله لم يوجب على أحد طاعة أحد إلا طاعة رسوله، والأخذ بما جاء به، بحيث لو خالف العبد جميع الخلق واتبع الرسول ما سأله الله عن مخالفة أحد، فإن من يطيع أو يطاع إنما يطاع تبعًا للرسول، وإلا لو أَمر بخلاف ما أَمر به الرسول ما أُطيع». اهـ.

وقال المُعَلِّمِي في تقريظ كتاب «فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد»[4]: «قد أكثر العارفون بالإسلام المخلصون له من تقرير أن كل ما وقع فيه المسلمون من الضعف والخَوَر والتخاذل، وغير ذلك من وجوه الانحطاط، إنما كان لبعدهم عن حقيقة الإسلام، وأرى أن ذلك يرجع إلى أمور:

الأول: التباس ما ليس من الدين بما هو منه.

الثاني: ضعف اليقين بما هو من الدين.

---

(١) «شرح مسلم» (١٦/١٢).

(٢) أخرجه الحاكم (١٨٤/١) وغيره. وهو في «صحيح الترغيب» (رقم ٤١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥٢٨/١٦-٥٢٩).

(٤) (٨/١-٩).

الثالث: عدم العمل بأحكام الدين.

وأرى أن معرفة الآداب النبوية الصحيحة، في العبادات والمعاملات، والإقامة والسفر، والمعاشرة والوحدة، والحركة والسكون، واليقظة والنوم، والأكل والشرب، والكلام والصمت، وغير ذلك مما يعرض للإنسان في حياته، مع تحري العمل بها كما يتيسر، هو الدواء الوحيد لتلك الأمراض، فإن كثيرًا من تلك الآداب سهلٌ على النفس، فإذا عمل الإنسان بما يسهل عليه منها، تاركًا لما يخالفها، لم يلبث إن شاء الله تعالى أن يرغب في الازدياد، فعسى أن لا تمضي عليه مدة إلا وقد أصبح قدوة لغيره في ذلك.

وبالاهتداء بذلك الهَدي القويم، والتخلق بذلك الخلق العظيم ـ ولو إلى حدٍّ ما ـ يستنير القلب، وينشرح الصدر، وتطمئن النفس، فيرسخ اليقين، ويصلح العمل، وإذا كثر السالكون في هذا السبيل لم تلبث تلك الأمراض أن تزول إن شاء الله».

قال: «ومن أبسط مجموعات كتب السنة في الأدب النبوي كتاب «الأدب المفرد» للإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله، والإمام البخاري كالشمس في رابعة النهار شهرة، وإلى مؤلفاته المنتهى في الجودة والصحة، وكتابه هذا ـ أعني «الأدب المفرد» ـ هو بعد كتابه «الجامع الصحيح» أولى كتبه بأن يَعتني به من يريد اتباع السنة، فإنه جمع فأوعى، مع التحري والتوقي والتنبيه على الدقائق». اهـ.

وقد جمع الله عز وجل هذه الشروط الثلاثة في قوله:

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩].

أما «الإخلاص»، ففي قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ ﴾، فإرادة الآخرة: هي

صلاح التوجه والقصد، وهو الإخلاص.

وأما «المتابعة»، ففي قوله تعالى: ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾.

قال ابن كثير(١): «أي طلب ذلك من طريقه، وهو متابعة الرسول ﷺ».

وأما «الإيمان»، ففي قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾.

قال الشنقيطي(٢): «في الآية الدليل على أن الأعمال الصالحة لا تنفع إلا مع الإيمان بالله، لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة، لأنه شَرَطَ في ذلك قوله: ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾».

وذكر الله عز وجل شرطي «الإخلاص» و«المتابعة» في قوله:

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠].

قال ابن كثير(٣): «﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾؛ أي: ثوابَه وجزاءَه الصالح، ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾؛ ما كان موافقًا لشرع الله. ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾، وهو الذي يُرَاد به وجهُ الله وحده لا شريك له، وهذان رُكْنا العمل المُتَقَبَّل: لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ». اهـ.

قلت: وبهذين الشرطين فسر العلماء «العمل الحسن» في مثل قول الله عز وجل:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود:٧].

قال ابن كثير(٤): «قوله: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾؛ أي: ليختبركم، ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

---

(١) «تفسيره» (٣/٣٣).

(٢) «أضواء البيان» (٣/٤٩٢).

(٣) «تفسيره» (٣/١٠٨).

(٤) «تفسير» (٢/٤٣٨).

عَمَلًا ﴾، ولم يقل: أكثر عملًا، بل ﴿ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾، ولا يكون العمل حسنًا حتى يكون خالصًا لله عز وجل، على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشرطين حَبِط وبَطَل». اهـ.

قال شيخ الإسلام(١): «كان أئمة السلف يَجمعون هذين الأصلين، كقول الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود:٧، والملك:٢]، قال: أخلصه وأصوبه. فقيل: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، وإذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة(٢).

وقد روى ابن شاهين واللالكائي عن سعيد بن جبير قال: لا يُقبل قول وعمل إلا بنية، ولا يُقبل قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة.

ورَوَيا عن الحسن البصري مثله، ولفظه: «لا يصلح» مكان «يقبل»». اهـ.

وقال الشنقيطي(٣): «ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خُلِق من أجلها هي أن يُبْتَلى (أي: يُختبر) بإحسان العمل، فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار». اهـ.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء:١٢٥].

قال ابن القيم(٤): «إسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله، والإحسان فيه: متابعة رسوله ﷺ وسنته».

⦿⦿⦿⦿⦿

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧٧/٢٨).

(٢) ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠]. كذا في «مدارج السالكين» (٨٩/١).

(٣) «أضواء البيان» (١١/٣).

(٤) «مدارج السالكين» (٩٠/٢).

لكل نعمة حاسد

قال شيخ الإسلام[١]: «أعظم النعمة الإقبال والتعبد، ولكل نعمة حاسد على قدرها، دقت أو جلت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فإن أنفس الحاسدين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله تعالى، قد تحدث بها وأخبر بها، فسلبه إياها الأغيار!».

قلت: مع كون هذه أعظم النعم فإنه يندر أن تجد من يخاف أن يُحسد عليها، ويندر أن تجد من يعرف قدرها فيَحسد عليها، لأنها هي نادرة، هذا أولًا.

وثانيًا: لأن الناس غالبًا يعظِّمون النعم الدنيوية، فيخافون من زوالها عنهم، ويحسدون عليها غيرهم.

وثالثًا: لأن الرياء عَمَّ وطم، فيحب المرء أن يتحدث، أو لأنه لا يرى من الناس من يلتفت إلى عِظَم ما هو فيه فيجد نفسه يكاد يفقع ألمًا إن لم يتحدث.

والسلامة والغُنم في ترك التحدث. كما أفاد الشيخ الإمام رحمه الله.

والعون من الله عز وجل، والتوفيق به وحده.

⊙⊙⊙⊙⊙

الخشوع في الصلاة وما يعين عليه

الخشوع في الصلاة، هو روحها وحياتها، وهو خشوعان:

خشوع الجوارح: بأداء أركان الصلاة العملية من ركوع وسجود وغيرها بالطُّمَأنينة، وإعطائها حقها ووقتها من السكون والاستواء وإقامة الصُّلْب، والإتيان بالهيئات الواردة في القيام والركوع والسجود والجلوس

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (١٨/١٥).

والتنقل بينها، وترك الحركة والعبث والالتفات وسائر ما يخل بالسكينة والطُّمَأنينة والوقار.

وخشوع القلب: بالحرص على أخذ حقه من القنوت لله والتعظيم والذل والخضوع، بحسب أعمال الصلاة من قيام وركوع وسجود وغيرها وما يناسبها من ذلك، وبحضور القلب ورقته في التلاوة والذكر، وتدبر ما يقال في الصلاة كلها.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١-٢]. الآيات.

وعن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(١).

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عُشْرُ صَلَاتِهِ، تُسُعُهَا، ثُمُنُهَا، سُبُعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا»(٢).

وعن أبي اليَسَرِ صاحب النبي ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال:

«مِنْكُمْ مَنْ يُصَلِّي الصَّلَاةَ كَامِلَةً، وَمِنْكُمْ مَنْ يُصَلِّي النِّصْفَ، وَالثُّلُثَ، وَالرُّبُعَ، وَالْخُمُسَ، حَتَّى بَلَغَ الْعُشْرَ»(٣).

ويعين على الخشوع: استشعار المصلي أنه يقف بين يدي الله تعالى، يناجيه ويدعوه ويسأله، وأنه تبارك وتعالى قبل وجهه، يواجهه في قبلته،

---

(١) بعض حديث، متفق عليه.

(٢) أخرجه أبو داود (٧٩٦) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦١٦) وغيرُه، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٥٣٨).

ويسمعه ويراه ويجيبه[1]، وأنه سيقف بين يديه في الآخرة، وسيكون أول ما يحاسبه عليه صلاته، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله، كما ورد.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

ويعينه عليه: أن يظن أن هذه الصلاة قد تكون آخر صلاة يصليها، فيحرص على أدائها بكل خشوع وخضوع، مودعًا للدنيا، مقبلًا على الآخرة.

عن أبي أيوب رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال:

«إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ، وَلَا تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ، وَأَجْمِعِ الْيَأْسَ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ»[2].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اذْكُرِ الْمَوْتَ فِي صَلاتِكَ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ، وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةً غَيْرَهَا، وَإِيَّاكَ وَكُلَّ أَمْرٍ يُعْتَذَرُ مِنْهُ»[3].

ويعينه عليه: تفريغ قلبه في الصلاة من كل شيء سوى ما هو بصدده، من مناجاة الله تعالى وترتيل كلامه والتعظيم له، والاستغراق في سائر أفعال

---

(١) أعني ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي. فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ». أخرجه مسلم (٣٩٥) وغيره.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٧١) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (١٧٥٥ - مختصره). وهو في «الصحيحة» (٢٨٣٩).

الصلاة الظاهرة والباطنة.

قال ابن كثير[١]: «الخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين[٢]».

وقال ابن رجب: «أصل الخشوع هو: لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء، لأنها تابعة له، كما قال ﷺ: «أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[٣].

فإذا خشع القلب خشع السمع والبصر والرأس والوجه وسائر الأعضاء وما ينشأ منها، حتى الكلام، لهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه في الصلاة: «خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي». وفي رواية: «وَمَا اسْتَقَلَّ بِهِ قَدَمِي»[٤]». اهـ.

وقال الغزالي[٥]: «اعلم أنه تعالى مطلع على سريرتك، وناظر إلى قلبك، فإنما يتقبل الله من صلاتك بقدر خشوعك وخضوعك وتواضعك وتضرعك، واعبده في صلاتك كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

فإن لم يحضر قلبك ولم تسكن جوارحك لقصور معرفتك بجلال الله تعالى،

---

(١) «تفسيره» (٥/٤٠٣ - بيضون).

(٢) فيه إشارة إلى قول النبي ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». وهو من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَـ[ـتْ] قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». أخرجه النسائي (٧/٦١-٦٢) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) بعض حديث، متفق عليه.

(٤) أخرجه الطحاوي (١٣٩٩) وغيره، عن علي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا ركع قال: «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، أَنْتَ رَبِّي، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي، وَمَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ قَدَمِي، لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ». وصححه الألباني في «أصل صفة الصلاة» (٢/٦٦٤)، وهو في «صحيح مسلم» مطوّلًا، وعنده: «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي، وَعَظْمِي، وَعَصَبِي»، دون الجملة الأخيرة.

(٥) «بداية الهداية» (ص ٤٥).

فقدر أن رجلًا صالحًا من وجوه أهل بيتك ينظر إليك ليعلم كيف صلاتك، فعند ذلك يحضر قلبك وتسكن جوارحك.

ثم ارجع إلى نفسك وقل: يا نفس السوء ألا تستحين من خالقك ومولاك؟! إذ قدّرت اطلاع عبد ذليل من عباده عليك، وليس بيده ضرك ولا نفعك، خشعت جوارحك وحسنت صلاتك، ثم إنك تعلمين أنه مطلع عليك ولا تخشعين لعظمته، أهو تعالى عندك أقل من عباده؟! فما أشد طغيانك وجهلك! وما أعظم عداوتك لنفسك!

وعالج قلبك بهذه الحِيَل فعسى أن يحضر معك في صلاتك، فإنه ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها، وأما ما أتيت مع الغفلة والسهو فهو إلى الاستغفار والتكفير أحوج».

⊙⊙⊙⊙⊙

حكمة تخصيص الصوم بأنه لله تعالى وأنه هو يجزي به

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَة ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلَخُلُوفُ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ»[١].

قال ابن سعدي[٢]: «واستثنى في هذا الحديث الصيام، وأضافه إليه، وأنه

---

(١) متفق عليه، وهذا أحد ألفاظ مسلم.

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» (ص ٩٤).

الذي يجزي به بمحض فضله وكرمه، من غير مقابلة للعمل بالتضعيف المذكور الذي تشترك فيه الأعمال، وهذا شيء لا يمكن التعبير عنه، بل يجازيهم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وفي الحديث كالتنبيه على حكمة هذا التخصيص، وأن الصائم لما ترك محبوبات النفس التي طبعت على محبتها، وتقديمها على غيرها، وأنها من الأمور الضرورية، فقدم الصائم عليها محبة ربه، فتركها لله في حالة لا يطلع عليها إلا الله، وصارت محبته لله مقدمة وقاهرة لكل محبة نفسية، وطلب رضاه وثوابه مقدمًا على تحصيل الأغراض النفسية، فلهذا اختصه الله لنفسه، وجعل ثواب الصائم عنده، فما ظنك بأجرٍ وجزاءٍ تكفل به الرحمن الرحيم الكريم المنان، الذي عمت مواهبه جميع الموجودات، وخَصّ أولياءه منها بالحظ الأوفر، والنصيب الأكمل، وقدر لهم من الأسباب والألطاف التي ينالون بها ما عنده على أمور لا تخطر بالبال ولا تدور في الخيال؟! فما ظنك أن يفعل الله بهؤلاء الصائمين المخلصين؟!

وهنا يقف القلم، ويسيح قلب الصائم فرحًا وطربًا بعمل اختصه الله لنفسه، وجعل جزاءه من فضله المحض، وإحسانه الصِّرف، و﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١، والجمعة:٤]». اهـ.

⦿⦿⦿⦿⦿

من كانت الآخرة همه
كفاه الله جميع الهموم

عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود قال: لو أن أهل العلم صانوا العلم، ووضعوه عند أهله، لسادوا به أهل زمانهم، ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا

لينالوا به من دنياهم، فهانوا عليهم، سمعت نبيكم ﷺ يقول:

«مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا، هَمَّ آخِرَتِهِ، كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»(٢).

فاجعل عبد الله الآخرةَ همَّك، وقد كُفِيت هموم الدنيا كلها، وسيأتيك رزقك ونصيبك منها، فإنه مدركك لا محالة، كما أن الموت مدركك لا محالة.

ولا تقلق على الدنيا الفانية التي فيها وفاتك، واقلق على الآخرة الباقية التي فيها حياتك، ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤]. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣٢].

وقد قال الله تعالى ذاكرًا منته العظيمة على أنبيائه وصفوته: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص:٤٦].

قال ابن جرير: «إنا أخلصناهم بخالصة، هي ذكرى الدار الآخرة، فعملوا لها في الدنيا، فأطاعوا الله وراقبوه».

وقال ابن سعدي: «﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ عظيمة، وخصيصة جسيمة، وهي: ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾، جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم، والعمل لها صفوة وقتهم،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٥٧ و ٤١٠٦) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٦٥) وغيره، وصححه الألباني.

والإخلاص والمراقبة لله وصفهم الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار، يتذكر بأحوالهم المتذكر، ويعتبر بهم المعتبر، ويُذكرون بأحسن الذكر».

⦿⦿⦿⦿⦿

سيد الاستغفار

عن شداد بن أوسٍ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ [قال له:

«أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى] سَيِّدِ الْاسْتِغْفَارِ؟ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ[1] لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ». قال:

«وَمَنْ قَالَهَا مِنْ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ (وفي رواية: حِينَ يُمْسِي)، وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»[2].

قال شيخ الإسلام[3]: «قوله: (أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي): اعتراف بإنعام الرب وذنب العبد، كما قال بعض السلف: إني أصبح بين نعمة تنزل من الله علي، وبين ذنب يصعد مني إلى الله، فأريد أن أحْدِث للنعمة شكرًا، وللذنب استغفارًا».

قال[4]: «فالعبد دائمًا بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر، وذنب منه يحتاج فيه إلى الاستغفار، وكلٌّ من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائمًا، فإنه لا

---

(١) أبوء: أُقِرّ وأعترف. «منذري».

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٣١ و٥٨٤٨)، والترمذي (٣٣٩٣)، والزيادة له، والنسائي (٥٥٢٣)، وغيرهم.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٧٣/٨).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٨٨/١٠).

يزال يتقلب في نعم الله وآلائه، ولا يزال محتاجًا إلى التوبة والاستغفار».

وقال ابن القيم[1]: «فتضمن هذا الاستغفار الاعتراف من العبد بربوبية الله وإلهيته وتوحيده، والاعتراف بأنه خالقه العالِـم به، إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه، والاعتراف بأنه عبده الذي ناصيته بيده وفي قبضته، لا مهرب له منه ولا ولي له سواه، ثم التزام الدخول تحت عهده، وهو أمره ونهيه الذي عهده إليه على لسان رسوله، وأن ذلك بحسب استطاعتي لا بحسب أداء حقك، فإنه غير مقدور للبشر، وإنما هو جُهْدُ المُقِلِّ وقدر الطاقة، ومع ذلك فأنا مصدق بوعدك الذي وعدته لأهل طاعتك بالثواب ولأهل معصيتك بالعقاب، فأنا مقيم على عهدك مصدق بوعدك، ثم أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شر ما فرطتُ فيه من أمرك ونهيك، فإنك إن لم تُعِذْني من شره وإلا أحاطت بيَ الهَلَكة، فإن إضاعة حقك سبب الهلاك، وأنا أُقِر لك وألتزم بنعمتك علي، وأُقِر وألتزم وأبخع[2] بذنبي، فمنك النعمة والإحسان والفضل، ومني الذنب والإساءة، فأسألك أن تغفر لي بمحو ذنبي، وأن تعفيَني من شره، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

فلهذا كان هذا الدعاء سيد الاستغفار، وهو متضمن لمحض العبودية».

وقال الطِّيبي[3]: «لما كان هذا الدعاء جامعًا لمعاني التوبة كلها استعير له اسم السيد، وهو في الأصل الرئيس الذي يُقصد في الحوائج ويُرجع إليه في المَهمات».

وقال ابن أبي جمرة[4]: «ويظهر أن اللفظ المذكور إنما يكون سيد

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٢٢١).

(٢) أي: أُقِر معترفًا مطيعًا متذللًا.

(٣) كما في «فيض القدير» (٤/١٢٠).

(٤) كما في «فيض القدير» (٤/١٢٠).

الاستغفار إذا جَمَع صحة النية والتوجه والأدب».

⦿⦿⦿⦿⦿

وفي الختام، أقول: أكتفي بهذا القدر من الفوائد والقواعد في تزكية النفس والسلوك، فإنه باب واسع جدًّا، ولو ذهبت أستطرد فيها بهذه الطريقة وعلى هذا المنوال لجاء الكتاب في عدة مجلدات!!

هذا، ولي كتاب آخر، جمعت فيه عامة ما في كتب العلامة ابن سعدي رحمه الله تعالى من فوائد وقواعد، في باب تزكية النفس وغيره من الأبواب، وهو في مجلد ضخم، كنت قد دونته منذ نحو عشرين سنة.

والله أسأل أن ينفني به ومن يطلع عليه، وأن يجعله من العلم النافع والعمل المتقبَّل، هو وسائر كتبي، بمنِّه وكرمه.

❏❏❏❏❏

الفوائد والقواعد

في تزكية النفس والسلوك

القسم الثاني

الفروق

الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق

قال ابن القيم[1]: «الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق: أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء، فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء وشهود نعم الله وجناياته هو، فيخشع القلب لا محالة فيتبعه خشوع الجوارح.

وأما خشوع النفاق فيبدو على الجوارح تصنعًا وتكلفًا والقلب غير خاشع، وكان بعض الصحابة يقول: أعوذ بالله من خشوع النفاق، قيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يُرى الجسد خاشعًا والقلب غير خاشع.

فالخاشع لله عبد قد خمدت نيران شهوته وسكن دخانها عن صدره فانجلى الصدر وأشرق فيه نور العظمة، فماتت شهوات النفس للخوف والوقار الذي حُشِي به، وخمدت الجوارح وتوقر القلب واطمأن إلى الله وذكره بالسكينة التي نزلت عليه من ربه فصار مخبتًا له، والمخبت: المطمئن، فإن الخبت من الأرض ما اطمأن فاستنقع فيه الماء، فكذلك القلب المخبت قد خشع واطمأن كالبقعة المطمئنة من الأرض التي يجري إليها الماء فيستقر فيها، وعلامته أن يسجد بين يدي ربه إجلالًا وذلًّا وانكسارًا بين يديه سجدة لا يرفع رأسه عنها حتى يلقاه.

وأما القلب المتكبر، فإنه قد اهتز بتكبره وربا، فهو كبقعة رابية من الأرض لا يستقر عليها الماء.

(١) «الروح» (ص ٢٣٢-٢٣٣).

فهذا خشوع الإيمان، وأما التماوت وخشوع النفاق فهو حال عند تكلف إسكان الجوارح تصنعًا ومراءاة ونفسه في الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات، فهو يخشع في الظاهر وحية الوادي وأسد الغابة رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الاحتراز وسوء الظن

قال[١]: «الفرق بين الاحتراز وسوء الظن: أن المحترز بمنزلة رجل قد خرج بماله ومركوبه مسافرًا، فهو يحترز بجهده من كل قاطع للطريق، وكل مكان يتوقع منه الشر، وذلك يكون مع التأهب والاستعداد، وأخذ الأسباب التي بها ينجو من المكروه.

فالمحترز كالمتسلح المتطوع الذي قد تأهب للقاء عدوه وأعد له عدته، فهَمُّه في تهيئة أسباب النجاة، ومحاربةُ عدوه قد أشغلته عن سوء الظن به، وكلما ساء به الظن أخذ في أنواع العدة والتأهب.

وأما سوء الظن: فهو امتلاء قلبه بالظنون السيئة بالناس، حتى يطفح على لسانه وجوارحه، فهم معه أبدًا في الهمز واللمز والطعن والعيب والبغض، ببغضهم ويبغضونه، ويلعنهم ويلعنونه، ويحذرهم ويحذرون منه.

فالأول يخالطهم ويحترز منهم، والثاني يتجنبهم ويلحقه أذاهم، الأول داخل فيهم بالنصيحة والإحسان مع الاحتراز، والثاني خارج منهم مع الغش والدَّغَل[٢] والبغض».

⦿⦿⦿⦿⦿

(١) «الروح» (ص ٢٣٧-٢٣٨).

(٢) أي: الخداع.

الفرق بين الاحتياط والوسوسة

قال[1]: «الفرق بين الاحتياط والوسوسة: أن الاحتياط الاستقصاء والمبالغة في اتباع السنة، وما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من غير غلو ومجاوزة، ولا تقصير ولا تفريط، فهذا هو الاحتياط الذي يرضاه الله ورسوله.

وأما الوسوسة: فهي ابتداع ما لم تأت به السنة ولم يفعله رسول الله ﷺ ولا أحد من الصحابة، زاعمًا أنه يصل بذلك إلى تحصيل المشروع وضبطه.

كمن يحتاط بزعمه ويغسل أعضاءه في الوضوء فوق الثلاثة، فيسرف في صب الماء في وضوئه وغسله، ويصرِّح بالتلفظ بنية الصلاة مرارًا أو مرة واحدة، ويغسل ثيابه مما لا يتيقن نجاسته احتياطًا، ويرغب عن الصلاة في نعله احتياطًا، إلى أضعاف أضعاف هذا مما اتخذه الموسوسون دينًا وزعموا أنه احتياط.

وقد كان الاحتياط باتباع هَدْي رسول الله ﷺ وما كان عليه أولى بهم، فإنه الاحتياط الذي من خرج عنه فقد فارق الاحتياط، وعدل عن سواء الصراط، والاحتياط كل الاحتياط الخروج عن خلاف السنة ولو خالفت أكثر أهل الأرض بل كلهم».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى

قال[2]: «الفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى وإن اشتبهت صورتهما: أن الإخبار بالحال يقصد المخبر به قصدًا صحيحًا، من علم سبب إدانته، أو الاعتذار لأخيه من أمر طلبه منه، أو يحذره من الوقوع في مثل ما وقع فيه،

---

(١) «الروح» (ص ٢٥٦).

(٢) «الروح» (ص ٢٥٨-٢٦٠).

فيكون ناصحًا بإخباره له، أو حمله على الصبر بالتأسي به.

كما يذكر عن الأحنف أنه شكا إليه رجل شكوى، فقال: يا بن أخي، لقد ذهب ضوء عيني من كذا وكذا سنة، فما أعلمت به أحدًا.

ففي ضمن هذا الإخبار من حمل الشاكي على التأسي والصبر ما يثاب عليه المخبِر، وصورته صورة الشكوى ولكن القصد ميز بينهما.

ولعل من هذا قول النبي ﷺ لما قالت عائشة: وا رأساه! فقال: «بَلْ أَنَا وَا رَأْسَاهُ!»[1].

أي: الوجع القوي بي أنا دونك، فتأسِّي بي فلا تشتكي.

ويلوح لي فيه معنى آخر: وهو أنها كانت حبيبة رسول الله ﷺ، بل كانت أحب النساء إليه على الإطلاق، فلما اشتكت إليه رأسها أخبرها أن بمُحبِّها من الألم مثل الذي بها، وهذا غاية الموافقة من المحب ومحبوبه، يتألم بتألمه، ويسر بسروره، حتى إذا آلمه عضو من أعضائه آلم المحب ذلك العضو بعينه، وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة.

فالمعنى الأول: يُفهِم أنكِ لا تشتكي واصبري، فبي من الموجع مثل ما بك، فتأسِّي بي في الصبر وعدم الشكوى.

والمعنى الثاني: يُفهِم إعلامها بصدق محبته لها؛ أي: انظري قوة محبتي لك، كيف واسيتك في ألمك ووجع رأسك فلم تكوني متوجعة وأنا سليم من الوجع، بل يؤلمني ما يؤلمك كما يسرني ما يسرك[2]، كما قيل:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٦٦ و٧٢١٧) وغيره.

(٢) وهذا المعنى الثاني غاية في التكلف، ينبئك بذلك قول النبي ﷺ بعد قوله: «بَلْ أَنَا وَا رَأْسَاهُ!»: «لَقَدْ هَمَمْتُ ـ أَوْ أَرَدْتُ ـ أَنْ أُرْسِلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَابْنِهِ وَأَعْهَدَ؛ أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُونَ أَوْ يَتَمَنَّى الْـمُتَمَنُّونَ، ثُمَّ قُلْتُ: يَأْبَى اللهُ وَيَدْفَعُ الْـمُؤْمِنُونَ ـ أَوْ يَدْفَعُ اللهُ وَيَأْبَى الْـمُؤْمِنُونَ ـ».

وإنّ أولى البرايا أن تواسيَهُ عند السرور الذي واساك في الحَزَنِ

وأما الشكوى: فالإخبار العاري عن القصد الصحيح، بل يكون مصدره السخط وشكاية المبتلي إلى غيره، فإن شكا إليه سبحانه وتعالى لم يكن ذلك شكوى، بل استعطاف وتملق واسترحام له.

كقول أيوب: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣].

وقول يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦].

وقول موسى: اللَّهُمَّ لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك(١).

وقول سيد ولد آدم: «اللـهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل علي غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»(٢).

فالشكوى إلى الله سبحانه لا تنافي الصبر بوجه، فإن الله تعالى قال عن

---

(١) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٣٣٩)، و«الأوسط» (٣٥٢٥): حدثنا جبير بن محمد الواسطي، حدثنا جعفر بن النضر الواسطي، حدثنا زكريا بن فروخ التمار الواسطي، عن وكيع بن الجراح، عن الأعمش، عن شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أعلمك الكلمات التي تكلم بها موسى ﷺ حين جاوز البحر ببني إسرائيل؟». فقلنا: بلى يا رسول الله. قال: «قولوا: اللَّهُمَّ لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». الحديث. قال الهيثمي في «المجمع»: «رواه الطبراني في الأوسط والصغير، وفيه من لم أعرفهم». قال شيخنا في «ضعيف الترغيب» (١١٥٠): «وهم ثلاثة على نسق واحد».

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣٤٦/٢٥) وغيره، وهو في «الضعيفة» (٢٩٣٣).

أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤]، مع إخباره عنه بالشكوى إليه في قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

وأخبر عن نبيه يعقوب أنه وعد من نفسه بالصبر الجميل، والنبي إذا قال وَفَى، مع قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ولم يجعل ذلك نقصًا لصبره.

ولا يُلتفت إلى غير هذا من تُرَّهات القوم، كما قال بعضهم: لما قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾، ولم يقل: صبورًا، حيث قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

وقال بعضهم: لم يقل: ارحمني، وإنما قال: أنت أرحم الراحمين، فلم يزد على الإخبار بحاله، ووصْف ربه.

وقال بعضهم: إنما شكا مس الضر حين ضعف لسانه عن الذكر، فشكا مسَّ ضرِّ ضعفِ الذكر لا ضرَّ المرضِ والألم.

وقال بعضهم: استخرج منه هذا القول ليكون قدوة للضعفاء من هذه الأمة.

وكأن هذا القائل رأى أن الشكوى إلى الله تنافي الصبر، وغلط أقبح الغلط، فالمنافي للصبر شكواه لا الشكوى إليه، فالله يبتلي عبده ليسمع تضرعه ودعاءه والشكوى إليه، ولا يحب التجلد عليه، وأحبُّ ما إليه انكسار قلب عبده بين يديه، وتذلله وإظهار ضعفه وفاقته وعجزه وقلة صبره.

فاحذر كل الحذر من إظهار التجلد عليه، وعليك بالتضرع والتمسكن وإبداء العجز والفاقة والذل والضعف، فرحمته أقرب إلى هذا القلب من اليد للفم».

◎◎◎◎◎

الفرق بين مرتبة الإسماع ومرتبة الإفهام

قال[1] رحمه الله في ذكر مراتب الهداية: «المرتبة الثامنة مرتبة الإسماع، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣].

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر:١٩-٢٢].

وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ، فإن ذلك حاصل لهم وبه قامت الحجة عليهم، لكن ذاك إسماع الآذان وهذا إسماع القلوب، فإن الكلام له لفظ ومعنى وله نسبة إلى الآذان والقلب وتعلق بهما، فسماع لفظه حظ الأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب.

فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:٢-٣].

وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه أو تمكنه منها، وأما مقصود السماع وثمرته والمطلوب منه فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه، بل يخرج السامع قائلًا للحاضر معه: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [محمد:١٦].

والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام: أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن، ومرتبة الإفهام أعم، فهي أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه، ومرتبة

---

(١) «مدارج السالكين» (٤٣/١-٤٤).

الفهم أخص من وجه آخر، وهي أنها تتعلق بالمعنى المراد ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته، ومرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب إلى القلب، ويترتب على هذا السماع سماع القبول، فهو إذن ثلاث مراتب: سماع الأذن، وسماع القلب، وسماع القبول والإجابة».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الاقتصاد والتقتير

قال[١]: «الفرق بين الاقتصاد والتقتير: أن الاقتصاد هو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، وله طرفان هما ضدان له: تقصير، ومجاوزة، فالمقتصد قد أخذ بالوسط وعدل عن الطرفين، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان:٦٧].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ ﴾ [الإسراء:٢٩].

وقال تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ ﴾ [الأعراف:٣١].

والدين كله بين هذين الطرفين، بل الإسلام قصد بين الملل، والسنة قصد بين البدع، ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وكذلك الاجتهاد هو بذل الجهد في موافقة الأمر، والغلو مجاوزته وتعديه.

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: فإما إلى غلو ومجاوزة، وإما إلى تفريط وتقصير، وهما آفتان لا يخلص منهما في الاعتقاد والقصد والعمل إلا من مشى خلف رسول الله ﷺ، وترك أقوال الناس وآراءهم لما جاء به، لا من ترك ما جاء به لأقوالهم وآرائهم.

---

(١) «الروح» (ص ٢٥٧).

وهذان المرضان الخطران قد استوليا على أكثر بني آدم، ولهذا حذر السلف منهما أشد التحذير، وخوَّفوا من بُـلِيَ بأحدهما بالهلاك، وقد يجتمعان في الشخص الواحد كما هو حال أكثر الخلق، يكون مقصرًا مفرطًا في بعض دينه، غاليًا متجاوزًا في بعضه، والمهدي من هداه الله».

⊙⊙⊙⊙⊙

الفرق بين الاقتصاد والشح

قال[1]: «الفرق بين الاقتصاد والشح: أن الاقتصاد خلق محمود يتولد من خلقين: عدل، وحكمة، فبالعدل يعتدل في المنع والبذل، وبالحكمة يضع كل واحد منهما موضعه الذي يليق به، فيتولد من بينهما الاقتصاد وهو وسط بين طرفين مذمومين، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء:٢٩].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧].

وقال تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ [الأعراف:٣١].

وأما الشح: فهو خلق ذميم يتولد من سوء الظن وضعف النفس، ويمده وعدُ الشيطان حتى يصير هلعًا، والهلع: شدة الحرص على الشيء والشرَه به، فيتولد عنه المنع لبذله والجزع لفقده، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩-٢١]».

⊙⊙⊙⊙⊙

---

(١) «الروح» (ص ٢٣٧).

الفرق بين الأمنية وبين الأمل

قال[1]: «الأمنية هي ما يتمناه العبد من الحظوظ، وجمعها أماني، والفرق بينها وبين الأمل: أن الأمل يتعلق بما يرجى وجوده، والأمنية قد تتعلق بما لا يرجى حصوله، كما يتمنى العاجز المراتب العالية».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الأنس ونور الكشف

قال[2]: «إن قلت ما الفرق بين الأنس ونور الكشف حتى يكون أحدهما سببًا للآخر أو متلبسًا به؟

قلت: الفرق بينهما: أن نور الكشف من باب المعارف وانكشاف الحقيقة للقلب، وأما الأنس فمن باب القرب والدنو والسكون إلى من يأنس به والطُّمَأنينة إليه، فضده الوحشة، وضد نور الكشف ظلمة الحجاب».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين بكاء الحزن وبكاء الخوف

قال[3]: «الفرق بينه وبين بكاء الخوف: أن بكاء الحزن يكون على ما مضى من حصول مكروه أو فوات محبوب، وبكاء الخوف يكون لما يتوقع في المستقبل من ذلك».

⦿⦿⦿⦿⦿

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/٩٤).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٤١٩).

(٣) «زاد المعاد» (١/١٨٤).

الفرق بين بكاء السرور والفرح وبكاء الحزن

قال[1]: «والفرق بين بكاء السرور والفرح وبكاء الحزن: أن دمعة السرور باردة والقلب فرحان، ودمعة الحزن حارة والقلب حزين.

ولهذا يقال لما يُفرح به: هو قرة عين، وأقر الله به عينه. ولما يُحزن: هو سخينة العين، وأسخن الله عينه به».

⊙⊙⊙⊙⊙

الفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها

قال[2]: «الفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها: أن المتحدث بالنعمة مخبر عن صفات الله ومحض جوده وإحسانه، فهو مُثْنٍ عليه بإظهارها والتحدث بها، شاكرًا له ناشرًا لجميع ما أولاه، مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء [عليه]، وبعث النفس على الطلب منه دون غيره، وعلى محبته ورجائه، فيكون راغبًا إلى الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها.

وأما الفخر بالنعم: فهو أن يستطيل بها على الناس ويريهم أنه أعز منهم وأكبر، فيركب أعناقهم، ويستعبد قلوبهم، ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة.

قال النعمان بن بشير: إن للشيطان مصاليَ[3] وفخوخًا، وإن من مصاليه وفخوخه: البطر بنعم الله، والكبر على عباد الله، والفخر بعطية الله، [واتباع الهوى] في غير ذات الله[4]».

⊙⊙⊙⊙⊙

---

(١) «زاد المعاد» (١/١٨٤-١٨٥).

(٢) «الروح» (ص ٢٤٧-٢٤٨).

(٣) المَصالي: شبيهة بالشَّرَك، واحدتها مُصْلاة، أراد ما يُسْتَفَزُّ به الناس من زينة الدنيا وشهواتها. يقال: صَلَيْتُ لفلان، إذا عَمِلْتَ له في أمر تريد أن تَمْحَل به. «نهاية».

(٤) وروي مرفوعًا إلى النبي ﷺ، ولا يصح، والموقوف يحتمل التحسين، كما في «الضعيفة» (٢٤٦٣). والزيادة المتضمنة لتصحيح خطأ الأصل من «الأدب المفرد» (٥٧١)، و«تاريخ دمشق» (٦٢/١٢٤). ثم وجدت الأثر في «صحيح الأدب المفرد» برقم (٥٥٣).

الفرق بين التذكر والتفكر

قال[1]: «إن قلت: فما الفرق بين التذكر والتفكر؟ قلت: التفكر والتذكر أصل الهدى والفلاح، وهما قطبا السعادة، ولهذا وسّعنا الكلام في التفكر في هذا الوجه[2] لعظم المنفعة وشدة الحاجة إليه.

قال الحسن: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت، فإذا لها أسماع وأبصار.

فاعلم أن التفكر طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل منها، هذا حقيقته، فإنه لو لم يكن ثَم مراد يكون موردًا للفكر استحال الفكر، لأن الفكر بغير متعلَّق متفكَّر فيه محال، وتلك المواد هي الأمور الحاصلة، ولو كان المطلوب بها حاصلًا عنده لم يتفكر فيه.

فإذا عرف هذا فالمتفكر ينتقل من المقدمات والمبادئ التي عنده إلى المطلوب الذي يريده، فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به، وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغي إيثاره وما ينبغي اجتنابه.

فالتذكر هو مقصود التفكر وثمرته، فإذا تذكر عاد بتذكره على تفكره فاستخرج ما لم يكن حاصلًا عنده، فهو لا يزال يَكُرُّ[3] بتفكره على تذكره وبتذكره على تفكره ما دام عاقلًا، لأن العلم والإرادة لا يقفان على حد، بل هو دائمًا سائر بين العلم والإرادة.

وإذا عرفت معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يُتبصَّر بها

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٢١٣-٢١٤).

(٢) وذلك في «المفتاح» (١/١٨٠-٢١٣).

(٣) في الأصل: «يكرر»، والصواب ما أثبته، فإنه يقال: كرر الشيء، ولا يقال: كرر به!

من عمى القلب ويُتذكر بها من غفلته، فان المضاد للعلم إما عمى القلب؛ وزواله بالتبصر، وإما غفلته؛ وزواله بالتذكر».

⊙⊙⊙⊙⊙

الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب

قال[1]: «قد جاء في كتاب الله تعالى ذكرهما مقترنين، وذكر كلًّا منهما منفردًا عن الآخر:

فالمقترنان: كقوله تعالى حاكيًا عن عباده المؤمنين: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣].

والمنفرد كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد:٢].

وقوله في المغفرة: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد:١٥].

وكقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ [آل عمران:١٤٧]، ونظائره.

فههنا أربعة أمور: ذنوب وسيئات ومغفرة وتكفير، فالذنوب المراد بها الكبائر، والمراد بالسيئات الصغائر، وهي ما تعمل فيه الكفارة من الخطأ وما جرى مجراه، ولهذا جعل لها التكفير، ومنه أُخذت الكفارة، ولهذا لم يكن لها سلطان ولا عمل في الكبائر في أصح القولين، فلا تعمل في قتل العمد ولا في اليمين الغموس في ظاهر مذهب أحمد وأبي حنيفة.

والدليل على أن السيئات هي الصغائر والتكفير لها قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء:٣١].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٣١٠-٣١٢).

وفي «صحيح مسلم»[(١)]: من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ».

ولفظ المغفرة أكمل من لفظ التكفير، ولهذا كان مع الكبائر، والتكفير مع الصغائر[(٢)]، فإن لفظ المغفرة يتضمن الوقاية والحفظ، ولفظ التكفير يتضمن الستر والإزالة، وعند الإفراد يدخل كل منهما في الآخر، كما تقدم.

فقوله تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [محمد:٢]، يتناول صغائرها وكبائرها ومحوها ووقاية شرها.

بل التكفير المفرد يتناول أسوأ الأعمال، كما قال تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الزمر:٣٥].

وإذا فهم هذا فهم السر في الوعد على المصائب والهموم والغموم والنصب والوصب بالتكفير دون المغفرة، كقوله في الحديث الصحيح: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ هَمٍّ وَلَا غَمٍّ وَلَا أَذًى، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»[(٣)].

فإن المصائب لا تستقل بمغفرة الذنوب، ولا تُغفر الذنوب جميعها إلا بالتوبة أو بحسنات تتضاءل وتتلاشى فيها الذنوب، فهي كالبحر لا يتغير بالجيف، وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث.

فلأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها في الدنيا، فإن لم تف

---

(١) (رقم ٣٤٤)، وانظر (رقم ٢٤٤و٢٤٣).

(٢) في هذا نظر بيِّن، فقد قال الله تعالى في قوم لوط: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:٧٨]، ولا شك أنها كانت من الكبائر. وانظر ـ إن شئت ـ كلمة الشيخ محمد رشيد رضا في حاشية الفقي على «المدارج».

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٣٧)، وغيرهما. ولفظ البخاري: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ».

بطهرهم طهروا في نهر الجحيم يوم القيامة: نهر التوبة النصوح، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها، ونهر المصائب العظيمة المكفرة.

فإذا أراد الله بعبده خيرًا أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة، فورد القيامة طيبًا طاهرًا، فلم يحتج إلى التطهير الرابع».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين التواضع والمهانة

قال[(١)]: «الفرق بين التواضع والمهانة: أن التواضع يتولد من بين العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها، فيتولد من بين ذلك كله خلق هو التواضع، وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحد فضلًا، ولا يرى له عند أحد حقًّا، بل يرى الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قبله، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه.

وأما المهانة: فهي الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها، كتواضع السُّفَّل في نيل شهواتهم، وتواضع المفعول به للفاعل، وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه، فهذا كله ضَعَة لا تواضع، والله سبحانه يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة.

وفي «الصحيح»[(٢)] عنه ﷺ: «وَأُوْحِيَ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ».

---

(١) «الروح» (ص ٢٣٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٨٥٦) بنحوه.

والتواضع المحمود على نوعين؛ النوع الأول: تواضع العبد عند أمر الله امتثالًا وعند نهيه اجتنابًا، فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ في أمره، فيبدو منها نوع إباء وشِراد هربًا من العبودية، وتثبت عند نهيه طلبًا للظفر بما منع منه، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية.

والنوع الثاني: تواضعه لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه، فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالى وتفرده بذلك وغضبه الشديد على من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه وانكسر لعظمة الله قلبه، واطمأن لهيبته وأخبت لسلطانه، فهذا غاية التواضع، وهو يستلزم الأول من غير عكس، والمتواضع حقيقة من رزق الأمرين، والله المستعان».

⊙⊙⊙⊙⊙

الفرق بين توبة العاجز عن المعصية وتوبة المعاين ومن ورد القيامة

قال[١]: «الفرق بين هذا وبين المعاين ومن ورد القيامة: أن التكليف قد انقطع بالمعاينة وورود القيامة، والتوبة إنما تكون في زمن التكليف، وهذا العاجز لم ينقطع عنه التكليف، فالأوامر والنواهي لازمة له، والكف متصور منه عن التمني والوداد[٢]، والأسف على فوته، وتبديل ذلك بالندم والحزن على فعله، والله أعلم».

⊙⊙⊙⊙⊙

---

(١) «مدارج السالكين» (٢٨٦/١).

(٢) يعني: عن تمني المعصية، وأنه يود لو واقعها.

الفرق بين التوبة من الغيبة وبين التوبة من الحقوق المالية

قال[1] في كفارة الغِيبة: «وهذه المسألة فيها قولان للعلماء، هما روايتان عن الإمام أحمد، وهما: هل يكفي في التوبة من الغِيبة الاستغفار للمغتاب؟ أم لا بد من إعلامه وتحليله.

والصحيح: أنه لا يحتاج إلى إعلامه، بل يكفيه الاستغفار وذكره بمحاسن ما فيه في المواطن التي اغتابه فيها، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره.

والذين قالوا: لا بد من إعلامه جعلوا الغِيبة كالحقوق المالية، والفرق بينهما ظاهر، فإن الحقوق المالية ينتفع المظلوم بعود نظير مظلِمته إليه، فإن شاء أخذها وإن شاء تصدق بها.

وأما في الغيبة فلا يمكن ذلك، ولا يحصل له بإعلامه إلا عكس مقصود الشارع، فإنه يوغر صدره ويؤذيه إذا سمع ما رُمِي به، ولعله يهيّج عداوته ولا يصفو له أبدًا، وما كان هذا سبيله فإن الشارع الحكيم لا يبيحه ولا يجوزه فضلًا عن أن يوجبه ويأمر به، ومدار الشريعة على تعطيل المفاسد وتقليلها لا على تحصيلها وتكميلها، والله تعالى أعلم».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين التوكل والعجز

قال[2]: «الفرق بين التوكل والعجز: أن التوكل عمل القلب وعبوديته اعتمادًا على الله وثقة به والتجاء إليه وتفويضًا إليه ورضًا بما يقضيه له، لعلمه

(١) «الوابل الصيب» (ص ٢١٩).

(٢) «الروح» (ص ٢٥٤-٢٥٦).

بكفايته سبحانه وحسن اختياره لعبده إذا فوض إليه، مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها.

فقد كان رسول الله ﷺ أعظم المتوكلين وكان يلبس لامته ودرعه، بل ظاهر يوم أحد بين درعين، واختفى في الغار ثلاثًا، فكان متوكلًا في السبب لا على السبب.

وأما العجز: فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما، فإما أن يعطل السبب عجزًا منه ويزعم أن ذلك توكل، ولعمر الله إنه لعجز وتفريط، وإما أن يقوم بالسبب ناظرًا إليه معتمدًا عليه غافلًا عن المسبِّب معرضًا عنه، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر ولم يعلق قلبه به تعلقًا تامًّا بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب، فهذا توكله عجز وعجزه توكل.

وهذا موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطًا: فأحد الطرفين عطل الأسباب محافظة على التوكل، والثاني عطل التوكل محافظة على السبب، والوسط عَلِمَ أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب، فتوكل على الله في نفس السبب.

وأما من عطل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور مخدوع مُتَمَنٍّ، كمن عطل النكاح والتسري وتوكل في حصول الولد، وعطل الحرث والبذر وتوكل في حصول الزرع، وعطل الأكل والشرب وتوكل في حصول الشبع والري، فالتوكل نظير الرجاء، والعجز نظير التمني.

فحقيقة التوكل: أن يتخذ العبد ربه وكيلًا له قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله للعلم بكفايته ونهضته ونصحه وأمانته وخبرته وحسن اختياره.

والرب سبحانه قد أمر عبده بالاحتيال[1]، وتوكل له أن يستخرج له من

---

(١) من الحيلة، وهي الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف في الأمور. «وسيط».

حيلته ما يصلحه، فأمره أن يحرث ويبذر ويسعى ويطلب رزقه في ضمان ذلك كما قدره سبحانه ودبره واقتضته حكمته، وأمره أن لا يعلق قلبه بغيره، بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه، وأخبره أنه سبحانه الـمَـلِـيّ بالوكالة الوفي بالكفالة.

فالعاجز من رمى هذا كله وراء ظهره وقعد كسلان طالبًا للراحة مؤثرًا للدَّعة، يقول: الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله، وسيأتيني ما قدِّر لي على ضعفي، ولن أنال ما لم يقدَّر لي مع قوتي، ولو أنى هربت من رزقي كما أهرب من الموت للحقني.

فيقال له: نعم هذا كله حق، وقد علمت أن الرزق مقدر، فما يدريك كيف قدِّر لك بسعيك أم بسعي غيرك؟ وإذا كان بسعيك فبأي سبب ومن أي وجه؟ وإذا خَفِي عليك هذا كله فمن أين علمت أنه يقدر لك إتيانه عفوًا بلا سعي ولا كد؟ فكم من شيء سعيت فيه فقُدِّر لغيرك! وكم من شيء سعى فيه غيرك فقُدِّر لك رزقًا! فإذا رأيت هذا عيانًا فكيف علمت أن رزقك كله بسعي غيرك؟!

وأيضًا فهذا الذي أوردتْه عليك النفسُ يجب عليك طرده في جميع الأسباب مع مسبباتها، حتى في أسباب دخول الجنة والنجاة من النار، فهل تعطلها اعتمادًا على التوكل أم تقوم بها مع التوكل؟!

بل لن تخلو الأرض من متوكل صبر نفسه لله وملأ قلبه من الثقة به ورجائه وحسن الظن به، فضاق قلبه مع ذلك عن مباشرة بعض الأسباب، فسكن قلبه إلى الله واطمأن إليه ووثق به، وكان هذا من أقوى أسباب حصول رزقه، فلم يعطل السبب وإنما رغب عن سبب إلى سبب أقوى منه، فكان توكله أوثق الأسباب عنده، وكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه وتضرعه إليه أحب

إليه من اشتغاله بسبب يمنعه من ذلك أو من كماله، فلم يتسع قلبه للأمرين فأعرض عن أحدهما إلى الآخر.

ولا ريب أن هذا أكمل حالًا ممن امتلأ قلبه بالسبب واشتغل به عن ربه، وأكمل منهما من جمع الأمرين، وهي حال الرسل والصحابة، فقد «كَانَ زَكَرِيَّا نَجَّارًا»[١]، وقد أمر الله نوحًا أن يصنع السفينة.

ولم يكن في الصحابة من يعطل السبب اعتمادًا على التوكل، بل كانوا أقوم الناس بالأمرين، ألا ترى أنهم بذلوا جهدهم في محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم وقاموا في ذلك بحقيقة التوكل، وعمروا أموالهم وأصلحوها، وأعدوا لأهليهم كفايتهم من القوت، اقتداء بسيد المتوكلين صلوات الله وسلامه عليه وآله».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الثقة والغرة

قال[٢]: «الفرق بين الثقة والغِرَّة: أن الثقة سكون يستند إلى أدلة وأمارات يسكن القلب إليها، فكلما قويت تلك الأمارات قويت الثقة واستحكمت، ولا سيما على كثرة التجارب وصدق الفراسة، واللفظة كأنها ـ والله أعلم ـ من الوثاق، وهو الرباط، فالقلب قد ارتبط بمن وثق به توكلًا عليه وحُسْنَ ظن به، فصار في وثاق محبته ومعاملته والاستناد إليه والاعتماد عليه، فهو في وثاقه بقلبه وروحه وبدنه، فإذا صار القلب إلى الله وانقطع إليه تقيد بحبه وصار في وثاق العبودية، فلم يبق له مفزع في النوائب ولا ملجأ غيره، ويصير عدته وشدته وذخيرته في نوائبه، وملجأه في نوازله، ومستعانه في حوائجه وضروراته.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٧٩) وغيره، مرفوعًا.

(٢) «الروح» (ص ٢٤٤-٢٤٥).

وأما الغِرَّة: فهي حال المغتر الذي غرته نفسه وشيطانه وهواه وأمله الخائب الكاذب بربه، حتى أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني، والغرور ثقتك بمن لا يوثق به، وسكونك إلى من لا يسكن إليه، ورجاؤك النفع من المحل الذي لا يأتي بخير، كحال المغتر بالسراب، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور:٣٩].

وقال تعالى في وصف المغترين: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

وهؤلاء إذا انكشف الغطاء وثبتت حقائق الأمور علموا أنهم لم يكونوا على شيء، ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر:٤٧].

وفي أثر معروف: إذا رأيت الله سبحانه يزيدك من نعمة وأنت مقيم على معصيته فاحذره، فإنما هو استدراج يستدرجك به(١).

وشاهد هذا في القرآن في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام:٤٤].

وهذا من أعظم الغرة؛ أن تراه يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على ما يكره، فالشيطان وُكِّل بالغرور، وطَبْع النفس الأمارة الاغترار، فإذا اجتمع الرأي والبغي

(١) وهذا من كلام النبي ﷺ، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يُحِبُّ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ لَهُ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ». ثم نزع بهذه الآية: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥]. أخرجه أحمد (١٤٥/٤)، وابن جرير في «التفسير» (١٣٢٤٤)، والبيهقي في «الشعب» (٤٥٤٠) واللفظ له، وغيرهم. وحسنه العراقي في «تخريج الإحياء» (١٣٢/٤)، وصححه لغيره الألباني في «الصحيحة» (٤١٣). والذي نزع بالآية هو النبي ﷺ، كما في الروايات الأخرى.

والرأي المحتاج والشيطان الغرور والنفس المغترة لم يقع هناك خلاف، فالشياطين غروا المغترين بالله وأطمعوهم ـ مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه ـ في عفوه وتجاوزه، وحدثوهم بالتوبة لتسكن قلوبهم، ثم دافعوهم بالتسويف حتى هجم الأجل فأُخذوا على أسوأ أحوالهم.

وقال تعالى: ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [الحديد:١٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فاطر:٥]. فصلت:٤٩-٥٠ [الكهف:٩٨] ﴿عِندَهُۥ﴾ [فصلت:٥٠]

وأعظم الناس غرورًا بربه مَنْ إذا مسه الله برحمة منه وفضل قال: ﴿هَٰذَا لِي﴾ [فصلت:٥٠\]؛ أي: أنا أهله وجدير به ومستحق له. ثم قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف:٣٦، وفصلت:٥٠]، فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله، ثم زاد في غروره فقال: ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ [فصلت:٥٠]؛ يعني: الجنة والكرامة.

وهكذا تكون الغرة بالله، فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه، وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه، فلا يزال كذلك حتى يتردَّى في آبار الهلاك.

وقال[1] رحمه الله في ضمن فصل في اشتباه المحمود الكامل بالمذموم الناقص: ومنه اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز، والفرق بينهما: أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق بالله في طلوع ثمرته وتنميتها وتزكيتها، كغارس الشجرة وباذر الأرض، والمغتر العاجز قد فرط فيما أُمر به وزعم أنه واثق بالله، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود».

⦿⦿⦿⦿⦿

(١) «مدارج السالكين» (١٢٤/٢).

الفرق بين الجد والعزم

قال[1]: «الفرق بين الجِدّ والعزم: أن العزم صدق الإرادة واستجماعها، والجد صدق العمل وبذل الجهد فيه».

⊙⊙⊙⊙⊙

الفرق بين أن تكون جمل الثناء علة لغيرها وبين أن تكون مستقلة مرادة لنفسها

قال[2] في كلامه على جملة «إن الحمد والنعمة لك» من التلبية: «في «إنّ» وجهان: فتحها وكسرها، فمن فتحها تضمنت معنى التعليل؛ أي: لبيك لأن الحمد والنعمة لك، ومن كسرها كانت جملة مستقلة مستأنفة تتضمن ابتداء الثناء على الله، والثناء إذا كثرت جُمَلُه وتعددت كان أحسن من قلتها، وأما إذا فتحت فإنها تقدر بلام التعليل المحذوفة معها قياسًا، والمعنى لبيك لأن الحمد لك.

والفرق بَيِّنٌ بين أن تكون جُمَلُ الثناء علة لغيرها وبين أن تكون مستقلة مرادة لنفسها.

ولهذا قال ثعلب: من قال «إنّ» بالكسر فقد عم، ومن قال «أنّ» بالفتح فقد خص.

ونظير هذين الوجهين والتعليلين والترجيح سواء: قوله تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور:٢٨]، بكسر «إنّ» وفتحها، فمن فتح كان المعنى ندعوه لأنه هو البر الرحيم، ومن كسر كان الكلام

---

(١) «مدارج السالكين» (٤٧٠/١).

(٢) «تهذيب سنن أبي داود» (١٧٩/٥).

جملتين: إحداهما قوله: ﴿نَدۡعُوهُۖ﴾، ثم استأنف فقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾. قال أبو عبيد: والكسر أحسن. ورجحه بما ذكرناه».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الجود والسرف

قال[1]: «الفرق بين الجود والسَّـرَف: أن الجواد حكيم يضع العطاء مواضعه، والمسرف مبذر وقد يصادف عطاؤه موضعه، وكثيرًا لا يصادفه، وإيضاح ذلك أن الله سبحانه بحكمته جعل في المال حقوقًا، وهي نوعان: حقوق موظفة، وحقوق ثانية، فالحقوق الموظفة: كالزكاة والنفقات الواجبة على من تلزمه نفقته، والثانية: كحق الضيف ومكافأة الـمُهدي وما وقى به عرضه ونحو ذلك.

فالجواد يتوخّى بماله أداء هذه الحقوق على وجه الكمال طيبة بذلك نفسه راضية مؤملة للخلف في الدنيا والثواب في العقبى، فهو يخرج ذلك بسماحة قلب وسخاوة نفس وانشراح صدر، بخلاف المبذر فإنه يبسط يده في ماله بحكم هواه وشهوته جزافًا لا على تقدير ولا مراعاة مصلحة، وإن اتفقت له.

فالأول بمنزلة من بذر حبه في أرض تنبت وتوخَّى ببذره مواضع الـمَغَل والإنبات، فهذا لا يعد مبذرًا ولا سفيها.

والثاني بمنزلة من بذر حبه في سِبَاخ[2] وعَزَاز[3] من الأرض، وإن اتفق بذره في محل النبات بذر بذرًا متراكمًا بعضه على بعض، فذلك المكان البذر فيه ضائع معطَّل، فلذلك يحتاج أن يقلع بعض زرعه ليصلح الباقي ولئلا تضعف

---

(١) «الروح» (ص ٢٣٥).

(٢) مفردها: «سَبَخَة»، وهي الأرض المالحة.

(٣) العَزَزُ، والعَزَازُ: المكان الصُّلْب السريع السيل. «لسان».

الأرض عن تربيته.

والله سبحانه هو الجواد على الإطلاق، بل كل جود في العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى جوده أقل من قطرة في بحار الدنيا، وهي من جوده، ومع هذا فإنما ينزل بقدر ما يشاء، وجوده لا يناقض حكمته، ويضع عطاءه مواضعه وإن خفي على أكثر الناس أن تلك مواضعه، فالله يعلم حيث يضع فضله، وأي الـمَحال أولى به».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الحال والمقام

قال[1]: «الفرق بين الحال والمقام: أن الحال معنى يرد على القلب من غير اجتلاب له ولا اكتساب ولا تعمد، والمقام يُتوصَّل إليه بنوع كسب وطلب، فالأحوال عندهم مواهب والمقامات مكاسب».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله تعالى

قال[2]: «الفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعي في حظها، فإن الناصح لله المعظِّم له المحب له يحب أن يطاع ربه فلا يعصى وأن تكون كلمته هي العليا وأن يكون الدين كله لله وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه، فقد

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٤٤٧)، وانظر (٢/١٧١).

(٢) «الروح» (ص ٢٥٢-٢٥٣).

ناصح الله في عبوديته وناصح خلقه في الدعوة إلى الله، فهو يحب الإمامة في الدين بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إمامًا يقتدي به المتقون كما اقتدى هو بالمتقين، فإذا أحب هذا العبد الداعي إلى الله أن يكون في أعينهم جليلًا وفي قلوبهم مهيبًا وإليهم حبيبًا وأن يكون فيهم مطاعًا لكي يأتموا به ويقتفوا أثر الرسول على يده لم يضره ذلك بل يحمد عليه، لأنه داع إلى الله يحب أن يطاع ويعبَد ويوحَّد، فهو يحب ما يكون عونًا على ذلك موصلًا إليه.

ولهذا ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه وأثنى عليهم في تنزيله وأحسن جزاءهم يوم لقائه، فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم، ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان:٧٤].

فسألوه أن يُقِرّ أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه، وأن يَسُرّ قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته، فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة، فإنما سألوه ما يعينون به المتقين على مرضاته وطاعته، وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين التي أساسها الصبر واليقين، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤].

وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمن عليهم بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهرًا وباطنًا التي لا تتم الإمامة إلا بها.

وتأمل كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسمه الرحمن جل جلاله ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنته.

وتأمل كيف جعل جزاءهم في هذه السورة الغرف ـ وهي المنازل العالية في الجنة ـ، لما كانت الإمامة في الدين من الرتب العالية بل من أعلى مرتبة يعطاها

العبد في الدين كان جزاؤه عليها الغرفة العالية في الجنة.

وهذا بخلاف طلب الرياسة، فإن طلابها يسعَوْن في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض وتعبد القلوب لهم وميلها إليهم ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم، فترتب على هذا المطلب من المفاسد مالا يعلمه إلا الله من البغي والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة والحَمِيَّة للنفس دون حق الله وتعظيم من حقره الله واحتقار من أكرمه الله، ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك ولا تنال إلا به وبأضعافه من المفاسد.

والرؤساء في عمًى عن هذا، فإذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه، ولا سيما إذا حُشروا في صور الذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم[(١)]، إهانة لهم وتحقيرًا وتصغيرًا كما صغروا أمر الله وحَقّروا عباده».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الحزم والجبن

قال[(٢)]: «الحازم هو الذي قد جمع عليه همه وإرادته وعقله ووزن الأمور بعضها ببعض، فأعد لكل منها قِرْنه، ولفظة الحزم تدل على القوة والإجماع، ومنه حزمة الحطب، فحازم الرأي هو الذي اجتمعت له شؤون رأيه، وعرف منها خير الخيرين وشر الشرين، فأحجم في موضع الإحجام، رأيًا وعقلًا، لا جبنًا ولا ضعفًا.

كعاجزِ الرأي مِضياع لفرصتهِ ... حتى إذا فات أمرٌ عاتَب القَدَرا

⦿⦿⦿⦿⦿

(١) وقد جاء في الحديث، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يُحْشَرُ الـمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ، طِينَةِ الْخَبَالِ». أخرجه الترمذي (٢٤٩٢)، وغيره، وقال: «حسن صحيح». وحسنه الألباني.

(٢) «الروح» (ص ٢٣٧).

الفرق بين حسن الظن والغرور

قال[١]: «...وقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور، وأن حسن الظن إن حمل على العمل وحث عليه وساعده وساق إليه فهو صحيح، وان دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور، وحسن الظن هو الرجاء، فمن كان رجاؤه جاذبًا له إلى الطاعة زاجرًا له عن المعصية فهو رجاء صحيح، ومن كانت بطالته رجاء ورجاؤه بطالة وتفريطًا فهو المغرور.

ولو أن رجلًا كانت له أرض يؤمل أن يعود عليه من مُغَلِّها ما ينفعه، فأهملها ولم يبذرها ولم يحرثها، وأحسن ظنه بأنه يأتي من مغلها ما يأتي من غير حرث وبذر وسقي وتعاهد الأرض، لعده الناس من أسفه السفهاء، وكذلك لو حسُن ظنُه وقوي رجاؤه بأنه يجيئه ولد من غير جماع، أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم وحرص تام عليه، وأمثال ذلك، فكذلك من حسُن ظنُه وقوي رجاؤه في الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيم من غير طاعة ولا تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وبالله التوفيق.

وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢١٨]، فتأمل كيف جعل رجاءهم بإتيانهم بهذه الطاعات!

وقال المغترون: إن المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لأوامره الباغين على عباده المتجرئين على محارمه، أولئك يرجون رحمة الله!

وسر المسألة: أن الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره وثوابه وكرامته، فيأتي العبد بها ثم

(١) «الجواب الكافي» (ص ٢٤-٢٦).

يحسن ظنه بربه ويرجوه أن لا يكله إليها وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه ويصرف ما يعرضها ويبطل أثرها.

فصل

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:

أحدها: محبته ما يرجوه. **الثاني**: خوفه من فواته. **الثالث**: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات.

وفي «جامع الترمذي»[(١)]، من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْـمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ».

وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة، فعُلم أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل.

قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ** ﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

وقد روى الترمذي في «جامعه»[(٢)]، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت

---

(١) (٢٤٥٠). وصححه الألباني.

(٢) (٣١٧٥)، ولفظه: أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ». وصححه الألباني.

رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «لَا يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَيَخَافُونَ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ» .

وقد روي من حديث أبي هريرة أيضًا[١].

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

ومن تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن.

فهذا الصدِّيق يقول: ودِدت أني شعرة في جنب عبد مؤمن. ذكره أحمد[٢] عنه.

وذكر عنه أيضًا: أنه كان يمسك بلسانه، ويقول: هذا الذي أوردني الموارد.

وكان يبكي كثيرًا، ويقول: ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا.

وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل.

وأتي بطائر فقلبه، ثم قال: ما صِيد مِن صَيْد ولا قُطعت مِن شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح.

ولما احتُضر قال لعائشة: يا بنية، إني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذه الحِلاب[٣] وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطاب.

وقال: والله لودِدت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضَد.

وقال قتادة: بلغني أن أبا بكر قال: ليتني خَضِرَة تأكلني الدواب.

---

(١) قال الترمذي عقب الحديث السابق: «وقد روي هذا الحديث عن عبد الرحمن بن سعيد عن أبي حازم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحو هذا». هكذا ذكره، وانظر في الكلام عليه «الصحيحة» (١٦٢).

(٢) انظر هذا وما بعده في «الزهد» (ص١٣٥، وما بعدها).

(٣) الحِلاب: الإِناءُ الذي يُحْلَبُ فيه اللبَنُ. «لسان».

وهذا عمر بن الخطاب قرأ «سورة الطور» إلى أن بلغ قوله: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ [الطور:٧]، فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه.

وقال لابنه وهو في الموت: ويحك ضع خدي على الأرض عساه أن يرحمني، ثم قال: ويل أمي إن لم يغفر الله لي ـ ثلاثًا ـ، ثم قضى.

وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخيفه، فيبقى في البيت أيامًا، ويعاد ويحسبونه مريضًا.

وكان في وجهه رضي الله عنه خطان أسودان من البكاء.

وقال له ابن عباس: مَصَّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل وفعل، فقال: ودِدت أني أنجو لا أجر ولا وزر.

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه: كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبل لحيته.

وقال: لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبكاؤه وخوفه، وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى، قال: فأما طول الأمل فيُنسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة والآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فان اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل.

وهذا أبو الدرداء كان يقول: إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال: يا أبا الدرداء، قد علمت فكيف عملت فيما علمت؟

وكان يقول: لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعامًا على شهوة،

ولا شربتم شرابًا على شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظلون فيه، ولخرجتم إلى الصُّعُدات تضربون صدوركم، وتبكون على أنفسكم، ولودِدت أني شجرة تُعْضَد ثم تؤكل.

وهذا عبد الله بن عباس: كان أسفل عينيه مثل الشِّراك البالي من الدموع.

وكان أبو ذر يقول: يا ليتني كنت شجرة تعضد، وودِدت أني لم أخلق.

وعرِضت عليه النفقة فقال: عندنا عنز نحلبها وحمر ننقل عليها ومحرَّر يخدمنا وفضل عباءة، وإني أخاف الحساب فيها.

وقرأ تميم الداري ليلة «سورة الجاثية»، فلما أتى على هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الجاثية:٢١]، جعل يرددها ويبكي حتى أصبح.

وقال أبو عبيدة بن الجراح: ودِدت أني كبش فذبحني أهلي وأكلوا لحمي وحَسَوْا مرقي.

وهذا باب يطول تتبعه.

قال البخاري: في «صحيحه»(١): باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر. وقال ابراهيم التيمي: ما عرضت قولي على عملي الا خشيت أن أكون مكذِّبًا. وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل. ويُذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق.

وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة: أُنشدك الله! هل سماني لك رسول الله؟ ـ يعني: في المنافقين ـ فيقول: لا، ولا أزكي بعدك أحدًا. فسمعت شيخنا

---

(١) قبل الحديث (رقم ٤٨)، انظر «الفتح» (١٠٩/١).

يقول: ليس مراده إني لا أبرئ غيرك من النفاق، بل المراد: إني لا أفتح عليّ هذا الباب، فكل من سألني: هل سماني لك رسول الله ﷺ؟ فأزكيه!

قلت: وقريب من هذا قول النبي ﷺ للذي سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب: سبقك بها عُكّاشَة[1]، ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن عداه من الصحابة، ولكن لو دعا له لقام آخر وآخر وانفتح الباب، وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم فكان الإمساك أولى، والله أعلم».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الحمد والشكر

قال[2]: «تكلم الناس في الفرق بين الحمد والشكر أيهما أعلى وأفضل؟ وفي الحديث: «الحمد رأس الشكر، فمن لم يحمَد الله لم يشكره»[3].

والفرق بينهما: أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه وأخص من جهة متعلقاته، والحمد أعم من جهة المتعلقات وأخص من جهة الأسباب، ومعنى هذا: أن الشكر يكون بالقلب خضوعًا واستكانة وباللسان ثناء واعترافًا وبالجوارح طاعة وانقيادًا، ومُتعلَّقه النعم دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال:

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥، وفي مواضع أخرى)، ومسلم (٢١٦)، وغيرهما، عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي الْجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ». فقال رجل: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ». ثم قام آخر فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ». وهو في «الصحيحين» ـ أيضًا ـ من حديث ابن عباس، وفي «صحيح مسلم» من حديث عمران بن حصين. رضي الله عنهم.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٢٤٦).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٢٢٣)، وغيره، ولفظه: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبد لا يحمده». وهو في «الضعيفة» (١٣٧٢).

شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه، وهو المحمود عليها كما هو محمود على إحسانه وعدله.

والشكر يكون على الإحسان والنعم، فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد، من غير عكس، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس، فإن الشكر يقع بالجوارح، والحمد يقع بالقلب واللسان».

⊙⊙⊙⊙⊙

الفرق بين الحمد والمدح

قال(١): «قال السهيلي: والفرق بينهما أن «حمِد» يتضمن الثناء مع العلم بما يثنى به، فإن تجرد عن العلم كان مدحًا ولم يكن حمدًا، فكل حمد مدح دون العكس، ومن حيث كان يتضمن العلم بخصال المحمود جاء فعله على حمِد بالكسر موازنًا لعلِم، ولم يجئ كذلك مدح، فصار المدح في الأفعال الظاهرة كالضرب ونحوه، ومن ثم لم يجئ في الكتاب والسنة: حمِد ربُّنا فلانًا، وتقول: مدح الله فلانًا وأثنى على فلان، ولا تقول: حمد إلا لنفسه، ولذلك قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، بلام الجنس المفيدة للاستغراق، فالحمد كله له إما ملكًا وإما استحقاقًا، فحمدُه لنفسه استحقاق، وحمد العباد له وحمد بعضهم لبعض ملك له، فلو حمِد هو غيرَه لم يَسُغ أن يقال في ذلك: الحمد ملك له، لأن الحمد كلامه، ولم يَسُغ أن يضاف إليه على جهة الاستحقاق وقد تعلق بغيره.

فإن قيل: أليس ثناؤه ومدحه لأوليائه إنما هو بما علم؟ فلِم لا يجوز أن يسمى حمدًا؟ قيل: لا يسمى حمدًا على الإطلاق إلا ما يتضمن العلم بالمحاسن على الكمال، وذلك معدوم في غيره سبحانه، فإذا مُدِح فإنما يُمدَح بخصلة هي ناقصة

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/٣٢٤-٣٢٨).

في حق العبد، وهو أعلم بنقصانها، وإذا حَمِد نفسه حَمِد بما علِم من كمال صفاته.

قلت[1]: ليس ما ذكره من الفرق بين الحمد والمدح باعتبار العلم وعدمه صحيحًا، فإن كل واحد منهما يتضمن العلم بما يحمد به غيره ويمدحه، فلا يكون مادحًا ولا حامدًا مَن لم يعرف صفات المحمود والممدوح، فكيف يصح قوله: إن تجرد عن العلم كان مادحًا؟! بل إن تجرد عن العلم كان كلامًا بغير علم، فإن طابق فصِدْق وإلا فكَذِب.

وقوله: ومن ثم لم يجئ في الكتاب والسنة حمِد ربنا فلانًا. يقال: وأين جاء فيهما مدح الله فلانًا؟! وقد جاء في السنة ما هو أخص من الحمد، وهو الثناء الذي هو تكرار المحامد، كما في قول النبي ﷺ لأهل قباء: «ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم به؟»[2]، فإذا كان قد أثنى عليهم ـ والثناء حمد متكرر ـ فما يمنع حمده لمن شاء من عباده؟!

ثم الصحيح في تسمية النبي ﷺ محمدًا: أنه الذي يحمَده الله وملائكته وعباده المؤمنون.

وأما من قال: الذي يحمَده أهل السموات وأهل الأرض، فلا ينافي حمد الله، بل حمد أهل السموات والأرض له بعد حمد الله له، فلما حمِده الله حمِده أهل السموات والأرض.

وبالجملة، فإذا كان الحمد ثناء خاصًا على المحمود لم يمتنع أن يحمد اللهُ تعالى من يشاء من خلقه كما يثني عليه.

---

(١) القائل هو ابن القيم رحمه الله تعالى.

(٢) أخرج أبو داود (٤٤) وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَهْلِ قُبَاءٍ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ [التوبة:١٠٨]»، قال: «كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِالْـمَاءِ فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ». هذا ما صح في الثناء على أهل قباء، وصححه الألباني، ولتنظر «الضعيفة» (١٠٣١)، و«الإرواء» (٤٥).

فالصواب في الفرق بين الحمد والمدح أن يقال: الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخبارًا مجردًا من حب وإرادة، أو مقرونًا بحبه وإرادته، فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد، فالحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه، ولهذا كان خبرًا يتضمن الإنشاء، بخلاف المدح فإنه خبر مجرد، فالقائل إذا قال: «الحمد لله» أو قال: «ربنا لك الحمد» تضمن كلامُه الخبرَ عن كل ما يُحمد عليه تعالى باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الحمد المحققة والمقدَّرة، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى، ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا ينبغي إلا لمن هذا شأنه، وهو الحميد المجيد.

ولما كان هذا المعنى مقارنًا للحمد لا تتقوم حقيقته إلا به فسره من فسره بالرضا والمحبة، وهو تفسير له بجزء مدلوله بل هو رضاء ومحبة مقارنة للثناء، ولهذا السر والله أعلم جاء فعله على بناء الطبائع والغرائز، فقيل: «حمِد»، لتضمنه الحب الذي هو بالطبائع والسجايا أولى وأحق من: فهم وحذر وسقم، ونحوه، بخلاف الإخبار المجرد عن ذلك ـ وهو المدح ـ فإنه جاء على وزن فَعَل، فقالوا: «مدحه»، لتجرد معناه من معاني الغرائز والطبائع.

فتأمل هذه النكتة البديعة، وتأمل الإنشاء الثابت في قولك: «ربنا لك الحمد» وقولك: «الحمد لله» كيف تجده تحت هذه الألفاظ؟!

ولذلك لا يقال موضعها: المدح لله تعالى، ولا ربنا لك المدح، وسره ما ذكرت لك من الإخبار بمحاسن المحمود إخبارًا مقترنًا بحبه وإرادته وإجلاله وتعظيمه.

فإن قلت: فهذا ينقض قولكم: «إنه لا يمتنع أن يحمد الله تعالى من شاء من خلقه»، فإن الله تعالى لا يتعاظمه شيء ولا يستحق التعظيم غيره، فكيف

يعظم أحدًا من عباده؟

قلت: المحبة لا تنفك عن تعظيم وإجلال للمحبوب، ولكن يضاف إلى كل ذات بحسب ما تقتضيه خصائص تلك الذات، فمحبة العبد لربه تستلزم إجلاله وتعظيمه، وكذلك محبة الرسول تستلزم توقيره وتعزيره وإجلاله، وكذلك محبة الوالدين والعلماء وملوك العدل، وأما محبة الربِّ عبدَه فإنها تستلزم إعزازه لعبده وإكرامه إياه والتنويه بذكره وإلقاء التعظيم والمهابة له في قلوب أوليائه، فهذا المعنى ثابت في محبته وحمده لعبده سمِّي تعظيمًا وإجلالًا أو لم يسم، ألا ترى أن محبته سبحانه لرسله كيف اقتضت أن نَوَّه بذكرهم في أهل السماء والأرض ورفع ذكرهم على ذكر غيرهم وغضب على من لم يحبهم ويوقرهم ويجلهم وأحل به أنواع العقوبات في الدنيا والآخرة، وجعل كرامته في الدنيا والآخرة لمحبيهم وأنصارهم وأتباعهم، أوَ لا ترى كيف أمر عباده وأولياءه بالصلاة التي هي تعظيم وثناء على خاتمهم وأفضلهم صلوات الله عليه وسلامه؟ أفليس هذا تعظيمًا لهم وإعزازًا وإكرامًا وتكريمًا؟

فإن قيل: فقد ظهر الفرق بين الحمد والمدح واستبان صبح المعنى وأسفر وجهه، فما الفرق بينهما وبين الثناء والمجد؟».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الحمد والمدح وبين الثناء والمجد

قال[1]: «قيل: قد تعدينا طورنا فيما نحن بصدده، ولكن نذكر الفرق تكميلًا للفائدة، فنذكر تقسيمًا جامعًا لهذه المعاني الأربعة؛ أعني: الحمد والمدح والثناء والمجد، فنقول: الإخبار عن محاسن الغير له ثلاث اعتبارات: اعتبار من حيث المخبَر

(١) متابعة للكلام المتقدم، من «البدائع».

به، واعتبار من حيث الإخبار عنه بالخبر، واعتبار من حيث حال المخبِر.

فمن حيث الاعتبار الأول ينشأ التقسيم إلى الحمد والمجد، فإن المخبَر به إما أن يكون من أوصاف العظمة والجلال والسعة وتوابعها أو من أوصاف الجمال والإحسان وتوابعها، فإن كان الأول فهو المجد، وإن كان الثاني فهو الحمد، وهذا لأن لفظ «م ج د» في لغتهم يدور على معنى الاتساع والكثرة، فمنه قولهم: أمجَد الدابة علفًا؛ أي: أوسعها علفًا، ومنه: مجَد الرجل فهو ماجد، إذا كثر خيره وإحسانه إلى الناس، قال الشاعر:

أنــتَ تكُــونُ ماجــدٌ نَبيــلُ ... إذا تَهُــبُّ شَــمْأَلٌ بَلِيــلُ [١]

ومنه قولهم: في كل الشجر نار[٢]، واستمجَد الـمَرْخ والعَفَار[٣]. أي: كثرت النار فيهما.

ومن حيث اعتبار الخبر نفسه ينشأ التقسيم إلى الثناء والحمد، فإن الخبر عن المحاسن إما متكرر أو لا، فإن تكرر فهو الثناء، وإن لم يتكرر فهو الحمد، فإن الثناء مأخوذ من الثني وهو العطف ورد الشيء بعضه على بعض، ومنه: ثنيت الثوب، ومنه: التثنية في الاسم، فالمُثْنِي مكرِّر لمحاسن من يُثني عليه مرة بعد مرة.

ومن جهة اعتبار حال المخبِر ينشأ التقسيم إلى المدح والحمد، فإن المخبِر عن محاسن الغير إما أن يقترن بإخباره حب له وإجلال أو لا، فإن اقترن به الحب فهو الحمد وإلا فهو المدح.

---

(١) البليل من الرياح: الباردة مع ندى.

(٢) في المطبوع: «في شجر الغار»!!

(٣) المَرْخ والعَفَار: شجرتان فيهما نارٌ ليس في غيرهما من الشجر، ويُسَوَّى من أَغصانها الزنادُ فيُقْتَدَحُ بها. «لسان». فالمعنى كما في «المخصص»: ذهبا بالمجد في ذلك، فكان الفضل لهما.

فحصِّل هذه الأقسام وميِّزها، ثم تأمل تنزيل قوله تعالى فيما رواه عنه رسول الله ﷺ حين يقول العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فيقول الله: حمِدني عبدي. فإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال: أثنى عليَّ عبدي. ـ لأنه كرر حمده ـ. فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: مجَّدني عبدي[1]. ـ فإنه وصفه بالملك والعظمة والجلال ـ.

فاحمَد اللهَ على ما ساقه إليك من هذه الأسرار والفوائد عفوًا، لم تسهر فيها عينُك، ولم يسافر فيها فكرُك عن وطنه، ولم تتجرد في تحصيلها عن مألوفاتك، بل هي عرائس معانٍ تُجلى عليك وتُزف إليك، فلك لذة التمتع بها ومهرها على غيرك، لك غُنْمها وعليه غُرْمها».

⊙⊙⊙⊙⊙

الفرق بين الحمية لله والحمية للنفس

قال[2]: «الأولى يثيرها تعظيم الأمر والآمر، والثانية يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها، فالحَمِيَّة لله أن يَحمَى قلبُه له من تعظيم حقوقه، وهي حال عبد قد أشرق على قلبه نور سلطان الله فامتلأ قلبه بذلك النور، فإذا غضب فإنما يغضب من أجل نور ذلك السلطان الذي أُلقي على قلبه، وكان رسول الله ﷺ إذا غضب احمرت وجنتاه[3]، وبدا بين عينيه عرق يدره الغضب[4]، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله.

---

(١) بعض حديث، أخرجه مسلم (٣٩٥) وغيره.

(٢) «الروح» (ص ٢٣٤-٢٣٥).

(٣) ثبت في «الصحيحين» وغيرهما، أنه ﷺ «غضب حتى احمرت وجنتاه»، وذلك لما سئل عن ضالة الإبل. انظر ـ مثلًا ـ «صحيح البخاري» (٩١ و٢٤٣٦)، و«صحيح مسلم» (١٧٢٢).

(٤) هذه الجملة والتي تليها ـ بنحوهما ـ بعض حديث، أخرجه الترمذي في «الشمائل» (رقم ٨ و٢٢٦، ولعله في مواضع أخرى)، وغيرُه، وهو ضعيف جدًّا، كما في «مختصر الشمائل» برقم (٦).

وروى زيد بن أسلم، عن أبيه: أن موسى بن عمران كان إذا غضب اشتعلت قلنسوته نارًا.

وهذا بخلاف الحَمِيَّة للنفس فإنها حرارة تهيج من نفسه لفوات حظها أو طلبه، فإن الفتنة في النفس، والفتنة هي الحريق، والنفس متلظية بنار الشهوة والغضب، فإنما هما حرارتان تظهران على الأركان: حرارة من قبل النفس المطمئنة أثارها تعظيم حق الله، وحرارة من قبل النفس الأمارة أثارها استشعار فوت الحظ».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الحمية والجفاء

قال[1]: «الحِمْية فطام النفس عن رضاع اللبن من ثدي هو مصب الخبائث والرذائل والدنايا، ولو غزر لبنه وتهالك الناس عليه فإن لهم فطامًا تنقطع معه الأكباد حسرات، فلا بد من الفطام، فإن شئت عجل وأنت محمود مشكور، وإن شئت أخِّر وأنت غير مأجور، بخلاف الجفاء، فإنه غلظة في النفس وقساوة في القلب وكثافة في الطبع يتولد عنها خلق يسمى الجفاء».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الرجاء والتمني

قال[2]: «الفرق بين الرجاء والتمني: أن الرجاء يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الظفر والفوز، والتمني حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه.

---

(١) «الروح» (ص ٢٣٣).

(٢) «الروح» (ص ٢٤٥-٢٤٧). وانظر لهذا الفرق ما تقدم من «الفرق بين حسن الظن والغرور»، وكان حقه أن يكون مع هذا الفرق، إلا أنني آثرت الترتيب على أحرف الهجاء تسهيلًا.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢١٨]، فطوى سبحانه بساط الرجاء إلا عن هؤلاء.

وقال المغترون: إن الذين ضيعوا أوامره وارتكبوا نواهيه واتبعوا ما أسخطه وتجنبوا ما يرضيه أولئك يرجون رحمته، وليس هذا ببدع من غرور النفس والشيطان لهم.

فالرجاء لعبد قد امتلأ قلبه من الإيمان بالله واليوم الآخر، فمثل بين عينيه ما وعده الله تعالى من كرامته وجنته، وامتد القلب مائلًا إلى ذلك شوقًا إليه وحرصًا عليه، فهو شبيه بالماد عنقه إلى مطلوب قد صار نصب عينيه.

وعلامة الرجاء الصحيح: أن الراجي يخاف فوت الجنة وذهاب حظه منها بترك ما يخاف أن يحول بينه وبين دخولها، فمثله مثل رجل خطب امرأة كريمة في منصب شرف إلى أهلها، فلما آن وقت العقد واجتماع الأشراف والأكابر وإتيان الرجل إلى الحضور علم عشية ذلك اليوم ليتأهب للحضور فتراه المرأة وأكابر الناس، فأخذ في التأهب والتزين والتجمل، فأخذ من فضول شعره وتنظّف وتطيّب ولبس أجمل ثيابه، وأتى إلى تلك الدار متقيًا في طريقه كل وسخ ودنس وأثر يصيبه أشد تقوى، حتى الغبار والدخان وما هو دون ذلك، فلما وصل إلى الباب رحب به ربها ومكن له في صدر الدار على الفرش والوسائد ورمقته العيون وقُصِد بالكرامة من كل ناحية.

فلو أنه ذهب بعد أخذ هذه الزينة فجلس في المزابل وتمرغ عليها وتمعك بها وتلطخ في بدنه وثيابه بما عليها من عذرة وقذر ودخل ذلك في شعره وبشره وثيابه، فجاء على ذلك الحال إلى تلك الدار وقصد دخولها للوعد الذي سبق له لقام إليه البواب بالضرب والطرد والصياح عليه والإبعاد له من بابها وطريقها،

فرجع متحيرًا خاسئًا.

فالأول حال الراجي، وهذا حال المتمني.

وإن شئت مثلت حال الرجلين بملك هو من أغير الناس وأعظمهم أمانة وأحسنهم معاملة، لا يضيع لديه حق أحد، وهو يعامل الناس من وراء ستر لا يراه أحد، وبضائعه وأمواله وتجارته وعبيده وإماؤه ظاهر بارز في داره للعاملين، فدخل عليه رجلان، فكان أحدهما يعامله بالصدق والأمانة والنصيحة لم يجرب عليه غشًّا ولا خيانة ولا مكرًا، فباعه بضائعه كلها واعتمد مع مماليكه وجواريه ما يجب أن يعتمد معهم، فكان إذا دخل إليه ببضاعة تخير له أحسن البضائع وأحبها إليه، وإن صنعها بيده بذل جهده في تحسينها وتنميقها وجعل ما خفي منها أحسن مما ظهر، ويستلم المؤنة ممن أمره أن يستلمها منه، وامتثل ما أمره به السفير بينه وبينه في مقدار ما يعمله؛ صفته وهيئته وشكله ووقته وسائر شؤونه، وكان الآخر إذا دخل دخل بأخس بضاعة يجدها، لم يخلصها من الغش ولا نصح فيها ولا اعتمد في أمرها ما قاله المترجم عن الملك والسفير بينه وبين الصناع والتجار، بل كان يعملها على ما يهواه، ومع ذلك فكان يخون الملك في داره إذ هو غائب عن عينه، فلا يلوح له طمع إلا خانة ولا حرمة للملك إلا مد بصره إليها وحرص على إفسادها، ولا شيء يسخط الملك إلا ارتكبه إذا قدر عليه، فمضيا على ذلك مدة، ثم قيل: إن الملك يبرز لمعامليه حتى يحاسبهم ويعطيهم حقوقهم، فوقف الرجلان بين يديه فعامل كل واحد منهما بما يستحقه.

فتأمل هذين المثلين! فإن الواقع مطابق لهما، فالراجي على الحقيقة لما صارت الجنة نصب عينيه ورجاءه وأملَه امتد إليها قلبه وسعى لها سعيها ـ فإن الرجاء هو امتداد القلب وميله ـ، وحقق رجاءه كمالُ التأهب وخوف الفوت

والأخذ بالحذر، وأصله من التنحي، ورجا البئر: ناحيته، وأرجاء السماء: نواحيها، وامتداد القلب إلى المحبوب منقطعًا عما يقطعه عنه هو تنح عن النفس الأمارة وأسبابها وما تدعو إليه.

وهذا الامتداد والميل والخوف من شأن النفس المطمئنة، فإن القلب إذا انفتحت بصيرته فرأى الآخرة وما أعد الله فيها لأهل طاعته وأهل معصيته خاف وخف مرتحلًا إلى الله والدار الآخرة، وكان قبل ذلك مطمئنًا إلى النفس، والنفس إلى الشهوات والدنيا، فلما انكشف عنه غطاء النفس خف وارتحل عن جوارها طالبًا جوار العزيز الرحيم في جنات النعيم.

ومن هنا صار كل خائف راجيًا وكل راجٍ خائفًا، فأُطلق اسم أحدهما على الآخر، فإن الراجي قلبه قريب الصفة من قلب الخائف، هذا الراجي قد نحَّى قلبه عن مجاورة النفس والشيطان مرتحلًا إلى الله قد رفع له من الجنة علم فشمر إليه وله مادًّا إليه قلبه كله، وهذا الخائف فارٌّ من جوارهما ملتجئ إلى الله من حبسه في سجنهما في الدنيا فيُحبس معهما بعد الموت ويوم القيامة، فإن المرء مع قرينه في الدنيا والآخرة.

فلما سمع الوعيد ارتحل من مجاورة جار السوء في الدارين فأُعطي اسم الخائف، ولما سمع الوعد امتد واستطار شوقًا وفرحًا بالظفر به فأُعطي اسم الراجي، وحالاه متلازمان لا ينفك عنهما، فكل راج خائف من فوات ما يرجوه، كما أن كل خائف راجٍ أمنَه مما يخاف، فلذلك تداول الاسمان عليه.

قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣]، قالوا: في تفسيرها لا تخافون لله عظمة.

وقد تقدم أن [الله] سبحانه طوى الرجاء إلا عن الذين آمنوا وهاجروا

وجاهدوا[1].

وقد فسر النبي الإيمان بأنه ذو شعب وأعمال ظاهرة وباطنة[2]، وفسر الهجرة بأنها هجر ما نهى الله عنه، والجهاد بأنه جهاد النفس في ذات الله، فقال: «الْـمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ»[3]، و«الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللهِ»[4].

والمقصود: أن الله سبحانه جعل أهل الرجاء من آمن وهاجر وجاهد، وأخرج مَنْ سواهم من هذه الآية.

وأما الأماني: فإنها رؤوس أموال المفاليس، أخرجوها في قالب الرجاء، وتلك أمانيهم، وهي تصدر من قلب تزاحمت عليه وساوس النفس فأظلم من دخانها، فهو يستعمل قلبه في شهواتها، وكلما فعل ذلك منَّتْه حسن العاقبة والنجاة وأحالته على العفو والمغفرة والفضل، وأن الكريم لا يستوفي حقه ولا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة، ويسمي ذلك رجاء، وإنما هو وسواس وأماني باطلة تقذف بها النفس إلى القلب الجاهل فيستريح إليها.

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء:١٢٣].

فإذا ترك العبد ولاية الحق ونصرته ترك الله ولايته ونصرته ولم يجد له من دون الله وليًّا ولا نصيرًا، وإذا ترك ولايته ونصرته تولته نفسه والشيطان فصارا

---

(١) قبل قليل في أول هذا الفرق.

(٢) في أحاديث لا تكاد تحصى، وحديث: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً» متفق عليه، وعند البخاري: «سِتُّونَ».

(٣) أخرجه البخاري (١٠) وغيره.

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٤٣٨) وغيره، وهو في مواضع أخرى من «المسند»، وأحد ألفاظه: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ». وهو في «الصحيحة» (٥٤٩).

وليين له ووُكِل إلى نفسه فصار انتصاره لها بدلًا من نصرة الله ورسوله، فاستبدل بولاية الله ولاية نفسه وشيطانه وبنصرته نصرة نفسه وهواه، فلم يدع للرجاء موضعًا، فإذا قالت لك النفس: أنا في مقام الرجاء فطالبْها بالبرهان، وقل: هذه أمنية، فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، فالكيس يعمل أعمال البر على الطمع والرجاء، والأحمق العاجز يعطل أعمال البر ويتكل على الأماني التي يسميها رجاء، والله الموفق».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الرجاء وبين التمني

قال[1]: «الفرق بينه وبين التمني: أن التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل، فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها، والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها ويرجو طلوع الزرع، ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل.

قال شاه الكرماني: علامة صحة الرجاء حسن الطاعة.

والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان، ونوع غرور مذموم، فالأولان: رجاءُ رجلٍ عمل بطاعة الله على نور من الله فهو راج لثوابه، ورجل أذنب ذنوبًا ثم تاب منها فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه. والثالث: رجل متمادٍ في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب».

⦿⦿⦿⦿⦿

(١) «مدارج السالكين» (٢/٣٥-٣٦).

الفرق بين الرغبة والرجاء

قال[1]: «الفرق بين الرغبة و الرجاء: أن الرجاء طمع والرغبة طلب فهي ثمرة الرجاء، فإنه إذا رجا الشيء طلبه، والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف، فمن رجا شيئًا طلبه ورغب فيه، ومن خاف شيئًا هرب منه».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الرفق والتواني

قال[2]: «الرفق شيء والتواني والكسل شيء، فإن المتواني يتثاقل عن مصلحته بعد إمكانها فيتقاعد عنها، والرفيق يتلطف في تحصيلها بحسب الإمكان مع المطاوعة».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين رقة القلب والجزع

قال[3]: «الفرق بين رقة القلب والجزع: أن الجزع ضعف في النفس وخوف في القلب، يمده شدة الطمع والحرص، ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر، وإلا فمتى علم أن المقدر كائن ولا بد كان الجزع عناء محضًا ومصيبة ثانية.

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۞ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

فمتى آمن العبد بالقدر وعلم أن المصيبة مقدرة في الحاضر والغائب لم يجزع ولم يفرح، ولا ينافي هذا رقة القلب، فإنها ناشئة من صفة الرحمة التي هي

(١) «مدارج السالكين» (٢/٥٥).

(٢) «الروح» (ص ٢٣١).

(٣) «الروح» (ص ٢٥٠-٢٥١).

كمال، والله سبحانه إنما يرحم من عباده الرحماء[1].

وقد كان رسول الله ﷺ أرق الناس قلبًا وأبعدهم من الجزع.

فرقة القلب رأفة ورحمة، وجزعه مرض وضعف، فالجزع حال قلب مريض بالدنيا قد غشيه دخان النفس الأمارة، فأخذ بأنفاسه وضيَّق عليه مسالك الآخرة، وصار في سجن الهوى والنفس، وهو سجن ضيِّق الأرجاء مظلم المسلك، فلانحصار القلب وضيقه يجزع من أدنى ما يصيبه ولا يحتمله، فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعد وامتلأ من محبة الله وإجلاله رق وصارت فيه الرأفة والرحمة، فتراه رحيمًا رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، يرحم النملة في جحرها والطير في وكره فضلًا عن بني جنسه، فهذا أقرب القلوب من الله.

قال أنس: كان رسولُ الله ﷺ أرحمَ الناس بالعيال[2].

والله سبحانه إذا أراد أن يرحم عبدًا أسكن في قلبه الرأفة والرحمة، وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمة والرأفة وأبدله بهما الغلظة والقسوة.

وفي الحديث الثابت: «لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ»[3].

وفيه: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ» [4].

وفيه: «ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[5].

وفيه: «أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ

---

(١) «إِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»، بعض حديث ثابت عن النبي ﷺ في «الصحيحين» وغيرهما.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٦) وغيره، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما رأيت أحدًا كان أرحمَ بالعيال من رسول الله ﷺ. قال: كان إبراهيم مُسْتَرْضِعًا له في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وإنه لَيُدَّخَنُ، وكان ظِئْرُهُ قَيْنًا، فيأخذه فيُقبِّله، ثم يرجع. قال عمرو: فلما توفي إبراهيم قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِي، وَإِنَّهُ مَاتَ فِي الثَّدْيِ، وَإِنَّ لَهُ لَظِئْرَيْنِ تُكَمِّلَانِ رَضَاعَهُ فِي الْجَنَّةِ».

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٤٢) وغيره، وحسنه الألباني.

(٤) متفق عليه.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤) بلفظه، وغيرهما، وحسنه الألباني.

الْقَلْبِ بِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ»[١].

والصدِّيق رضي الله عنه إنما فَضَل الأمة بما كان في قلبه من الرحمة العامة زيادة على الصِّدِّيقية، ولهذا أظهر أثرها في جميع مقدماته، حتى في الأُسارى يوم بدر، واستقر الأمر على ما أشار به[٢]، وضرب له ﷺ مثلًا بعيسى وإبراهيم[٣].

والرب تعالى هو الرؤوف الرحيم، وأقرب الخلق إليه أعظمهم رأفة ورحمة، كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاته، وهذا باب لا يلجه إلا الأفراد في العالم».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الزهد وبين الورع

قال[٤]: «الفرق بينه وبين الورع: أن الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما يخشى ضرره في الآخرة».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين سلامة القلب والبله والتغفل

قال[٥]: «الفرق بين سلامة القلب والبله والتغفل: أن سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته، فيسلم قلبه من إرادته وقصده لا من معرفته والعلم به، وهذا بخلاف البله والغفلة فإنها جهل وقلة معرفة، وهذا لا

(١) بعض حديث، أخرجه مسلم (٢٨٦٥) وغيره، ولفظ مسلم: «وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ».

(٢) لكن لم يكن هو الصواب! وانظر قصة أُسارَى بدر في «صحيح مسلم» (١٧٦٣).

(٣) أخرج ذلك أحمد (٣٤٥٢)، والترمذي (٣٠٨٤ و١٧١٤، ولعله في مواضع أخرى)، وغيرهما، في قصة طويلة لم يذكر الترمذي نصها كاملًا، ولم يذكر ضرب المثل، وضعفه الألباني.

(٤) «الفوائد» (ص١١٨).

(٥) «الروح» (ص ٢٤٣).

يحمد إذ هو نقص، وإنما يحمَد الناسُ مَن هو كذلك لسلامتهم منه، والكمال أن يكون القلب عارفًا بتفاصيل الشر سليمًا من إرادته.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لست بخب، ولا يخدعني الخب[1].

وكان عمر أعقل من أن يُخدع وأورع من أن يَخدع.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

فهذا هو السليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة؛ من مرض الشبهة التي توجب اتباع الظن، ومرض الشهوة التي توجب اتباع ما تهوى الأنفس، فالقلب السليم الذي سلم من هذا وهذا».

⊙⊙⊙⊙⊙

الفرق بين الشجاعة والجرأة

قال[2]: «الفرق بين الشجاعة والجرأة: أن الشجاعة من القلب، وهي ثباته واستقراره عند المخاوف، وهو خُلُق يتولد من الصبر وحسن الظن، فإنه متى ظن الظفر وساعده الصبر ثبت، كما أن الجبن يتولد من سوء الظن وعدم الصبر، فلا يظن الظفر ولا يساعده الصبر.

وأصل الجبن من سوء الظن ووسوسة النفس بالسوء، وهو ينشأ من الرئة، فإذا ساء الظن ووسوست النفس بالسوء انتفخت الرئة فزاحمت القلب في مكانه وضيقت عليه حتى أزعجته عن مستقره، فأصابه الزلازل والاضطراب لإزعاج الرئة له وتضييقها عليه.

ولهذا جاء في حديث عمرو بن العاص الذي رواه أحمد وغيره، عن النبي

(١) الخب: بالفتح والكسر، الخادع الغاش.

(٢) «الروح» (ص ٢٣٦-٢٣٧).

ﷺ: «شَرُّ مَا فِي الْـمَرْءِ: جُبْنٌ خَالِع، وشُحٌّ هَالِعٌ»[1].

فسمى الجبن خالعًا لأنه يخلع القلب عن مكانه لانتفاخ السَّحْر وهو الرئة، كما قال أبو جهل لعتبة بن ربيعة يوم بدر: انتفخ سَحْرك.

فإذا زال القلب عن مكانه ضاع تدبير العقل، فظهر الفساد على الجوارح، فوُضعت الأمور على غير مواضعها.

فالشجاعة: حرارة القلب وغضبه وقيامه وانتصابه وثباته، فإذا رأته الأعضاء كذلك أعانته، فإنها خدم له وجنود، كما أنه إذا ولَّى ولت سائر جنوده.

وأما الجرأة: فهي إقدام سببه قلة المبالاة وعدم النظر في العاقبة، بل تُقْدِم النفس في غير موضع الإقدام معرِضة عن ملاحظة العارض، فإما عليها وإما لها».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الشجاعة والقوة

قال[2]: «وكثير من الناس تشتبه عليه الشجاعة بالقوة، وهما متغايران، فإن الشجاعة هي ثبات القلب عند النوازل وإن كان ضعيف البطش، وكان الصدِّيق رضي الله عنه أشجع الأمة بعد رسول الله ﷺ، وكان عمر وغيره أقوى منه، ولكن بَرَّز على الصحابة كلهم بثبات قلبه في كل موطن من المواطن التي تزلزِل الجبال، وهو في ذلك ثابت القلب ربيط الجأش يلوذ به شجعان الصحابة وأبطالهم فيثبتهم ويشجعهم، ولو لم يكن له إلا ثبات قلبه يوم الغار وليلته، وثبات قلبه يوم بدر وهو يقول للنبي: يا رسول الله كفاك بعض مناشدتك ربك فإنه منجز لك ما وعدك[3].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥١١) وغيره. ولفظه: «شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ: شُحٌّ هَالِعٌ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ». وصححه الألباني.

(٢) «الفروسية» (ص ٥٠٠-٥٠٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٦٣) وغيره.

وثبات قلبه يوم أحد وقد صرخ الشيطان في الناس بأن محمدًا قد قتل ولم يبق أحد مع رسول الله ﷺ إلا دون عشرين في أُحُد، وهو مع ذلك ثابت القلب ساكن الجأش، وثبات قلبه يوم الخندق وقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وثبات قلبه يوم الحديبية وقد قلق فارس الإسلام عمر بن الخطاب حتى إن الصدِّيق ليثبته ويسكنه ويطمئنه، وثبات قلبه يوم حنين حيث فر الناس وهو لم يفر.

وثبات قلبه حين النازلة التي اهتزت لها الدنيا أجمع، وكادت تزول لها الجبال، وعُقِرت لها أقدام الأبطال، وماجت لها قلوب أهل الإسلام كموج البحر عند هبوب قواصف الرياح، وصاح لها الشيطان في أقطار الأرض أبلغ الصياح، وخرج الناس بها من دين الله أفواجًا، وأثار عدوُّ الله بها أقطار الأرض عَجَاجًا، وانقطع لها الوحي من السماء، وكاد لولا دفاع الله يطمس[1] نجوم الاهتداء، وأنكرت الصحابة بها قلوبهم، وكيف لا؟! وقد فقدوا رسولهم من بين أظهرهم وحبيبهم، وطاشت الأحلام وغشي الآفاق ما غشيها من الظلام، واشرأب النفاق ومد أهله الأعناق، ورفع الباطل رأسًا كان تحت قدم الرسول موضوعًا، وسمع المسلمون من أعداء الله ما لم يكن في حياته بينهم مسموعًا.

وطمع عدو الله أن يعيد الناس إلى عبادة الأصنام، وأن يصرف وجوههم عن البيت الحرام، وأن يصد قلوبهم عن الإيمان والقرآن، ويدعوهم إلى ما كانوا عليه من التهود والتمجس والشرك وعبادة الصلبان.

فشمر الصديق رضي الله عنه من جِدِّه عن ساقٍ غيرَ خَوَّارٍ، وانتضى سيف عزمه الذي هو ثاني ذي الفقار، وامتطى من ظهور عزائمه جوادًا لم يكن يكبو يوم السباق، وتقدم جنود الإسلام فكان أفرسهم إنما همه اللَّحاق، وقال:

---

(١) في المطبوع: «الطمس»، وهو تصحيف واضح.

والله لأجاهدن أعداء الإسلام جَهدي، ولأصدقنهم الحرب حتى تنفرد سالفتي أو أفرد وحدي، ولأدخلنهم في الباب الذي خرجوا منه، ولأردنهم إلى الحق الذي رغبوا عنه.

فثبّت اللهُ بذلك القلب الذي لو وُزن بقلوب الأمة لرجَحها جيوشَ الإسلام، وأذل بها المنافقين والمرتدين وأهل الكتاب وعبدة الأصنام، حتى استقامت قناة الدين من بعد اعوجاجها، وجرت الملة الحنيفية على سننها ومنهاجها، وتولى حزب الشيطان وهم الخاسرون، وأذّن مؤذن الإيمان على رؤوس الخلائق: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦].

هذا، وما ضعفت جيوش عزماته ولا استكانت ولا وهنت، بل لم تزل الجيوش بها مؤيدة ومنصورة، وما فرحت عزائم أعدائه بالظفر في موطن من المواطن بل لم تزل مغلوبة مكسورة.

تلك لعمر الله الشجاعة التي تضاءلت لها فرسان الأمم، والهمة التي تصاغرت عندها عَلِيات الهمم، ويحق لصديق الأمة أن يَضرب من هذا المغنم بأوفر نصيب، وكيف لا؟! وقد فاز من ميراث النبوة بكمال التعصيب، وقد كان الموروث صلوات الله وسلامه عليه أشجع الناس، فكذلك وارثه وخليفته من بعده أشجع الأمة بالقياس

ويكفي أن عمر بن الخطاب سهم من كنانته، وخالد بن الوليد سلاح من أسلحته، والمهاجرون والأنصار أهل بيعته وشوكته، وما منهم إلا من اعترف أنه يستمد من ثباته وشجاعته[(١)]».

⦿⦿⦿⦿⦿

(١) لله درها من كلمات! فهلّا يعيدها على سمعه وقلبه من يقدِّم على الصدِّيق الأكبر أحدًا ـ حاشا الأنبياء ـ؟!

الفرق بين الشح والبخل

قال[1]: «الفرق بين الشُّح والبخل: أن الشح هو شدة الحرص على الشيء والإحفاء في طلبه والاستقصاء في تحصيله وجشع النفس عليه، والبخل منع إنفاقه بعد حصوله وحبه وإمساكه، فهو شحيح قبل حصوله بخيل بعد حصوله.

فالبخل ثمرة الشح، والشح يدعو إلى البخل، والشح كامن في النفس، فمن بَخِل فقد أطاع شحه، ومن لم يبخَل فقد عصى شحه ووُقِي شرَّه، وذلك هو المفلح، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩، والتغابن:١٦]».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين شرف النفس والتيه

قال[2]: «أما شرف النفس فهو صيانتها عن الدنايا والرذائل والمطامع التي تقطع أعناق الرجال، فيربأ بنفسه عن أن يلقيها في ذلك، بخلاف التيه فإنه خلق متولد بين أمرين: إعجابه بنفسه، وازدرائه بغيره، فيتولد من بين هذين التيه.

والأول يتولد من بين خلقين كريمين: إعزاز النفس وإكرامها، وتعظيم مالكها وسيدها أن يكون عبده دنيًّا وضيعًا خسيسًا، فيتولد من بين هذين الخلقين شرف النفس وصيانتها.

وأصل هذا كله: استعداد النفس وتهيؤها، وإمداد وليها ومولاها لها، فإذا فُقِد الاستعداد والإمداد فُقِد الخيرُ كله».

⦿⦿⦿⦿⦿

(١) «الوابل الصيب» (ص ٥٢).

(٢) «الروح» (ص ٢٣٣).

الفرق بين الشوق والاشتياق

قال[1]: «واختلف في الفرق بين الشوق والاشتياق، أيهما أقوى؟ فقالت طائفة: الشوق أقوى، فإنه صفة لازمة، والاشتياق فيه نوع افتعال، كما يدل عليه بناؤه، كالاكتساب ونحوه.

وقالت فرقة: الاشتياق أقوى لكثرة حروفه، وكلما قوي المعنى وزاد زادوا حروفه.

وحكمت فرقة ثالثة بين القولين، وقالت: الاشتياق يكون إلى غائب، وأما الشوق فإنه يكون للحاضر والغائب.

والصواب أن يقال: الشوق مصدر شاقه يشوقه، إذا دعاه إلى الاشتياق إليه، فالشوق داعية الاشتياق ومَبداه، والاشتياق موجَبه وغايته، فإنه يقال: شاقني فاشتقت، فالاشتياق فعل مطاوع لشاقني.

وقال[2]: قال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت النصرأباذي يقول: للخلق كلهم مقام الشوق وليس لهم مقام الاشتياق، ومن دخل في حال الاشتياق هام فيه حتى لا يُرى له أثر ولا قرار.

وهذا يدل على أن الاشتياق عنده غير الشوق، ولا ريب أن الاشتياق مصدر اشتاق يشتاق اشتياقًا، كما أن التشوق مصدر تشوق تشوقًا، والشوق في الأصل اسم مصدر شاقه يشوقه شوقًا، مثل شاقه شوقًا إذا دعاه إلى الاشتياق، فالاشتياق مطاوع شاقه، يقال: شاقني فاشتقت إليه، ثم صار الشوق اسم مصدر الاشتياق، وغلب عليه حتى لا يُفهم عند الإطلاق إلا الاشتياق القائم بالـمَشُوق، والـمَشُوق هو الصَّب المشتاق، والشائق هو الذي قام به وادَّعى الشوق.

---

(١) «روضة المحبين» (ص ٣١).

(٢) «طريق الهجرتين» (ص ٤٩١-٤٩٢).

فههنا ألفاظ: الشوق، والاشتياق، والتشوق، والشائق، والـمَشُوق، والشَّيِّق، فهذه ستة ألفاظ:

أحدها: الشوق، وهو في الأصل مصدر الفعل المتعدي، شاقه يشوقه، ثم صار اسم مصدر الاشتياق.

اللفظ الثاني: الاشتياق، وهو مصدر اشتاق اشتياقًا، والفرق بينه وبين الشوق هو الفرق بين المصدر واسم المصدر.

اللفظ الثالث: التشوق، وهو مصدر تشوق إذا اشتاق مرة بعد مرة، كما يقال: تجرع وتعلم وتفهم، وهذا البناء مشعر بالتكلف وتناول الشيء على مَهَلة.

اللفظ الرابع: الشائق، وهو الداعي للمَشُوق إلى الاشتياق.

اللفظ الخامس: الـمَشُوق، وهو المشتاق الذي قد حصل له الشوق.

اللفظ السادس: الشَّيِّق، وهو فَيْعِل بمنزلة هين ولين، وهو المشتاق.

فهذه فروق ما بين هذه الألفاظ.

وأما كون الاشتياق أبلغ من الشوق، فهذا قد يقال فيه: إنه الأصل، وهو أكثر حروفًا من الشوق، وهو يدل على المصدر الفاعل، وأما الشوق ففَرْع عليه لأنه اسم مصدر، وأقل حروفًا، وهو إنما يدل على المصدر المجرد، فهذه ثلاثة فروق منها، والله أعلم».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام

قال[1]: «كل أحد لا بد أن يصبر على بعض ما يكره إما اختيارًا وإما اضطرارًا، فالكريم يصبر اختيارًا لعلمه بحسن عاقبة الصبر وأنه يُحمد عليه ويُذم

(١) «عدة الصابرين» (ص ٤٠-٤١).

على الجزع، وأنه إن لم يصبر لم يردَّ الجزعُ عليه فائتًا ولم ينتزع عنه مكروهًا، وأن المقدور لا حيلة في دفعه، وما لم يقدَّر لا حيلة في تحصيله، فالجزع ضرُّه أقرب من نفعه.

قال بعض العقلاء: العاقل عند نزول المصيبة يفعل ما يفعله الأحمق بعد شهر، كما قيل:

وإن الأمر يفضي إلى آخِرٍ فيصير آخرُه أولًا

فإذا كان آخر الأمر الصبر والعبد غير محمود، فما أحسن به أن يستقبل الأمر في أوله بما يستدبره الأحمق في آخره.

وقال بعض العقلاء: من لم يصبر صبر الكرام سلا سُلُوَّ البهائم.

فالكريم ينظر إلى المصيبة، فإن رأى الجزع يردها ويدفعها فهذا قد ينفعه الجزع[١]، وإن كان الجزع لا ينفعه فإنه يجعل المصيبة مصيبتين.

وأما اللئيم فإنه يصبر اضطرارًا، فإنه يحوم حول ساحة الجزع فلا يراها تجدي عليه شيئًا، فيصبر صبر الـمُوثَق للضرب.

وأيضًا، فالكريم يصبر في طاعة الرحمن، واللئيم يصبر في طاعة الشيطان، فاللئام أصبر الناس في طاعة أهوائهم وشهواتهم وأقل الناس صبرًا في طاعة ربهم، فيصبر على البذل في طاعة الشيطان أتم صبر ولا يصبر على البذل في طاعة الله في أيسر شيء، ويصبر في تحمل المشاق لهوى نفسه في مرضاة عدوه ولا يصبر على أدنى المشاق في مرضاة ربه، ويصبر على ما يقال في عرضه في المعصية ولا يصبر على ما يقال في عرضه إذا أُوذي في الله، بل يفر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خشية أن يتكلم في عرضه في ذات الله، ويبذل عرضه في هوى نفسه

(١) هذا على سبيل التجاوز، وإلا فإن الجزع لا يرد مصيبة ولا يدفعها، ولا ينفع بحال.

ومرضاته صابرًا على ما يقال فيه.

وكذلك يصبر على التبذل بنفسه وجاهه في هوى نفسه ومراده ولا يصبر على التبذل لله في مرضاته وطاعته، فهو أصبر شيء على التبذل في طاعة الشيطان ومراد النفس وأعجز شيء عن الصبر على ذلك في الله.

وهذا أعظم اللؤم، ولا يكون صاحبه كريمًا عند الله، ولا يقوم مع أهل الكرم إذا نودي بهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد: ليعلم أهل الجمع من أولى بالكرم اليوم! أين المتقون؟[١]».

⊙⊙⊙⊙⊙

الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة

قال[٢]: «الفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد في نفسه وحاله مع غيره، فإنْ حبَس نفسه ومنعها عن إجابة داعي ما لا يحسُن إن كان خُلُقًا له ومَلَكة سُمِّي صبرًا، وإن كان بتكلف وتمرُّن وتجرُّع لمرارته سُمِّي تصبرًا، كما يدل عليه هذا البناء لغة، فإنه موضوع للتكلف، كالتحلم والتشجع والتكرم والتحمل ونحوها، وإذا تكلفه العبد واستدعاه صار سجية له، كما في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ»[٣].

وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير التعفف له سجية[٤]، كذلك

(١) روي شيء قريب من هذا في أحاديث ضعيفة جدًّا أو موضوعة.

(٢) «عدة الصابرين» (ص ١٢-١٣).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٦٩ و٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣)، وغيرهما، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنّ ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفِد ما عنده، فقال: «مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ». وفي لفظ مسلم: «وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ».

(٤) كما قال النبي ﷺ: «وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ». انظر الحاشية السابقة.

سائر الأخلاق.

وهي مسألة اختلف فيها الناس: هل يمكن اكتساب واحد منها؟ أو التخلق لا يصير خُلقًا أبدًا، كما قال الشاعر:

يـــراد مـــن القلـــب نســـيانكم وتـــأبى الطبـــاع عـــلى الناقـــلِ

وقال آخر:

يـــا أيهـــا المـــتحلي غـــيرَ شـــيمتهِ إن التخلـــق يـــأتي دونـــه الخُلُـــقُ

وقال آخر:

فضحَ[١] التطبعُ شِيمةَ المطبوعِ[٢]

قالوا: وقد فرغ الله سبحانه من الخَلْق والخُلُق والرزق والأجل.

وقالت طائفة أخرى: بل يمكن اكتساب الخلق كما يكتسب العقل والحلم والجود والسخاء والشجاعة، والوجود شاهد بذلك.

قالوا: والمزاولات تعطي الملكات.

ومعنى هذا: أن من زاول شيئًا واعتاده وتمرّن عليه صار ملكة له وسجية وطبيعة.

قالوا: والعوائد تنقل الطبائع.

فلا يزال العبد يتكلف التصبر حتى يصير الصبر له سجية، كما أنه لا يزال يتكلف الحلم والوقار والسكينة والثبات حتى تصير له أخلاقًا بمنزلة الطبائع.

قالوا: وقد جعل الله سبحانه في الإنسان قوة القبول والتعلم، فنَقْل الطبائع

---

(١) في المطبوع: «فقبح»!

(٢) عجز بيت ينسب إلى الشريف الرضي، وصدره: هيهات لا تتكلفنّ ليَ الهوى

عن مقتضياتها غير مستحيل، غير أن هذا الانتقال قد يكون ضعيفًا فيعود العبد إلى طبعه بأدنى باعث، وقد يكون قويًّا ولكن لم ينقل الطبع فقد يعود إلى طبعه إذا قوي الباعث واشتد، وقد يستحكم الانتقال بحيث يستحدث صاحبه طبعًا ثانيًا، فهذا لا يكاد يعود إلى طبعه الذى انتقل عنه.

وأما الاصطبار: فهو أبلغ من التصبر، فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب، فالتصبر مبدأ الاصطبار كما أن التكسب مقدمة الاكتساب، فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطبارًا.

وأما المصابرة: فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر، فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين، كالمشاتمة والمضاربة، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فأمرَهم بالصبر: وهو حال الصابر في نفسه، والمصابرة: وهي حاله في الصبر مع خصمه، والمرابطة: وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة.

فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى، فأخبر سبحانه أن مِلاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها، فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذى يخاف هجوم العدو منه في الظاهر فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته».

⊙⊙⊙⊙⊙

الفرق بين الصبر والقسوة

قال[1]: «الفرق بين الصبر والقسوة: أن الصبر خلق كسبي يتخلق به العبد، وهو حبس النفس عن الجزع والهلع والتشكي، فيحبس النفس عن التسخط

---

(١) «الروح» (ص٢٤١-٢٤٢).

واللسان عن الشكوى والجوارح عما لا ينبغي فعله، وهو ثبات القلب على الأحكام القَدَرية والشرعية، وأما القسوة فيُبس في القلب يمنعه من الانفعال، وغلظة تمنعه من التأثر بالنوازل، فلا يتأثر لغلظته وقساوته لا لصبره واحتماله.

وتحقيق هذا، أن القلوب ثلاثة: قلب قاس غليظ بمنزلة اليد اليابسة، وقلب مائع رقيق جدًّا، فالأول لا ينفعل، بمنزلة الحجر، والثاني: بمنزلة الماء، وكلاهما ناقص، وأصح القلوب القلب الرقيق الصافي الصلب، فهو يرى الحق من الباطل بصفائه، ويقبله ويؤثره برقته، ويحفظه ويحارب عدوَّه بصلابته.

وفي الأثر: القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها.

وهذا القلب الزجاجي، فإن الزجاجة جمعت الأوصاف الثلاثة.

وأبغض القلوب إلى الله القلب القاسي، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة:٧٤].

وقال تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج:٥٣].

فذَكَر القلبين المنحرفين عن الاعتدال: هذا بمرضه، وهذا بقسوته، وجعل إلقاء الشيطان فتنة لأصحاب هذين القلبين ورحمة لأصحاب القلب الثالث، وهو القلب الصافي الذي ميز بين إلقاء الشيطان وإلقاء الملَك بصفائه، وقبِل الحق بإخباته ورقته، وحارب النفوس المبطلة بصلابته وقوته، فقال تعالى عقيب ذلك: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج:٥٤]».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الصدق والإخلاص

قال[(١)]: «الفرق بينه وبين الإخلاص: أن للعبد مطلوبًا وطلبًا، فالإخلاص توحيد مطلوبه، والصدق توحيد طلبه، فالإخلاص أن لا يكون المطلوب منقسمًا، والصدق أن لا يكون الطلب منقسمًا، فالصدق بذل الجهد، والإخلاص إفراد المطلوب».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الصيانة والتكبر

قال[(٢)]: «الفرق بين الصيانة والتكبر: أن الصائن لنفسه بمنزلة رجل قد لبس ثوبًا جديدًا نقي البياض ذا ثمن، فهو يدخل به على الملوك فمن دونهم، فهو يصونه عن الوسخ والغبار والطبوع وأنواع الآثار إبقاء على بياضه ونقائه، فتراه صاحب تعزز وهروب من المواضع التي يَخشى منها عليه التلوث، فلا يسمح بأثر ولا طبع ولا لوث يعلو ثوبه، وإن أصابه شيء من ذلك على غِرَّة بادر إلى قلعة وإزالته ومحو أثره.

وهكذا الصائن لقلبه ودينه تراه يجتنب طبوع الذنوب وآثارها، فإن لها في القلب طبوعًا وآثارًا أعظم من الطبوع الفاحشة في الثوب النقي البياض، ولكن على العيون غشاوة أن تدرك تلك الطبوع، فتراه يهرب من مظانّ التلوث ويحترس من الخلق، ويتباعد من تخالطهم مخافة أن يحصل لقلبه ما يحصل للثوب الذي يخالط الدباغين والذباحين والطباخين ونحوهم.

بخلاف صاحب العلو، فإنه وإن شابه هذا في تحرزه وتجنبه فهو يقصد أن يعلو رقابهم ويجعلهم تحت قدمه، فهذا لون وذاك لون».

⦿⦿⦿⦿⦿

(١) «مدارج السالكين» (١/١١٠).

(٢) «الروح» (ص ٢٣٦).

الفرق بين الطمأنينة والسكينة

قال رحمه الله تعالى[1]: «قال صاحب «المنازل»: الطُّمَأنينة سكون يقويه أمن صحيح شبيه بالعِيان، وبينها وبين السكينة فَرقان؛ أحدهما: أن السكينة صولة تورث خمود الهيبة أحيانًا، والطُّمَأنينة سكون أمن في استراحة أنس، والثاني: أن السكينة تكون نعتًا وتكون حينًا بعد حين، والطُّمَأنينة لا تفارق صاحبها».

قال ابن القيم: «الطُمَأنينة موجَب السكينة وأثر من آثارها، وكأنها نهاية السكينة، فقوله: (سكون يقويه أمن)؛ أي: سكون القلب مع قوة الأمن الصحيح الذي لا يكون أمن غرور، فإن القلب قد يسكن إلى أمن الغرور ولكن لا يطمئن به لمفارقة ذلك السكون له، والطُّمَأنينة لا تفارقه، فإنها مأخوذة من الإقامة، يقال: اطمأن بالمكان والمنزل إذا أقام به، وسببُ صحة هذا الأمن المقوِّي للسكون شِبْهُه بالعِيان، بحيث لا يبقى معه شيء من مَجُوزات الظنون والأوهام، بل كأن صاحبه يعاين ما يطمئن به، فيأمن به اضطراب قلبه وقلقه وارتيابه.

وأما الفَرقان اللذان ذكرهما بينها وبين السكينة، فحاصل الفرق الأول: أن السكينة تصول على الهيبة الحاصلة في القلب فتخمدها في بعض الأحيان فيسكن القلب من انزعاج الهيبة بعض السكون، وذلك في بعض الأوقات فليس حكمًا دائمًا مستمرًا، وهذا يكون لأهل الطُّمَأنينة دائمًا، ويصحبه الأمن والراحة بوجود الأنس، فإن الاستراحة في السكينة قد تكون من الخوف والهيبة فقط، والاستراحة في منزل الطُّمَأنينة تكون مع زيادة أنس، وذلك فوق مجرد الأمن وقدر زائد عليه.

وحاصل الفرق الثاني: أن الطُّمَأنينة مَلَكة ومقام لا يفارَق، والسكينة

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٥١٤-٥١٦).

تنقسم إلى سكينة هي مقام ونعت لا يزول وإلى سكينة تكون وقتًا دون وقت. هذا حاصل كلامه.

والذي يظهر لي في الفرق بينهما أمران سوى ما ذكر:

أحدهما: أن ظفره وفوزه بمطلوبه الذي حصل له السكينة بمنزلة من واجهه عدو يريد هلاكه فهرب منه عدوه فسكن روعه، والطُّمَأنينة بمنزلة حصن رآه مفتوحًا فدخله وأمِن فيه وتقوَّى بصاحبه وعُدّته.

فللقلب ثلاثة أحوال:

أحدها: الخوف والاضطراب والقلق من الوارد الذي يزعجه ويقلقه.

الثاني: زوال ذلك الوارد الذي يزعجه ويقلقه عنه وعدمه.

الثالث: ظفره وفوزه بمطلوبه الذي كان ذلك الوارد حائلًا بينه وبينه.

وكل منهما يستلزم الآخر ويقارنه، فالطُّمَأنينة تستلزم السكينة ولا تفارقها، وكذلك بالعكس، لكن استلزام الطُّمَأنينة للسكينة أقوى من استلزام السكينة للطُّمَأنينة.

الثاني: أن الطُّمَأنينة أعم، فإنها تكون في العلم والخبر به واليقين والظفر بالمعلوم، ولهذا اطمأنت القلوب بالقرآن لما حصَل لها الإيمان به ومعرفته والهداية به في ظلم الآراء والمذاهب، واكتفت به منها، وحكَّمتْه عليها وعزلتْها وجعلتْ له الولايةَ بأسرها كما جعلها الله، فبه خاصمت وإليه حاكمت وبه صالت وبه دفعت الشُّبَه.

وأما السكينة: فإنها ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه وسكونه وزوال قلقه واضطرابه، كما يحصل لحزب الله عند مقابلة العدو وصولته، والله سبحانه أعلم».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين العفو والذل
والفرق بين الانتصار والانتقام

قال[(١)]: «الفرق بين العفو والذل: أن العفو إسقاط حقك جودًا وكرمًا وإحسانًا مع قدرتك على الانتقام، فتؤثر الترك رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق، بخلاف الذل، فإن صاحبه يترك الانتقام عجزًا وخوفًا ومهانةَ نفس، فهذا مذموم غير محمود، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالًا منه، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى:٣٩]، فمدحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك، حتى إذا قدروا على مَن بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليه ندبهم إلى الخُلُق الشريف من العفو والصفح، فقال: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى:٤٠]، فذكر المقامات الثلاثة: العدل وأباحه، والفضل وندب إليه، والظلم وحرمه.

فإن قيل: فكيف مدحهم على الانتصار والعفو وهما متنافيان؟

قيل: لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام، وإنما مدحهم على الانتصار وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم، فلما قدروا ندبهم إلى العفو.

قال بعض السلف في هذه الآية: كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفَوْا.

فمدَحهم على عفو بعد قدرة لا على عفو ذل وعجز ومهانة، وهذا هو الكمال الذي مدح سبحانه به نفسه في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء:١٤٩][(٢)]، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:٢١٨، وفي مواضع أخرى كثيرة].

وفي أثر معروف: «حملة العرش أربعة؛ اثنان يقولان: سبحانك اللَّهُمَّ ربنا

---

(١) «الروح» (ص ٢٤١-٢٤٣).

(٢) في المطبوع: «وكان الله عفوًّا قديرًا»!

وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللّٰهُمَّ ربنا وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك»[(١)].

ولهذا قال المسيح صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٨]؛ أي: إن غفرت لهم غفرت عن عزة: وهي كمال القدرة، وحكمة: وهي كمال العلم، فغفرت بعد أن علمت ما عملوا وأحاطت بهم قدرتك، إذ المخلوق قد يغفر لعجزه عن الانتقام وجهله بحقيقة ما صدر من المسيء، والعفو من المخلوق ظاهره ضيم وذل وباطنه عز ومهابة، والانتقام ظاهره عز وباطنه ذل، فما زاد اللهُ [عبدًا] بعفو إلا عزًّا[(٢)]، ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو، ولهذا ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط[(٣)].

وتأمل قوله سبحانه: ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾، كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم لا أن غيرهم هو الذي ينصرهم، ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالبًا بل لا بد من المجاوزة شرع فيه سبحانه المماثلة والمساواة، وحرم الزيادة، وندب إلى العفو.

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٤٧٠)، والبيهقي في «الشعب» (٣٨١)، والذهبي في «السير» (٥/٢٦٣-٢٦٤)، وغيرهم، عن هارون بن رئاب، من قوله. والطبري في «التفسير» (١٩/٢٦١)، عنه، عن شهر بن حوشب، من قوله. وعند أربعتهم: «حملة العرش ثمانية»، لفظًا أو معنى، ثم بدل «اثنان»: «أربعة». وأخرجه الذهبي في «العلو» (ص ١٠١-مختصره)، عن حسان بن عطية قال: حملة العرش ثمانية، يتجاوبون بصوت حسن رخيم، فيقول أربعة منهم: سبحانك وبحمدك على حلمك بعد علمك، ويقول أربعة: سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك. وقوّى إسناده، ووافقه الألباني.

(٢) وثبت هذا عن النبي ﷺ فيما أخرجه مسلم (٢٥٨٨) وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ».

(٣) كما أخرج البخاري (٦١٢٦، وفي مواضع أخرى)، واللفظ له، ومسلم (٢٣٢٧ و٢٣٢٨)، وغيرهما، عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: ما خُيِّرَ رسولُ الله ﷺ بين أمرين قط إلا أَخَذ أيسرَهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسولُ الله ﷺ لنفسه في شيء قَطُّ، إلا أن تُنتهك حرمةُ الله، فينتقمَ بها لله.

والمقصود: أن العفو من أخلاق النفس المطمئنة، والذل من أخلاق الأمارة.

ونكتة المسألة: أن الانتقام شيء والانتصار شيء، فالانتصار أن ينتصر لحق الله ومن أجله، ولا يقوى على ذلك إلا من تخلص من ذل حظه ورِقّ هواه، فإنه حينئذ ينال حظًّا من العز الذي قسم الله للمؤمنين، فإذا بُغِيَ عليه انتصر من الباغي من أجل عز الله الذي أعزه به، غيرة على ذلك العز أن يستضام ويقهر، وحمية للعبد المنسوب إلى العزيز الحميد أن يُستذل، فهو يقول للباغي عليه: أنا مملوك من لا يذل مملوكه ولا يحب أن يذله أحد.

وإذا كانت نفسه الأمارة قائمة على أصولها لم تحب بعد طلبه إلا الانتقام والانتصار لحظها وظفرها بالباغي تشفيًا منه وإذلالًا له، وأما النفس التي خرجت من ذل حظها ورِقّ هواها إلى عز توحيدها وإنابتها إلى ربها فإذا نالها البغي قامت بالانتصار حمية ونصرة للعز الذي أعزها الله به ونالته منه، وهو في الحقيقة حمية لربها ومولاها.

وقد ضُرب لذلك مثلًا بعبدين من عبيد الغلة حراثين ضرَب أحدُهما صاحبَه، فنفا المضروب عن الضارب نصحًا منه لسيده وشفقة على الضارب أن يعاقبه السيد، فلم يجشم سيده خلقُه عقوبتَه وإفسادَه بالضرب، فشكره العافي على عفوه ووقع منه بموقع.

وعبد آخر قد أقامه بين يديه وجمّله وألبسه ثيابًا يقف بها بين يديه، فعمد بعض سواس الدواب وأضرابهم ولطخ تلك الثياب بالعذرة أو مزقها، فلو عفا عمن فعل به ذلك لم يوافق عفوه رأي سيده ولا محبته، وكان الانتصار أحب إليه وموافق لمرضاته، كأنه يقول: إنما فعل هذا بك جرأة علي واستخفافًا بسلطاني، فإذا أمكنه من عقوبته فأذله وقهره ولم يبق إلا أن يبطش به فذل وانكسر قلبه

فإن سيده يحب منه أن لا يعاقبه لحظه وأن يأخذ منه حق السيد، فيكون انتصاره حينئذ لمحض حق سيده لا لنفسه.

كما روي عن علي رضي الله، أنه مر برجل فاستغاث به وقال: هذا منعني حقي ولم يعطني إياه، فقال: أعطه حقه، فلما جاوزهما لج الظالم ولطم صاحب الحق، فاستغاث بعلي فرجع وقال: أتاك الغوث، فقال له: استقِد منه، فقال: قد عفوت يا أمير المؤمنين، فضربه علي تسع درر، وقال: قد عفا عنك مَنْ لطمتَه، وهذا حق السلطان. فعاقبه علي لما اجترأ على سلطان الله ولم يَدَعْه.

ويشبه هذا قصة الرجل الذي جاء إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقال: احملني فوالله لا أنا أفرس منك ومن ابنك، وعنده المغيرة بن شعبة فحسر عن ذراعه وصك بها أنف الرجل، فسال الدم، فجاء قومه إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقالوا: أقِدْنا من المغيرة، فقال: أنا أقِيدُكم من وزعة الله؟! لا أقيدكم منه.

فرأى أبو بكر أن ذلك انتصار من المغيرة وحَمِيَّة لله وللعز الذي أعز به خليفة رسول الله ﷺ، ليتمكن بذلك العز من حسن خلافته وإقامة دينه، فترك قَوَدَه لاجترائه على عز الله وسلطانه الذي أعز به رسوله ودينه وخليفته، فهذا لون والضرب حَمِيَّة للنفس الأمارة لون».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الفتوة والمروءة

قال[1]: «الفرق بينها وبين المروءة: أن المروءة أعم منها، فالفتوة نوع من أنواع المروءة، فإن المروءة استعمال ما يَجْمُل ويَزين مما هو مختص بالعبد أو متعد إلى غيره وترك ما يدنس ويَشين مما هو مختص أيضًا به أو متعلق بغيره، والفتوة

(١) «مدارج السالكين» (٢/٣٤٠). والفتوة: تعبير صوفي، والتعبير الشرعي: مكارم الأخلاق، أو كلمة نحوها.

إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخَلق».

⊙⊙⊙⊙⊙

الفرق بين الفراسة والظن

قال[1]: «الفرق بين الفراسة والظن: أن الظن يخطئ ويصيب، وهو يكون مع ظلمة القلب ونوره وطهارته ونجاسته، ولهذا أمر تعالى باجتناب كثير منه، وأخبر أن بعضه إثم.

وأما الفراسة: فأثنى على أهلها ومدحهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:٧٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أي للمتفرسين.

وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠].

فالفراسة الصادقة لقلب قد تطهر وتصفى وتنزه من الأدناس وقرب من الله، فهو ينظر بنور الله الذي جعله في قلبه.

وفي «الترمذي» وغيره، من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْـمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ»[2].

---

(١) «الروح» (ص ٢٣٨-٢٤٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) وغيره، وضعفه الألباني، ويغني عنه حديث: «إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ». أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٠٤٧) وغيرُه، وهو في «الصحيحة» برقم (١٦٩٣).

وهذه الفراسة نشأت له من قربه من الله، فإن القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه، وكان تلقِّيه من مشكاةٍ قريبة من الله بحسب قربه منه، وأضاء له النور بقدر قربه، فرأى في ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب، كما ثبت في «الصحيح»، من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي»(١).

فأخبر سبحانه أن تقرب عبده منه يفيده محبته له، فإذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله، فسمع به وأبصر به وبطش به ومشى به، فصار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صور الحقائق على ما هي عليه، فلا تكاد تخطئ له فراسة، فإن العبد إذا أبصر بالله أبصر الأمر على ما هو عليه، فإذا سمع بالله سمعه على ما هو عليه.

وليس هذا من علم الغيب، بل علام الغيوب قذف الحق في قلب قريب مستبشر بنوره، غير مشغول بنقوش الأباطيل والخيالات والوساوس التي تمنعه من حصول صور الحقائق فيه.

وإذا غلب على القلب النور فاض على الأركان، وبادر من القلب إلى العين،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، ولفظه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْـمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْـمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»، فليس في الحديث جملة: «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي»، وهي تعدُّ تفسيرًا لقوله تعالى: «كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ» إلخ.

فكشف بعين بصره بحسب ذلك النور.

وقد كان رسول الله ﷺ يرى أصحابه في الصلاة وهم خلفه كما يراهم أمامه(١).

ورأى بيت المقدس عيانًا وهو بمكة(٢).

ورأى قصور الشام وأبواب صنعاء ومدائن كسرى وهو بالمدينة يحفر الخندق(٣).

ورأى أمراءه بمؤتة وقد أُصيبوا وهو بالمدينة(٤).

ورأى النجاشي بالحبشة لما مات وهو بالمدينة، فخرج إلى المصلى فصلى عليه(٥).

ورأى عمرُ ساريةَ بنهاوند من أرض فارس هو وعساكر المسلمين وهم يقاتلون عدوهم فناداه: يا ساريةُ الجبلَ(٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٨، وفي مواضع أخرى)، ومسلم (٤٢٥ و٤٣٤)، وغيرهما، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «أَقِيمُوا الصُّفُوفَ، فَإِنِّي أَرَاكُمْ خَلْفَ ظَهْرِي». هذا لفظ للبخاري.

(٢) أخرج البخاري (٣٨٨٦ و٤٧١٠)، ومسلم (١٧٠)، وغيرهما، كلاهما بلفظ: «لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ، فَجَلَا (وفي رواية: جَلَّى) اللهُ لِي بَيْتَ الْـمَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ»، والرواية الثانية للبخاري.

(٣) أخرج هذا النسائي (٣١٧٦)، في ضمن حديث طويل، وحسنه الألباني. وليس فيه ذكر أبواب صنعاء، وقد جاء ذكرها في حديث آخر في «مسند أحمد» (١٨٢١٩)، وإسناده ضعيف، فيه ميمون أبو عبد الله البصري الكندي ضعيف.

(٤) أخرجه البخاري (١٢٤٦، وفي مواضع أخرى) وغيره، وليس في لفظ الحديث أنه رأى ذلك!

(٥) خبر نعي النجاشي والصلاة عليه في «صحيح البخاري» (١٣١٨، وفي مواضع أخرى)، و«صحيح مسلم» (٩٥١)، وغيرهما، وليس فيه أن النبي ﷺ رأى ذلك، وإثبات الرؤية في مثل هذا دون نص ضرب من التخمين غريب جدًّا أن يصدر من مثل الإمام ابن القيم رحمه الله.

(٦) قصة مناداة عمر رضي الله عنه سارية ذكرها ابن كثير في «البداية» (١٣١/٧)، وقال: «إسناد جيد حسن»، ووافقه شيخنا في «الصحيحة» (١١١٠)، فلتنظر. وليس فيها أن عمر رأى سارية! وقد اعتمد الصوفية على مثل هذه الحكاية فأثبتوا ما يسمى بالكشف، كعادتهم في إثبات كثير من بدعهم بالخيال والظن، ولو ثبتت الرؤية فيها ـ ودونه خرط القتاد ـ فأين هم من محدَّث الأمة عمر؟!!

ودخل عليه نفر من مَذْحِج فيهم الأشتر النخعي، فصعَّد فيه البصر وصوَّبه، وقال: أيهم هذا؟ قالوا: مالك بن الحارث. فقال: ما له قاتله الله؟! إني لأرى للمسلمين منه يومًا عصيبًا.

ودخل عمرو بن عبيد على الحسن، فقال: هذا سيد الفتيان إن لم يُحْدِث.

وقيل: إن الشافعي ومحمد بن الحسن جلسا في المسجد الحرام، فدخل رجل، فقال محمد: أتفرس أنه نجار، فقال الشافعي: أتفرس أنه حداد، فسألاه، فقال: كنت حدادًا وأنا اليوم أنجر.

ودخل أبو الحسن البوشنجي والحسن الحداد على أبي القاسم المناوي يعودانه، فاشتريا في طريقهما بنصف درهم تفاحًا نسيئة، فلما دخلا عليه قال: ما هذه الظلمة؟ فخرجا وقالا: ما علمنا، لعل هذا من قبل ثمن التفاح، فأعطيا الثمن ثم عادا إليه، ووقع بصره عليهما، فقال: يمكن الإنسان أن يخرج من الظلمة بهذه السرعة! أخبراني عن شأنكما، فأخبراه بالقصة، فقال: نعم، كان كل واحد منكما يعتمد على صاحبه في إعطاء الثمن والرجل مستح منكما في التقاضي.

وكان بين زكريا النخشي وبين امرأة سبب قبل توبته، فكان يومًا واقفًا على رأس أبي عثمان الحِيري، فتفكر في شأنها، فرفع أبو عثمان إليه رأسه وقال: ألا تستحي؟

وكان شاه الكرماني جيد الفراسة لا تخطئ فراسته، وكان يقول: من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمَّر باطنه بدوام المراقبة، وظاهرة باتباع السنة، وتعوَّد أكل الحلال، لم تخطئ فراسته.

وكان شاب يصحب الجنيد يتكلم على الخواطر، فذُكِر للجنيد فقال: إيش هذا الذي ذُكِر لي عنك؟ فقال له: اعتقد شيئًا، فقال له الجنيد: اعتقدت، فقال الشاب: اعتقدت كذا وكذا، فقال الجنيد: لا، فقال: فاعتقد ثانيًا، قال: اعتقدت،

فقال الشاب: اعتقدت كذا وكذا، فقال الجنيد: لا، قال: فاعتقد ثالثًا، قال: اعتقدت، قال الشاب: هو كذا وكذا، قال: لا، فقال الشاب: هذا عجب، وأنت صدوق، وأنا أعرف قلبي، فقال الجنيد: صدقت في الأولى والثانية والثالثة لكن أردت أن أمتحنك: هل يتغير قلبك؟!

وقال أبو سعيد الخراز: دخلت المسجد الحرام فدخل فقير عليه خرقتان يسأل شيئًا، فقلت في نفسي: مثل هذا كَلٌّ على الناس، فنظر إلي وقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ﴾ [البقرة:٢٣٥]، قال: فاستغفرت في سري، فناداني وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:٢٥].

وقال إبراهيم الخوّاص: كنت في الجامع، فأقبل شاب طيب الرائحة حسن الوجه حسن الحرمة، فقلت لأصحابنا: يقع لي أنه يهودي، فكلهم كره ذلك، فخرجت وخرج الشاب ثم رجع إليهم فقال: إيش قال الشيخ؟ فاحتشموه، فألح عليهم، فقالوا: قال إنك يهودي، فجاء فأكب على يدي فأسلم، فقلت: ما السبب؟ فقال: نجد في كتابنا أن الصدِّيق لا تخطئ فراسته، فقلت: أَمْتَحِنُ المسلمين، فتأملتهم فقلت: إن كان فيهم صدِّيق ففي هذه الطائفة، فلبَّست عليكم، فلما اطلع هذا الشيخ عليّ وتفرسني علمت أنه صدِّيق.

وهذا عثمان بن عفان: دخل عليه رجل من الصحابة وقد رأى امرأة في الطريق، فتأمل محاسنها، فقال له عثمان: يدخل علي أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه، فقلت: أَوَحْيٌ بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: لا، ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة.

فهذا شأن الفراسة، وهي نور يقذفه الله في القلب، فيخطر له الشيء فيكون كما خطر له، وينفذ إلى العين فترى ما لا يراه غيرها[1]».

⦿⦿⦿⦿⦿

(١) عجيب جدًا من مثل ابن القيم ـ الإمام السلفي ـ أن يتساهل فيورد مثل هذه الحكايات التي لا علاقة لبعضها بالفراسة، بل هي بعلم الغيب أولى! ولعل غالبها ما وقع أصلًا، وإنما هو كذب محض على أصحابه!!

الفرق بين فرح القلب وفرح النفس

قال(١): الفرق بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر، فإن الفرح بالله ومعرفته ومحبته وكلامه من القلب، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد:٣٦]، فإذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحي فأولياء الله وأتباع رسوله أحق بالفرح به.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨].

قال أبو سعيد الخدري: فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلكم من أهله.

وقال هلال بن يساف: فضل الله ورحمته الإسلام الذي هداكم إليه، والقرآن الذي علمكم هو خير من الذهب والفضة الذي تجمعون.

وقال ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين: فضل الله الإسلام، ورحمته القرآن.

فهذا فرح القلب، وهو من الإيمان ويثاب عليه العبد، فإن فرحه به يدل على رضاه به، بل هو فوق الرضا، فالفرح بذلك على قدر محبته، فإن الفرح إنما يكون بالظفر بالمحبوب، وعلى قدر محبته يفرح بحصوله له، فالفرح بالله وأسمائه وصفاته ورسوله وسنته وكلامه محض الإيمان وصفوته ولبه، وله عبودية عجيبة وأثر في القلب لا يعبر عنه، فابتهاج القلب وسروره وفرحه بالله وأسمائه

---

(١) «الروح» (ص ٢٤٨-٢٥٠).

وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه أفضل ما يعطاه، بل هو جل عطاياه، والفرح في الآخرة بالله ولقائه بحسب الفرح به ومحبته في الدنيا، فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة وضعفها، فهذا شأن فرح القلب.

وله فرح آخر، وهو فرحه بما مَنّ الله به عليه من معاملته والإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه له، وكلما تمكن في ذلك قوي فرحه وابتهاجه.

وله فرحة أخرى عظيمة الوقع عجيبة الشأن، وهي الفرحة التي تحصل له بالتوبة، فإن لها فرحة عجيبة لا نسبة لفرحة المعصية إليها البتة، فلو علم العاصي أن لذة التوبة وفرحتها تزيد على لذة المعصية وفرحتها أضعافًا مضاعفة لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية.

وسر هذا الفرح إنما يعلمه من علم سر فرح الرب تعالى بتوبة عبده أشد فرح يُقدَّر، ولقد ضرب له رسول الله ﷺ مثلًا ليس في أنواع الفرح في الدنيا أعظم منه، وهو فرح رجل قد خرج براحلته التي عليها طعامه وشرابه في سفر، ففقدها في أرض دَوِّيَّة(١) مَهْلِكَة، فاجتهد في طلبها فلم يجدها، فيئس منها، فجلس ينتظر الموت، حتى إذا طلع البدر رأى في ضوئه راحلته وقد تعلق زمامها بشجرة، فقال من شدة فرحه: اللَّهُمَّ أنت عبدي وأنا ربك! أخطأ من شدة الفرح(٢).

فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته، فلا يُنْكَر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة.

---

(١) هي البرّية لا نبات فيها ولا ماء.

(٢) هذا المثل الذي ضربه النبي ﷺ لفرح الله جل جلاله بتوبة عبده، أخرجه البخاري (٦٣٠٨، وفي مواضع أخرى)، ومسلم (٢٧٤٤، وفي مواضع أخرى)، وغيرهما، وهاك أحد ألفاظ مسلم: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْـمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْـمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ».

ولكن هاهنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو أنه لا يصل إلى ذلك إلا بعد ترحات ومضض ومحن لا تثبت لها الجبال، فإن صبر لها ظفر بلذة الفرح، وإن ضعف عن حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشيء، وآخر أمره فوات ما آثره من فرحة المعصية ولذتها، فيفوته الأمران ويحصل على ضد اللذة من الألم المركب من وجود المؤذي وفوت المحبوب، فالحكم لله العلي الكبير.

فصل. وهاهنا فرحة أعظم من هذا كله، وهي فرحته عند مفارقته الدنيا إلى الله إذا أرسل إليه الملائكة فبشروه بلقائه، وقال له ملك الموت: اخرجي أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، أبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، اخرجي راضية مرضيًّا عنك، ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ * ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ * فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

فلو لم يكن بين يدي التائب إلا هذه الفرحة وحدها لكان العقل يأمر بإيثارها، فكيف ومن بعدها أنواع من الفرح:

منها: صلاة الملائكة الذين بين السماء والأرض على روحه.

ومنها: فتح أبواب السماء لها، وصلاة ملائكة السماء عليها، وتشييع مقربيها لها إلى السماء الثانية، فتفتح ويصلي عليها أهلها ويشيعها مقربوها هكذا إلى السماء السابعة.

فكيف يقدر فرحها وقد استؤذن لها على ربها ووليها وحبيبها؟! فوقفت بين يديه، وأذِن لها بالسجود، فسجدت، ثم سمعتْه[(١)] سبحانه يقول: اكتبوا كتابه في عليين، ثم يُذهب به فيرى الجنة ومقعده فيها وما أعد الله له، ويلقى أصحابه وأهله، فيستبشرون به ويفرحون به ويفرح بهم فرح الغائب يقدم على أهله فيجدهم على أحسن حال ويقدم عليهم بخير ما قدم به مسافر.

---

(١) لم أقف على ما يُثبت هذا السماع والسجود المذكور قبله!

هذا كله قبل الفرح الأكبر يوم حشر الأجساد، بجلوسه في ظل العرش، وشربه من الحوض، وأخذه كتابه بيمينه، وثقل ميزانه، وبياض وجهه، وإعطائه النور التام والناس في الظلمة، وقطعه جسر جهنم بلا تعويق، وانتهائه إلى باب الجنة وقد أزلفت له في الموقف، وتلقي خزنتها له بالترحيب والسلام والبِشارة، وقدومه على منازله وقصوره وأزواجه وسراريه.

وبعد ذلك فرح آخر لا يقدر قدره ولا يعبر عنه تتلاشى هذه الأفراح كلها عنده، وإنما يكون هذا لأهل السنة المصدِّقين برؤية وجه ربهم تبارك وتعالى من فوقهم وسلامه عليهم وتكليمه إياهم ومحاضرته لهم[١].

وليســـت هـــذه الفَرْحـــات إلا	لذي التَّرْحـــات في دار الرزايـــا
فشـــمر مـــا اســـتطعت الســـاقَ	لعلـــك أن تفـــوز بـــذي العطايـــا
وصـــم عـــن لذة حشـــيت بـــلاءً	لـــلذاتٍ خَلَصْـــنَ مـــن البلايـــا
ودع أمنيـــةً إن لـــم تنلهـــا	تعـــذب أو تنـــل كانـــت منايـــا
ولا تســـتبطِ وعـــدًا مـــن رســـولٍ	أتى بـــالحق مـــن رب البرايـــا
فهـــذا الوعـــد أدنى مـــن نعـــيمٍ	مضـــى بـــالأمس لـــو وُفِّقْـــتَ رايـــا

⊙⊙⊙⊙⊙

الفرق بين القوة في أمر الله وبين العلو في الأرض

قال[٢]: «القوة في أمر الله هي من تعظيمه وتعظيم أوامره وحقوقه حتى يقيمها الله، والعلو في الأرض هو من تعظيم نفسه وطلب تفردها بالرياسة ونفاذ

(١) استطرد رحمه الله بذكر فرح القلب، ولم يذكر فرح النفس لظهوره ـ كما ذكر في أول الكلام ـ، ففرح القلب بالله وطاعته وذكره وما والاه، وأثر ذلك طُمَأنينة وراحة مستمرة وطيب عيش، تعقبه أفراح متواصلة ولذات دائمة، وفرح النفس بحظوظها الفانية وما حصلته من معصية الله، وهو فرح منغص لا يلبث أن يزول، وتعقبه آلام لا تحتمل، ففرق بين الفرحين، وفرق بين عاقبتيهما.

(٢) «الروح» (ص ٢٣٤).

الكلمة سواء عز أمر الله أو هان، بل إذا عارضه أمر الله وحقوقه ومرضاته في طلب علوه لم يلتفت إلى ذلك وأهدره وأماته في تحصيل علوه».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين المبادرة والعجلة

قال[١]: «الفرق بين المبادرة والعجلة: أن المبادرة انتهاز الفرصة في وقتها ولا يتركها حتى إذا فاتت طلبها، فهو لا يطلب الأمور في أدبارها ولا قبل وقتها، بل إذا حضر وقتها بادر إليها ووثب عليها وثوب الأسد على فريسته، فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثمرة وقت كمال نضجها وإدراكها.

والعجلة: طلب أخذ الشيء قبل وقته، فهو لشدة حرصه عليه بمنزلة من يأخذ الثمرة قبل أوان إدراكها.

فالمبادرة وسط بين خلقين مذمومين؛ **أحدهما**: التفريط والإضاعة، و**الثاني**: الاستعجال قبل الوقت، ولهذا كانت العجلة من الشيطان، فإنها خفة وطيش وحِدّة في العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم، وتوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها، وتجلب عليه أنواعًا من الشرور وتمنعه أنواعًا من الخير، وهي قرين الندامة، فقَلّ من استعجل إلا ندم، كما أن الكسل قرين الفوت والإضاعة».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين المحبة والشوق

قال[٢]: «الفرق بينهما فرق ما بين الشيء وأثره، فإن الحامل على الشوق هو المحبة، ولهذا يقال: لمحبتي له اشتقت إليه، وأحببته فاشتقت إلى لقائه، ولا يقال:

---

(١) «الروح» (ص ٢٥٨).

(٢) «طريق الهجرتين» (ص ٤٨٢-٤٨٣).

لشوقي إليه أحببته، ولا اشتقت إلى لقائه فأحببته، فالمحبة بذر في القلب والشوق بعض ثمرات ذلك البذر، وكذلك من ثمراتها حمد المحبوب والرضا عنه وشكره وخوفه ورجاؤه والتنعم بذكره والسكون والأنس به والوحشة بغيره، وكل هذه من أحكام المحبة وثمراتها، وهو حياتها.

فمنزلة الشوق من المحبة منزلة الهرب من البغضاء والكراهة، فإن القلب إذا أبغض الشيء وكرهه جد في الهرب منه، وإذا أحبه جد في الهرب إليه وطلبه، فهو حركة القلب في الظفر بمحبوبه، ولشدة ارتباط الشوق بالمحبة يقع كل واحد منهما موقع صاحبه ويفهم منه ويعبر به عنه».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين المداراة والمداهنة

قال[(١)]: «المداراة صفة مدح، والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما: أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله ويتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق.

وقد ضُرِب لذلك مثل مطابق، وهو حال رجل به قرحة قد آلمته، فجاءه الطبيب المداوي الرفيق فتعرف حالها ثم أخذ في تليينها، حتى إذا نضجت أخذ في بطها برفق وسهولة حتى أخرج ما فيها، ثم وضع على مكانها من الدواء والمرهم ما يمنع فساده ويقطع مادته، ثم تابع عليها بالمراهم التي تنبت اللحم، ثم ذَرَّ عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها، ثم شد عليها الرباط، ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت.

والمداهن قال لصاحبها: لا بأس عليك منها، وهذه لا شيء، فاسترها عن العيوب بخرقة ثم اله عنها، فلا تزال مِدّتها تقوى وتستحكم حتى عظم فسادها.

---

(١) «الروح» (ص ٢٣١-٢٣٢)، وانظر (ص ٢٣٠).

وهذا المثل أيضًا مطابق كل المطابقة لحال النفس الأمارة مع المطمئنة، فتأمله!

فإذا كانت هذه حال قرحة بقدر الحمصة، فكيف بسُقم هاج من نفس أمارة بالسوء هي معدن الشهوات ومأوى كل فسق؟! وقد قارنها شيطان في غاية المكر والخداع، يعدها ويمنيها ويسحرها بجميع أنواع السحر، حتى يخيَّل إليها النافع ضارًّا والضار نافعًا والحسن قبيحًا والقبيح جميلًا.

وهذا لعمرو الله من أعظم أنواع السحر، ولهذا يقول سبحانه: ﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾ [المؤمنون:٨٩].

والذي نُسبوا إليه الرسل من كونهم مسحورين هو الذي أصابهم بعينه، وهم أهله لا رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما أنهم نسبوهم إلى الضلال والفساد في الأرض والجنون والسفه.

وما استعاذت الأنبياء والرسل وأمروا الأمم بالاستعاذة من شر النفس الأمارة وصاحبها وقرينها الشيطان إلا لأنهما أصل كل شر وقاعدته ومنبعه، وهما متساعدان عليه متعاونان:

رَضِيعَيْ لِبانِ ثَدْيِ أُمٍّ تَقاسَمَا   بأَسْحَمَ داجٍ عَوْضُ لا نَتَفَرَّقُ(١)

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل:٩٨].

وقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٢٠٠].

وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨].

---

(١) هو للأعشى، وانظر شرحه ـ إن شئت ـ في «شرح درة الغواص» (ص ٥٧٥).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١-٥]، فهذا استعاذة من شر النفس.

وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٦]، فهذا استعاذة من قرينها وصاحبها، وبئس القرين والصاحب.

فأمر الله سبحانه نبيه وأتباعه بالاستعاذة بربوبيته التامة الكاملة من هذين الخَلْقَين العظيم شأنهما في الشر والفساد، والقلب بين هذين العدوين لا يزال شرهما يطرقه وينتابه، وأول ما يدب فيه السقم من النفس الأمارة من الشهوة وما يتبعها من الحب والحرص والطلب والغضب، ويتبعه من الكبر والحسد والظلم والتسلط، فيعلم الطبيب الغاش الخائن بمرضه، فيعوده ويصف له أنواع السموم والمؤذيات، ويخيِّل إليه بسحره أن شفاءه فيها، ويتفق ضعف القلب بالمرض وقوة النفس الأمارة والشيطان وتتابع إمدادهما، وأنه نقد حاضر ولذة عاجلة، والداعي إليه يدعو من كل ناحية، والهوى ينفذ والشهوة تهون التأسي بالأكثر والتشبه بهم والرضا بأن يصيبه ما أصابهم، فكيف يستجيب مع هذه القواطع وأضعافها لداعي الإيمان ومنادي الجنة؟! إلا من أمده الله بإمداد التوفيق، وأيده برحمته وتولى حفظه وحمايته، وفتح بصيرة قلبه، فرأى سرعة انقطاع الدنيا وزوالها وتقلبها بأهلها وفعلها بهم، وأنها في الحياة الدائمة كغمس إصبع في البحر بالنسبة إليه».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين المنافسة والحسد

قال[1]: «الفرق بين المنافسة والحسد: أن المنافسة المبادرة إلى الكمال الذي تشاهده من غيرك، فتنافسه فيه حتى تلحقه أو تجاوزه، فهي من شرف النفس وعلو الهمة وكبر القدر، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦].

وأصلها من الشيء النفيس الذي تتعلق به النفوس طلبًا ورغبة، فينافس فيه كل من النفسين الأخرى، وربما فرحت إذا شاركتها فيه، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يتنافسون في الخير، ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه، بل يحض بعضهم بعضًا عليه مع تنافسهم فيه.

وهي نوع من المسابقة، وقد قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨، والمائدة: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد:٢١].

وكان عمر بن الخطاب يسابق أبا بكر رضي الله عنهما، فلم يظفر بسبقه أبدًا، فلما علم أنه قد استولى على الإمامة قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبدًا.

وقال: والله ما سبقته إلى خير إلا وجدته قد سبقني إليه.

والمتنافسان كعبدين بين يدي سيدهما يتباريان ويتنافسان في مرضاته ويتسابقان إلى محابه، فسيدهما يعجبه ذلك منهما ويحثهما عليه، وكل منهما يحب الآخر ويحرضه على مرضاة سيده.

والحسد خلق نفس ذميمة وضيعة ساقطة ليس فيها حرص على الخير، فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها، وتتمنى أن لو فاته كسبها

---

(١) «الروح» (ص ٢٥١-٢٥٢).

حتى يساويها في العدم، كما قال تعالى: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء:٨٩].

وقال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة:١٠٩].

فالحسود عدو النعمة متمنّ زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو، والمنافس مسابق النعمة متمنّ تمامها عليه وعلى من ينافسه، فهو ينافس غيره أن يعلو عليه ويحب لحاقه به أو مجاوزته له في الفضل، والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه في النقصان، وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة، فمن جعل نصب عينيه شخصًا من أهل الفضل والسبق فنافسه انتفع به كثيرًا، فإنه يتشبه به ويطلب اللحاق به والتقدم عليه، وهذا لا نذمه.

وقد يطلق اسم الحسد على المنافسة المحمودة، كما في «الصحيح» عن النبي ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ»[١].

فهذا حسد منافسة وغبطة، يدل على علو همة صاحبه وكبر نفسه وطلبها للتشبه بأهل الفضل».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين المهابة والكبر

قال[٢]: «الفرق بين المهابة والكبر: أن المهابة أثر من آثار امتلاء القلب

(١) متفق عليه، وله في «الصحيحين» عدة ألفاظ، منها: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ».

(٢) «الروح» (ص ٢٣٦).

بعظمة الله ومحبته وإجلاله، فإذا امتلأ القلب بذلك حل فيه النور، ونزلت عليه السكينة، وأُلبس رداء الهيبة، فاكتسى وجهه الحلاوة والمهابة، فأخذ بمجامع القلوب محبة ومهابة، فحنت إليه الأفئدة، وقرت به العيون، وأنست به القلوب، فكلامه نور ومدخله نور ومخرجه نور وعمله نور، وإن سكت علاه الوقار، وإن تكلم أخذ بالقلوب والأسماع.

وأما الكبر: فأثر من آثار العُجْب والبغي، من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم، ترحلت منه العبودية، ونزل عليه المقت، فنظره إلى الناس شزر، ومشيه بينهم تبختر، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار ولا الإنصاف، ذاهب بنفسه تيهًا، لا يبدأ من لقيه بالسلام، وإن رد عليه رأى أنه قد بالغ في الإنعام عليه، لا ينطلق لهم وجهه ولا يسعهم خُلُقُه، ولا يرى لأحد عليه حقًّا ويرى حقوقه على الناس، ولا يرى فضلهم عليه ويرى فضله عليهم، لا يزداد من الله إلا بعدًا ومن الناس إلا صغارًا وبغضًا».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين الموجدة والحقد

قال[1]: «الفرق بين الموجدة والحقد: أن الوجد[2] الإحساس بالمؤلم والعلم به وتحرك النفس في رفعه، فهو كمال، وأما الحقد: فهو إضمار الشر وتوقعه كل وقت فيمن وجدت عليه، فلا يزايل القلب أثره.

و**فرق آخر**: وهو أن الموجدة لما ينالك منه، والحقد لما يناله منك، فالموجدة وجد ما نالك من أذاه، والحقد توقع وجود ما يناله من المقابلة، فالموجدة سريعة الزوال

(١) «الروح» (ص ٢٥١).

(٢) يعني: الموجدة، فهما في هذا الباب بمعنًى.

والحقد بطيء الزوال، والحقد يجيء مع ضيق القلب واستيلاء ظلمة النفس ودخانها عليه، بخلاف الموجدة، فإنها تكون مع قوته وصلابته وقوة نوره وإحساسه».

⊙⊙⊙⊙⊙

الفرق بين النصيحة والتأنيب

قال[1]: «الفرق بين النصيحة والتأنيب: أن النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له وعليه، فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه، فيتلطف في بذلها غاية التلطف، ويحتمل أذى المنصوح ولائمته، ويعامله معاملةَ الطبيبِ العالم المشفق المريضَ المشبعَ مرضًا، وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته، ويتلطف في وصول الدواء إليه بكل ممكن، فهذا شأن الناصح.

وأما المؤنِّب: فهو رجل قصده التعيير والإهانة وذمُّ مَن أنّبه وشتمُه في صورة النصح، فهو يقول له: يا فاعل كذا وكذا يا مستحقًّا الذم والإهانة، في صورة ناصح مشفق، وعلامة هذا أنه لو رأى من يحبه ويحسن إليه على مثل عمل هذا أو شر منه لم يعرض له ولم يقل له شيئًا، ويطلب له وجوه المعاذير، فإن غُلِبَ قال: وأنى ضمنت له العصمة؟! والإنسان عرضة للخطأ، ومحاسنه أكثر من مساويه، والله غفور رحيم، ونحو ذلك.

فيا عجبا! كيف كان هذا لمن يحبه دون من يبغضه؟! وكيف كان حظ ذلك منك التأنيب في صورة النصح، وحظ هذا منك رجاء العفو والمغفرة وطلب وجوه المعاذير؟!

ومن الفروق بين الناصح والمؤنِّب: أن الناصح لا يعاديك إذا لم تقبل

---

(١) «الروح» (ص ٢٥٧-٢٥٨).

نصيحته، وقال: قد وقع أجري على الله قبلت أو لم تقبل، ويدعو لك بظهر الغيب، ولا يذكر عيوبك ولا يبينها في الناس، والمؤنِّب ضد ذلك».

⊙⊙⊙⊙⊙

الفرق بين النصيحة والغيبة

قال[1]: «الفرق بين النصيحة والغيبة: أن النصيحة يكون القصد فيها تحذير المسلم من مبتدع أو فتَّان أو غاش أو مفسد، فتذكر ما فيه إذا استشارك في صحبته ومعاملته والتعلق به، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس وقد استشارته في نكاح معاوية وأبي جَهْم، فقال: «أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ، وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ»[2].

وقال عن بعض أصحابه لمن سافر معه: «إِذَا هَبَطْتَ عَلَى بِلَادِ قَوْمِهِ فَاحْذَرْهُ»[3].

فإذا وقعت الغيبة على وجه النصيحة لله ورسوله وعباده المسلمين فهي قربة إلى الله من جملة الحسنات، وإذا وقعت على وجه ذم أخيك وتمزيق عرضه والتفكه بلحمه والغض منه، لتضع منزلته من قلوب الناس، فهي الداء العضال ونار الحسنات التي تأكلها كما تأكل النار الحطب».

⊙⊙⊙⊙⊙

---

(١) «الروح» (ص ٢٤٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٨٠) وغيره. وعنده: «أَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ». الحديث.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٦١) وغيره، عن عمرو بن الفَغْوَاء الخُزَاعي رضي الله عنه قال: دعاني رسول الله ﷺ وقد أراد أن يبعثني بمال إلى أبي سفيان يقسمه في قريش بمكة بعد الفتح، فقال: «الْتَمِسْ صَاحِبًا». قال: فجاءني عمرو بن أمية الضَّمْري فقال: بلغني أنك تريد الخروج وتلتمس صاحبًا؟ قال: قلت: أجل. قال: فأنا لك صاحب. قال: فجئت رسول اللـه ﷺ، قلت: قد وجدت صاحبًا. قال: فقال: «مَنْ؟» قلت: عمرو بن أمية الضَّمْري. قالَ: «إِذَا هَبَطْتَ بِلَادَ قَوْمِهِ فَاحْذَرْهُ، فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ الْقَائِلُ: أَخُوكَ الْبِكْرِيُّ وَلَا تَأْمَنْهُ». الحديث. وهو في «الضعيفة» (١٢٠٥).

الفرق بين النفس والروح

قال[1]: «الفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات، وإنما سمي الدم نفسًا لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلازم خروج النفس، وأن الحياة لا تتم إلا به كما لا تتم إلا بالنفس، فلهذا قال [الشاعر]:

تسيل على حَدّ الظُّباةِ نفوسُنا ... وليست على غير الظُّباةِ تسيلُ

ويقال: فاضت نفسه، وخرجت نفسه، وفارقت نفسه، كما يقال: خرجت روحه وفارقت، ولكن الفيض الاندفاع وهلة واحدة، ومنه الإفاضة، وهي الاندفاع بكثرة وسرعة، لكن أفاض إذا دفع باختياره وإرادته، وفاض إذا اندفع قسرًا وقهرًا، فالله سبحانه هو الذي يفيضها عند الموت فتفيض هي».

⦿⦿⦿⦿⦿

الفرق بين النية والقصد

قال[2]: «النية هي القصد بعينه، ولكن بينها وبين القصد فرقان:

أحدهما: أن القصد معلق بفعل الفاعل نفسه وبفعل غيره، والنية لا تتعلق إلا بنفسه، فلا يتصور أن ينوي الرجل فعل غيره ويتصور أن يقصده ويريده.

الفرق الثاني: أن القصد لا يكون إلا بفعل مقدور يقصده الفاعل، وأما النية فينوي الإنسان ما يقدر عليه وما يعجز عنه، ولهذا في حديث أبي كبشة الأنماري الذي رواه أحمد والترمذي وغيرهما، عن النبي ﷺ: «الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِي مَالِهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّـهِ

(١) «الروح» (ص ٢١٨).

(٢) «بدائع الفوائد» (٣/٧٠٨).

فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْـمَنَازِلِ عِنْدَ اللهِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، وَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، [فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّـهِ فِيهِ حَقًّا]، ذَلِكَ شَرُّ مَنْزِلَةً عِنْدِ اللهِ»، ثم قال: «وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، وَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ»[1].

فالنية تتعلق بالمقدور عليه والمعجوز عنه، بخلاف القصد والإرادة فإنهما لا يتعلقان بالمعجوز عنه لا مِن فعله ولا مِن فعل غيره».

⊙⊙⊙⊙⊙

الفرق بين الهم والحزن

قال[2]: «الهم والحزن قرينان، وهما من آلام الروح ومعذباتها، والفرق بينهما: أن الهم توقع الشر في المستقبل، والحزن التألم على حصول المكروه في الماضي أو فوات المحبوب، وكلاهما تألم وعذاب يَرِد على الروح، فإن تعلق بالماضي سُمِّي حزنًا، وإن تعلق بالمستقبل سُمِّي همًّا».

❐❐❐❐❐

(١) بعض حديث، أخرجه بنحوه الترمذي (٢٣٢٥)، وأحمد (١٧٥٧٠)، والزيادة منهما، وغيرُهما. وصححه الألباني.

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/٤٣٣).

الفهرس

الفهرس

○○○○○

كتب للمؤلف

الخوف من الله تعالى

المشوق إلى ذكر الله تعالى

الفرار إلى الله تعالى

الندامة الكبرى

دعوة الأنام إلى دار السلام

السعي المشكور

كشف الكرب

صفات الزوجة الصالحة

بشرى المتقين

المشوق إلى الحور العين

التحذير من اليمين الغموس

الخصال الموجبة لصلاة الملائكة

أبواب الجنة

مثل الحياة الدنيا

صفات الأبرار والمقربين

رؤية النبي ﷺ في المنام

دموع القراء

المواعظ الجوزية

الفروق لابن القيم

الفوائد الفقهية لابن القيم

الجزاء من جنس العمل

إحصاء الأسماء الحسنى

قناديل الشهداء

وداع الشهداء

اللؤلؤ المصنوع

أسئلة يوم القيامة

الأذكار المضاعفة

كنوز من تحت العرش

الفردوس الأعلى

سرير المنايا

شأن العافية

شأن صلاة الفجر

غراس الجنة

النوادر الذهبية

الاعتبار بأقوال المحتضرين

أحاديث السنن الأربعة الموضوعة